

كتاب
توحيد الألوهية

١/١ / قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - قدس الله روحه :-

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون. العالم بما كان وما هو كائن وما سيكون الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، الذي يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ، الذي دل على وحدانيته في إلهيته أجناس الآيات ، وأبان علمه لخليقته ما فيها من إحكام المخلوقات ، وأظهر قدرته على بريته ما أبدعه من أصناف المحدثات ، وأرشد إلى فعله بسنته تنوع الأحوال المختلفات ، وأهدى برحمته لعباده نعمه التي لا يحصيها إلا رب السموات ، وأعلم بحكمته البالغة دلائل حمده وثنائه الذي يستحقه من جميع الحالات ، لا يحصي العباد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه لما له من الأسماء والصفات ، وهو المنعوت بنعوت الكمال وصفات الجلال التي لا يمثاله فيها شيء من الموجودات ، وهو القدوس السلام المنتزه أن يمثاله شيء في نعوت الكمال ، أو يلحقه شيء من الآفات ، فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، الذي خلق السموات والأرض ولم يتخذ ٢/١ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً .

أرسل الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ، مبشرين لمن أطاعهم بغاية المراء من كل ما تحبه النفوس وتراه نعيما ، ومنذرين لمن عصاهم باللعن والإبعاد وأن يعذبوا عذاباً أليماً ، وأمرهم بدعاء الخلق إلى عبادته وحده لا شريك له ، مخلصين له الدين ولو كره المشركون . كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون : ٥١ ، ٥٢] . وجعل لكل منهم شرعةً ومنهاجاً ، ليستقيموا إليه ولا ييغوا عنه اعوجاجاً .

وختمهم بمحمد ﷺ أفضل الأولين والآخرين ، وصفوة رب العالمين ، الشاهد البشير

النذير الهادي السراج المنير، الذي أخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وهداهم إلى صراط العزيز الحميد، الله الذي له ما في السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد. بعثه بأفضل المناهج والشرع، وأحبط به أصناف الكفر والبدع، وأنزل عليه أفضل الكتب والأنباء، وجعله مهيمناً على ما بين يديه من كتب السماء.

وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله. هو شهيد عليهم وهم شهداء على الناس في الدنيا والآخرة، بما أسبغه عليهم من النعم الباطنة والظاهرة، وعصمهم أن يجتمعوا على ضلالة، إذ لم يبق بعده نبي يبين ما بدل من الرسالة، وأكمل لهم دينهم، وأتم عليهم نعمه، ورضى لهم الإسلام ديناً، وأظهره على/الدين كله إظهاراً بالنصرة والتمكين؛ وإظهاراً بالحجة والتبيين، وجعل فيهم علماءهم ورثة الأنبياء، يقومون مقامهم في تبليغ ما أنزل من الكتاب، وطائفة منصورة لا يزالون ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى حين الحساب.

وحفظ لهم الذكر الذي أنزله من الكتاب المكنون كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُم لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. فلا يقع في كتابهم من التحريف والتبديل كما وقع من أصحاب التوراة والإنجيل.

وخصهم بالرواية والإسناد الذي يميز به بين الصدق والكذب الجهاذة النقاد، وجعل هذا الميراث يحمله من كل خلف عدوله أهل العلم والدين؛ ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين لتدوم بهم النعمة على الأمة، ويظهر بهم النور من الظلمة، ويحيي بهم دين الله الذي بعث به رسوله، وبين الله بهم للناس سبيله، فأفضل الخلق أتبعهم لهذا النبي الكريم المنعوت في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، رب العالمين، وإله المرسلين، وملك يوم الدين.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله إلى الناس أجمعين، أرسله والناس من الكفر والجهل والضلال في أقبح خيبة وأسوأ حال. فلم يزل ﷺ يجتهد في تبليغ الدين وهدى العالمين وجهاد الكفار والمنافقين، حتى طلعت شمس الإيمان، وأدبر ليل البهتان، وعز جند الرحمن، وذل حزب الشيطان، وظهر نور الفرقان، واشتهرت تلاوة القرآن، وأعلن بدعوة الأذان، واستنار بنور الله أهل البوادي والبلدان، وقامت حجة الله على الإنس والجان، ٤/١

لما قام المستجيب من معد بن عدنان صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان، صلاة يرضى بها الملك الديان، وسلم تسليمًا مقرونًا بالرضوان .

أما بعد :

فإنه لا سعادة للعباد، ولا نجاة في المعاد إلا باتباع رسوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٣، ١٤] فطاعة الله ورسوله قطب السعادة التي عليه تدور، ومستقر النجاة الذي عنه لا تحور.

فإن الله خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وإنما تعبدتهم بطاعته وطاعة رسوله، فلا عبادة إلا ما هو واجب أو مستحب في دين الله، وما سوى ذلك فضلًا عن سبيله. ولهذا قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» أخرجاه في الصحيحين^(١)، وقال ﷺ في حديث العرباض ابن سارية الذي رواه أهل السنن وصححه الترمذى: «إنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»^(٢). وفى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم وغيره أنه كان يقول فى خطبته: «خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»^(٣).

وقد ذكر الله طاعة الرسول واتباعه فى نحو من أربعين موضعاً من القرآن،

كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٤،

(١) البخارى فى الاعتصام بالكتاب والسنة معلقاً (الفتح ٣١٧/١٣) وفى الصلح (٢٦٩٧) بلفظ آخر، ومسلم فى الأفضية (١٨/١٧١٨)، كلاهما عن عائشة رضى الله عنها .

(٢) أبو داود فى السنة (٤٦٠٧)، والترمذى فى العلم (٢٦٧٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه فى المقدمة (٤٢)، والدارمى فى المقدمة ٤٤/١، وأحمد ١٢٦/٤ .

(٣) مسلم فى الجمعة (٤٣/٨٦٧)، وابن ماجه فى المقدمة (٤٥)، وأحمد ٣٧١/٣، كلهم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

[٦٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا^(١) اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُعْبِدْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل محبة العبد لربه موجبة لاتباع الرسول، وجعل متابعة الرسول سبباً لمحبة الله عبده، وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فما أوحاه الله إليه يهدي الله به من يشاء من عباده، كما أنه ﷺ بذلك هداه الله تعالى كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبأ: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

فبمحمد ﷺ تبين الكفر من الإيمان ، والربح من الخسران ، والهدى من الضلال ، والنجاة من الوبال ، والغى من الرشاد ، والزيف من السداد ، وأهل الجنة من أهل النار ، والمتقون من الفجار ، وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النبين والصادقين والشهداء والصالحين ، من سبيل المغضوب عليهم والضالين .

فالنفس أحوج إلى معرفة ما جاء به واتباعه منها إلى الطعام والشراب ، فإن هذا إذا فات حصل الموت فى الدنيا ، وذاك إذا فات حصل العذاب .

٦/١ فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته فى معرفة ما جاء به وطاعته ؛ إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة فى دار النعيم . والطريق إلى ذلك الرواية والنقل ، إذ لا يكفى من ذلك مجرد العقل ، بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور قدامه ، فكذلك نور العقل لا يهتدى إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة ، فلهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الإسلام ، وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجباً على جميع الأنام .

والله - سبحانه - بعث محمداً بالكتاب والسنة ، وبهما أتم على أمة المنه ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَمَنَىٰ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَأَذْكُرِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٠ - ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال

(١) فى المطبوعة : « وأطيعوا » ، والصواب ما أثبتناه .

تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى عن الخليل: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، وقد قال غير واحد من العلماء: منهم يحيى بن أبي كشير وقتادة والشافعي وغيرهم: ﴿الْحِكْمَةُ﴾: هي السنة؛ لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكروا ما يتلى في بيوتهم من الكتاب والحكمة، والكتاب: القرآن، وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة.

وقد جاء عن النبي ﷺ من عدة أوجه من حديث أبي رافع/وأبي ثعلبة وغيرهما أنه ٧/١ قال: «لَا أُلْفِينَ أَحَدَكُمْ مَتَكُنَّا عَلَى أُرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ» فيقول: بيننا وبينكم القرآن، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه^(١). وفي رواية: «ألا وإنه مثل الكتاب».

ولما كان القرآن متميزاً بنفسه - لما خصه الله به من الإعجاز الذي باين به كلام الناس كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وكان منقولاً بالتواتر - لم يطمع أحد في تغيير شيء من ألفاظه وحروفه، ولكن طمع الشيطان أن يدخل التحريف والتبديل في معانيه بالتغيير والتأويل، وطمع أن يدخل في الأحاديث من النقص والازدياد ما يضل به بعض العباد.

فأقام الله - تعالى - الجهابذة النقاد، أهل الهدى والسداد، فدحروا حزب الشيطان، وفرقوا بين الحق والبهتان، وانتدبوا لحفظ السنة ومعاني القرآن من الزيادة في ذلك والنقصان.

وقام كل من علماء الدين بما أنعم به عليه وعلى المسلمين - مقام أهل الفقه الذين فقهوا معاني القرآن والحديث - بدفع ما وقع في ذلك من الخطأ في القديم والحديث، وكان من ذلك الظاهر الجلي، الذي لا يسوغ عنه العدول؛ ومنه الخفي، الذي يسوغ فيه

(١) أبو داود في السنة (٤٦٠٥)، والترمذي في العلم (٢٦٦٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في المقدمة (١٣).

الاجتهاد للعلماء العدول.

وقام علماء النقل والنقاد بعلم الرواية والإسناد، فسافروا في ذلك إلى البلاد، وهجروا فيه لذيق الرقاد، وفارقوا الأموال والأولاد، وأنفقوا فيه الطارف والتلاد^(١)، وصبروا فيه على النوائب، وقنعوا من الدنيا بزاد الراكب،/ ولهم في ذلك من الحكايات المشهورة، والقصاص الماثورة، ما هو عند أهله معلوم، ولن طلب معرفته معروف مرسوم، بتوسد أحدهم التراب وتركهم لذيق الطعام والشراب، وترك معاشره الأهل والأصحاب، والتصبر على مرارة الاغتراب، ومقاساة الأهوال الصعاب، أمر حبه الله إليهم وحلاه ليحفظ بذلك دين الله. كما جعل البيت مثابة للناس وأمنًا، يقصدونه من كل فج عميق، ويتحملون فيه أمورًا مؤلمة تحصل في الطريق، وكما حبب إلى أهل القتال الجهاد بالنفس والمال حكمة من الله يحفظ بها الدين ليهدي المهتدين، ويظهر به الهدى ودين الحق، الذي بعث به رسوله ولو كره المشركون.

فمن كان مخلصًا في أعمال الدين يعملها لله، كان من أولياء الله المتقين، أهل النعيم المقيم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

وقد فسر النبي ﷺ البشرى في الدنيا بنوعين:

أحدهما: ثناء المثين عليه.

والثاني: الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح؛ أو ترى له.

فقيل: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»^(٢). وقال البراء بن عازب: سئل النبي ﷺ عن قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فقال: «هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له»^(٣).

(١) الطارف: المال المستحدث، والتلاد خلافه. انظر: المصباح المنير، مادة «طرف» و«تلد».

(٢) مسلم في البر والصلة (٢٦٤٢/٢)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٥)، وأحمد ١٥٦/٥، ١٥٧، عن أبي ذر رضى الله عنه.

(٣) الترمذى في الرؤيا (٢٢٧٥) وقال: «هذا حديث حسن»، وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٨٩٨)، والحاكم في المستدرک في التفسير ٢/ ٣٤٠ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. كلهم من حديث عبادة بن الصامت، ولم أقف على رواية البراء بن عازب رضى الله عنه.

والقائمون بحفظ العلم الموروث عن رسول الله ﷺ، الحافظون له من الزيادة والنقصان، هم من أعظم أولياء الله المتقين وحزبه/المفلحين، بل لهم مزية على غيرهم من ٩/١ أهل الإيمان والأعمال الصالحات، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] قال ابن عباس: يرفع الله [الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات] (١).

وعلم الإسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد ﷺ، وجعله سُلماً إلى الدراية. فأهل الكتاب لا إسناد لهم يأترون به المنقولات، وهكذا المستدعون من هذه الأمة أهل الضلالات، وإنما الإسناد لمن أعظم الله عليه المنة، أهل الإسلام والسنة، يفرقون به بين الصحيح والسقيم، والمعوج والقويم.

وغيرهم من أهل البدع والكفار، إنما عندهم منقولات يأترونها بغير إسناد، وعليها دينهم الاعتماد، وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل، ولا الحالي من العاطل.

وأما هذه الأمة المرحومة، وأصحاب هذه الأمة المعصومة، فإن أهل العلم منهم والدين هم من أمرهم على يقين، فظهر لهم الصدق من المين (٢) كما يظهر الصبح لذي عينين. عصمهم الله أن يجمعوا على خطأ في دين الله معقول أو منقول، وأمرهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

فإذا اجتمع أهل الفقه على القول بحكم لم يكن إلا حقاً، وإذا اجتمع أهل الحديث ١٠/١ على تصحيح حديث لم يكن إلا صدقاً، ولكل من الطائفتين من الاستدلال، على مطلوبهم بالجللي والخفي ما يعرف به من هو بهذا الأمر حَقِّي (٣)، والله تعالى يلهمهم الصواب في هذه القضية، كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية، وكما عرف ذلك بالتجربة الوجودية؛ فإن الله كتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، لما صدقوا في موالة الله ورسوله؛ ومعاودة من عدل عنه، قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

(١) بياض بالأصل، والزيادة من الحاكم في التفسير ٤٨١/٢ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) المين: الكذب. انظر: لسان العرب، مادة «مين».

(٣) حَقِّي: عالم. انظر: لسان العرب، مادة «حقا».

أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ. [المجادلة: ٢٢].

وأهل العلم الماثور عن الرسول أعظم الناس قياماً بهذه الأصول، لا تأخذ أحدهم في الله لومة لائم، ولا يصددهم عن سبيل الله العظائم، بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليه، ويتكلم في أحب الناس إليه، عملاً بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ يَاقُسِطُ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ تَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ يَاقُسِطُ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ شَتَاتٌ قَوْمٍ عَلَىٰ مَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]. ولهم من

التعديل والتجريح، والتضعيف والتصحيح، من السعي المشكور، والعمل المبرور، ما كان من أسباب حفظ الدين، وصيانته عن إحداث المفترين، وهم في ذلك على درجات: منهم المقتصر على مجرد النقل والرواية، ومنهم أهل المعرفة بالحديث والدراية، ومنهم أهل ١١/١ الفقه فيه، والمعرفة بمعانيه.

وقد أمر النبي ﷺ الأمة أن يبلغ عنه من شهد لمن غاب، ودعا للمبلغين بالدعاء المستجاب، فقال في الحديث الصحيح: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(١). وقال أيضاً في خطبته في حجة الوداع: «ألا ليلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع»^(٢).

وقال أيضاً: «نُصِّرَ الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»^(٣).

وفي هذا دعاء منه لمن بلغ حديثه وإن لم يكن فقيهاً، ودعاء لمن بلغه وإن كان المستمع

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٤٦١)، والترمذى فى العلم (٢٦٦٩)، والدارمى فى المقدمة ١/١٣٦، وأحمد ٢/١٥٩، ٢٠٢، كلهم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه.

(٢) البخارى فى الحج (١٧٤١)، وابن ماجه فى المقدمة (٢٣٣)، كلاهما عن أبى بكره رضى الله عنه.

(٣) الترمذى فى العلم (٢٦٥٨)، وابن ماجه فى المقدمة (٢٣٠)، والدارمى فى المقدمة ١/٧٥، وأحمد ٥/١٨٣. وقوله: «نُصِّرَ» من النصارة وهى حسن الوجه، وإنما أراد: حَسَّنْ خُلُقَهُ وَقَدَّرَهُ. انظر: النهاية ٥/٧١.

أفقه من المبلغ؛ لما أعطى المبلغون من النضرة؛ ولهذا قال سفيان بن عيينة^(١): لا تجد أحداً من أهل الحديث إلا وفي وجهه نضرة؛ لدعوة النبي ﷺ، يقال: نَضُرٌ، ونَضْرٌ، والفتح أفصح.

ولم يزل أهل العلم في القديم والحديث يعظمون نقلة الحديث، حتى قال الشافعي رضي الله عنه: إذا رأيت رجلاً من أهل الحديث فكأنني رأيت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ. وإنما قال الشافعي هذا؛ لأنه في مقام الصحابة من تبليغ حديث النبي ﷺ. وقال الشافعي أيضاً: أهل الحديث حفظوا، فلهم علينا الفضل لأنهم حفظوا لنا. اهـ. / ١٢/١

(١) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران الكوفي، ولد سنة ١٠٧هـ، قال عنه ابن وهب: ما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله من ابن عيينة، وتوفي سنة ١٩٨هـ. [تهذيب التهذيب ٤/ ١١٧].

وقال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - :

قاعدة فى الجماعة والفرقة، وسبب ذلك ونتيجته

قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

أخبر - سبحانه - أنه شرع لنا ما وصى به نوحا، والذى أوحاه إلى محمد ، وما وصى به الثلاثة المذكورين، وهؤلاء هم أولو العزم المأخوذ عليهم الميثاق فى قوله: ﴿وَلِذَآ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله: ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ﴾، فجاء فى حق محمد باسم ﴿الَّذِى﴾ بلفظ الإيحاء ، وفى سائر الرسل بلفظ (الوصية) .

ثم قال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ . وهذا تفسير الوصية، و(أن): المفسرة التى تأتى بعد فعل من معنى القول لا من لفظه، كما فى قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ﴾ [النحل: ١٢٣]، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. والمعنى: قلنا لهم: اتقوا الله. فكذلك قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ فى معنى: قال لكم من الدين ما وصى به رسلاً، قلنا: أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، فالمشروع لنا هو الموصى به، والموحى، وهو: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ﴾. فأقيموا الدين مفسر/للمشروع لنا، الموصى به الرسل، والموحى إلى محمد، فقد يقال: الضمير فى ﴿أَقِيمُوا﴾ عائد إلينا. ويقال: هو عائد إلى الرسل. ويقال: هو عائد إلى الجميع. وهذا أحسن. ونظيره: أمرتك بما أمرت به زيداً، أن أطع الله، ووصيتكم بما وصيت بنى فلان، أن افعلوا. فعلى الأول: يكون بدلا من ﴿مَا﴾ أى شرع لكم ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾ وعلى الثانى: شرع ﴿مَا﴾ خاطبهم. ﴿أَقِيمُوا﴾، فهو يدل أيضاً، وذكر ما قيل للأولين. وعلى الثالث: شرع الموصى به ﴿أَقِيمُوا﴾.

فلما خاطب بهذه الجماعة بعد الإخبار بأنها مقولة لنا، ومقولة لهم، علم أن الضمير عائد إلى الطائفتين جميعاً. وهذا أصح إن شاء الله. والمعنى على التقديرين الأولين يرجع إلى هذا، فإن الذى شرع لنا، هو الذى وصى به الرسل. وهو الأمر بإقامة الدين، والنهى عن التفرق فيه؛ ولكن التردد فى أن الضمير تناولهم لفظه، وقد علم أنه قيل لنا مثله، أو

بالعكس، أو تناولنا جميعاً .

وإذا كان الله قد أمر الأولين والآخرين، بأن يقيموا الدين، ولا يفرقوا فيه، وقد أخبر أنه شرع لنا ما وصى به نوحاً، والذي أوحاه إلى محمد، فيحتمل شيئين :

أحدهما : أن يكون ما أوحاه إلى محمد يدخل فيه شريعته التي تختص بنا؛ فإن جميع ما بعث به محمد ﷺ قد أوحاه إليه، من الأصول والفروع، بخلاف نوح وغيره من الرسل، فإنما شرع لنا من الدين ما وصوا به؛ من إقامة الدين، وترك التفرق فيه. والدين الذي اتفقوا عليه: هو الأصول. فتضمن الكلام أشياء /:

١٤/١

أحدها: أنه شرع لنا الدين المشترك، وهو الإسلام والإيمان العام، والدين المختص بنا؛ وهو الإسلام، والإيمان الخاص .

الثاني : أنه أمرنا بإقامة هذا الدين كله المشترك، والمختص، ونهانا عن التفرق فيه .

الثالث : أنه أمر المرسلين بإقامة الدين المشترك، ونهاهم عن التفرق فيه .

الرابع : أنه لما فصل بقوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ بين قوله: ﴿مَا وَصَّيَ بِهِ نُوْحًا﴾ وقوله: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ أفاد ذلك .

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا^(١) إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]؛ فأخبر أن تفرقهم إنما كان بعد مجيء العلم، الذي بين لهم ما يتقون؛ فإن الله ما كان ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون. وأخبر أنهم ما تفرقوا إلا بغياً، والبغى مجاوزة الحد، كما قال ابن عمر... (٢) الكبر والحسد؛ وهذا بخلاف التفرق عن اجتهاد ليس فيه علم، ولا قصد به البغى، كتنازع العلماء السائغ، والبغى إما تضييع للحق، وإما تعدد للحد؛ فهو إما ترك واجب، وإما فعل محرم؛ فعلم أن موجب التفرق هو ذلك .

وهذا كما قال عن أهل الكتاب: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ ثَمَنًا فَسَوْا حَقًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤]، فأخبر أن نسيانهم حظاً مما ذُكِّروا به - وهو ترك العمل ببعض ما أمروا به - كان سبباً لإغراء العداء والبغضاء بينهم، وهكذا هو الواقع في أهل ملتنا، مثلما نجده بين الطوائف المتنازعة في أصول دينها، وكثير من فروعها، من أهل/الأصول والفروع، ومثلما نجده بين العلماء وبين ١٥/١ العباد؛ ممن يغلب عليه الموسوية، أو العيسوية، حتى يبقى فيهم شبه من الأمتين اللتين قالت كل واحدة: ليست الأخرى على شيء، كما نجد المتفقه المتمسك من الدين بالأعمال

(١) في المطبوعة: «وما تفرق الذين أوتوا الكتاب»، والصواب ما أثبتناه .

(٢) بياض بالأصل .

الظاهرة، والمتصوف المتمسك منه بأعمال باطنة، كل منهما ينفي طريقة الآخر، ويدعى أنه ليس من أهل الدين، أو يعرض عنه إعراض من لا يعده من الدين، فتقع بينهما العداوة والبغضاء.

وذلك: أن الله أمر بطهارة القلب، وأمر بطهارة البدن، وكلا الطهارتين من الدين الذي أمر الله به وأوجبه، قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وقال: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرِ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فنجد كثيراً من المتفقهة، والمتعبدة، إنما همته طهارة البدن فقط، ويزيد فيها على المشروع؛ اهتماماً، وعملاً. ويترك من طهارة القلب ما أمر به؛ إيجاباً، أو استحباباً، ولا يفهم من الطهارة إلا ذلك. ونجد كثيراً من المتصوفة، والمتفكرة، إنما همته طهارة القلب فقط؛ حتى يزيد فيها على المشروع؛ اهتماماً وعملاً. ويترك من طهارة البدن ما أمر به؛ إيجاباً، أو استحباباً.

فالأولون يخرجون إلى الوسوسة المذمومة في كثرة صب الماء، وتنجيس ما ليس بنجس، واجتناب ما لا يشرع اجتنابه، مع اشتغال قلوبهم على أنواع من الحسد والكبر، والغل لإخوانهم، وفي ذلك مشابهة بينة لليهود.

والآخرون يخرجون إلى الغفلة المذمومة، فيبالغون في سلامة الباطن حتى يجعلون الجهل بما تجب معرفته، من الشر - الذي يجب اتقاؤه - من سلامة الباطن، ولا يفرقون بين سلامة الباطن من إرادة الشر المنهى عنه، وبين سلامة القلب من معرفة الشر المعرفة المأمور بها، ثم مع هذا الجهل والغفلة قد لا يجتنبون النجاسات، ويقيمون الطهارة الواجبة مضاهاة للتصاوي.

وتقع العداوة بين الطائفتين بسبب ترك حظ مما ذكروا به، والبغى الذي هو مجاوزة الحد؛ إما تفريطاً وتضييعاً للحق، وإما عدواناً وفعلاً للظلم. والبغى تارة يكون من بعضهم على بعض، وتارة يكون في حقوق الله، وهما متلازمان ولهذا قال: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فإن كل طائفة بغت على الأخرى، فلم تعرف حقها الذي بأيديها، ولم تكف عن العدوان عليها.

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤]،

وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ بَيْنًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ﴾ الآية [الجاثية: ١٦]، وقال تعالى في موسى بن عمران مثل ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَائِمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُبِينٌ إِلَيْهِ وَاقْفُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ ١٧/١ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠ - ٣٢]؛ لأن المشركين كل منهم يعبد إلها يهواه. كما قال في الآية الأولى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أَنتُمْ كُرُمُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٣].

فظهر أن سبب الاجتماع والألفة جمع الدين ، والعمل به كله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما أمر به باطنا، وظاهرا.

وسبب الفرقة ترك حظ مما أمر العبد به، والبغي بينهم.

ونتيجة الجماعة رحمة الله، ورضوانه، وصلواته، وسعادة الدنيا والآخرة، وبياض الوجوه.

ونتيجة الفرقة عذاب الله، ولعنته، وسواد الوجوه، وبراءة الرسول منهم.

وهذا أحد الأدلة على أن الإجماع حجة قاطعة، فإنهم إذا اجتمعوا كانوا مطيعين لله بذلك مرحومين، فلا تكون طاعة لله ورحمته بفعل لم يأمر الله به، من اعتقاد، أو قول، أو عمل. فلو كان القول، أو العمل، الذي اجتمعوا عليه لم يأمر الله به، لم يكن ذلك طاعة لله، ولا سبباً لرحمته، وقد احتج بذلك أبو بكر عبد العزيز^(١) في أول «التنبيه» نبه على هذه النقطة.

(١) هو أبو بكر عبد العزيز بن جعفر بن أحمد بن يزداد، المعروف بغلام الخلال، من أهم مصنفاته: «الشافعي» و«المقنع»، توفي سنة ٣٦٣ هـ. [شذرات الذهب ٤٥/٣، ٤٦].

وقال:

فصل

قال ﷺ في الحديث المشهور في السنن من رواية فقيهى الصحابة، عبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت: «ثلاث لا يُغَلُّ عليهن قلبُ مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»^(١). وفي حديث أبي هريرة المحفوظ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولَّاه الله أمركم»^(٢).

فقد جمع في هذه الأحاديث بين الخصال الثلاث؛ إخلاص العمل لله، ومناصحة أولي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين. وهذه الثلاث تجمع أصول الدين وقواعده، وتجمع الحقوق التي لله ولعباده، وتتظم مصالح الدنيا والآخرة.

وبيان ذلك أن الحقوق قسمان: حق لله، وحق لعباده. فحق الله أن نعبده ولا نشرك به شيئاً، كما جاء لفظه في أحد الحديثين؛ وهذا معنى إخلاص العمل لله، كما جاء في الحديث الآخر. وحقوق العباد قسمان: خاص وعام؛ أما الخاص فمثل: برّ كل إنسان والديه، وحق زوجته، وجاره، فهذه من فروع الدين؛ لأن المكلف قد يخلو عن وجوبها عليه؛ ولأن مصلحتها خاصة فردية.

وأما الحقوق العامة فالناس نوعان: رعاة ورعية؛ فحقوق الرعاة مناصحتهم، وحقوق الرعية لزوم جماعتهم؛ فإن مصلحتهم لا تتم إلا باجتماعهم، وهم لا يجتمعون/على ضلالة، بل مصلحة دينهم وديارهم في اجتماعهم واعتصامهم بحبل الله جميعاً، فهذه الخصال تجمع أصول الدين.

وقد جاءت مفسرة في الحديث الذي رواه مسلم عن تميم الدَّارِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»^(٣). فالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله تدخل في حق الله وعبادته وحده لا شريك له، والنصيحة لأئمة المسلمين

(١) سبق تخريجه ص ١٢.

(٢) مالك في الكلام ٩٩٠/٢ (٢٠)، وأحمد ٣٢٧/٢، ٣٦٠.

(٣) مسلم في الإيمان (٩٥/٥٥).

وعامتهم هي مناصحة ولالة الأمر ولزوم جماعتهم، فإن لزوم جماعتهم هي نصيحتهم العامة، وأما النصيحة الخاصة لكل واحد واحد منهم بعينه، فهذه يمكن بعضها ويتعذر استيعابها على سبيل التعيين./

٢٠/١

وقال شيخ الإسلام - قدس الله روحه - :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً.

وبعد: فهذه قاعدة جلييلة في توحيد الله، وإخلاص الوجه والعمل له، عبادة واستعانة، قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ الآية [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ يَّعْمَلُوهُ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمَسُّنَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسُّنَّكَ بِضُرٍّ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِن يَمَسُّنَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِضُرٍّ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا نَكْتُمُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَجِيبُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]، وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِي﴾ الآية [الزمر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ. وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٢١/١]

(١) في المطبوعة: "قل أرايتكم"، والصواب ما أثبتناه.

[٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ لَا يَمُوتُ وَنَسِجَ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ إِذْنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الآية [الفرقان: ٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ الآية [البينة: ٥]. ونظائر هذا في القرآن كثير، وكذلك في الأحاديث، وكذلك في إجماع الأمة، ولا سيما أهل العلم والإيمان منهم، فإن هذا عندهم قطب رحي الدين كما هو الواقع.

ونبين هذا بوجه نقدم قبلها مقدمة.

وذلك أن العبد، بل كل حي، بل وكل مخلوق سوى الله، هو فقير محتاج إلى جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة، والمضرة هي من جنس الألم والعذاب؛ فلا بد له من أمرين:

أحدهما: هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به.

والثاني: هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه. وهذان هما الشئتان المنفصلان الفاعل والغاية فهنا أربعة أشياء:

٢٢/١

أحدها: أمر محبوب مطلوب الوجود.

والثاني: أمر مكروه مبغض مطلوب العدم.

والثالث: الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب.

والرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد، بل ولكل حي لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها، وأما ما ليس بحي فالكلام فيه على وجه آخر.

إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه:

أحدها: أن الله تعالى هو الذي يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب، وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه، وهو المعين على دفع المكروه؛ فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه، وهذا معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب؛ فالأول: من معنى الألوهية. والثاني: من معنى الربوبية؛ إذ الإله: هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراما. والرب: هو الذي

يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] ، وقوله : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] ، وقوله : ﴿ عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [المتحنة : ٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْيَحْيَى الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَيَحْيِي حَمْدَهُ ﴾ [الفرقان : ٥٨] ، وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد : ٣٠] ، وقوله : ﴿ وَبَنَّا إِلَيْهِ نَبِيًّا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل : ٨ ، ٩] .

٢٣/١ فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين .

الوجه الثاني : أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ، ومحبته والإخلاص له ، فذكره تطمئن قلوبهم ، وبرؤيته في الآخرة تَقَرُّ عيونهم ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه ؛ ولا شيء يعطيهم في الدنيا أعظم من الإيمان به .

وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه وتألهم كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم ؛ فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، وبذلك يصيرون عاملين متحركين ، ولا صلاح لهم ولا فلاح ، ولا نعيم ولا لذة ، بدون ذلك بحال . بل من أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى .

ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات ، وكان التوحيد بقول : لا إله إلا الله ، رأس الأمر .

فأما توحيد الربوبية الذي أقر به الخلق ، وقرره أهل الكلام ؛ فلا يكفى وحده ، بل هو من الحجة عليهم ، وهذا معنى ما يروى : « يا بن آدم ، خلقت كل شيء لك ، وخلقتك لى ، فبحقى عليك ألا تشغل بما خلقتك لك ، عما خلقتك له » .

واعلم أن هذا حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، كما فى الحديث الصحيح ، الذى رواه معاذ عن النبى ﷺ أنه قال : « أتدرى ما حق الله على عباده ؟ » قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال :

٢٤/١ « حقهم ألا يعذبهم » (١) .

(١) البخارى فى التوحيد (٧٣٧٣) ، ومسلم فى الإيمان (٥٠/٣٠) ، والترمذى فى الإيمان (٢٦٤٣) ، وابن ماجه فى الزهد (٤٢٩٦) ، وأحمد ٣/٢٦٠ ، ٢٦١ .

وهو يحب ذلك، ويرضى به، ويرضى عن أهله، ويفرح بتوبة من عاد إليه؛ كما أن في ذلك لذة العبد وسعادته ونعيمه، وقد بينت بعض معنى محبة الله لذلك وفرحه به في غير هذا الموضع.

فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه، إلا الله سبحانه، ومن عبد غير الله وإن أحبه وحصل له به مودة في الحياة الدنيا ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فإن قوامهما بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما آلهة غير الله لم يكن إلهًا حقًا؛ إذ الله لا سميَّ له ولا مثل له؛ فكانت تفسد لانتفاء ما به صلاحها هذا من جهة الإلهية.

وأما من جهة الربوبية فشيء آخر؛ كما نقرره في موضعه.

واعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبد الله لا يشرك به شيئًا، ليس له نظير فيقاس به؛ لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، وبينهما فروق كثيرة.

فإن حقيقة العبد قلبه، وروحه، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الله الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بلقائه.

ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال، وتارة أخرى يكون ذلك الذي يتنعم به والتدَّ غير منعم له ولا ملئت له، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده، ٢٥/١ ويضره ذلك.

وأما إلهه فلا بد له منه في كل حال وكل وقت، وأينما كان فهو معه؛ ولهذا قال إمامنا (إبراهيم) الخليل عليه السلام: ﴿لَا أُحِبُّ إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأنعام: ٧٦]. وكان أعظم آية في القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقد بسطت الكلام في معنى (القيوم) في موضع آخر، وبيننا أنه الدائم الباقي الذي لا يزول ولا يعدم، ولا يفنى بوجه من الوجوه.

واعلم أن هذا الوجه مبني على أصلين:

أحدهما: على أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان، وكما دل عليه القرآن، لا كما يقول من يعتقد من

أهل الكلام ونحوهم: إن عبادته تكليف ومشقة! . وخلاف مقصود القلب لمجرد الامتحان والاختبار ، أو لأجل التعويض بالأجرة كما يقوله المعتزلة وغيرهم ؛ فإنه وإن كان فى الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس ، والله - سبحانه - يأجر العبد على الأعمال المأمور بها مع المشقة، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتُهُمْ لَا يَصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ الآية [التوبة: ١٢٠]، وقال ﷺ لعائشة: «أجرك على قدر نصبك»^(١) - فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعى، وإنما وقع ضمنا وتبعاً لأسباب ليس هذا موضعها ، وهذا يفسر فى موضعه .

ولهذا لم يجئ فى الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح : أنه تكليف، كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقهة، وإنما جاء ذكر التكليف فى موضع النفسى، كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧] أي: وإن وقع فى الأمر تكليف، فلا يكلف إلا قدر الوسع، لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفاً، مع أن غالبها قرة العيون وسرور القلوب؛ ولذات الأرواح وكمال النعيم، وذلك لإرادة وجه الله والإنابة إليه، وذكره وتوجه الوجه إليه، فهو الإله الحق الذى تطمئن إليه القلوب، ولا يقوم غيره مقامه فى ذلك أبداً. قال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَأَسْطِطِرْ لِعِندِيهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] فهذا أصل .

الأصل الثانى: النعيم فى الدار الآخرة أيضاً مثل النظر إليه، لا كما يزعم طائفة من أهل الكلام ونحوهم، أنه لا نعيم ولا لذة إلا بالمخلوق: من المأكول والمشروب والمنكوح ونحو ذلك، بل اللذة والنعيم التام فى حظهم من الخالق سبحانه وتعالى، كما فى الدعاء الماثور: « اللهم إنى أسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة ». رواه النسائى، وغيره^(٢). وفى صحيح مسلم وغيره، عن صهيب عن النبى ﷺ قال: « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يبيّض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويخرجنا من النار؟! - قال - فيكشف الحجاب؛ فينظرون إليه - سبحانه - فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه »^(٣)، وهو الزيادة.

(١) الدارقطنى فى الحج ٢/ ٢٨٦ (٢٢٨)، والحاكم فى المناسك ١/ ٤٧١ وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ».

(٢) النسائى فى السهو (١٣٠٥، ١٣٠٦)، وأحمد ١٩١/٥ .

(٣) مسلم فى الإيمان (٢٩٧/١٨١)، والترمذى فى تفسير القرآن (٣١٠٥)، والنسائى فى الكبرى فى التفسير (١١٢٣٤)، وابن ماجه فى المقدمة (١٨٧)، وأحمد ١٦، ١٥/٦ .

فبين النبي ﷺ : أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم الله في الجنة، لم يعطهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وإنما يكون أحب إليهم لأن تنعمهم وتلذذهم به أعظم من التنعم والتلذذ بغيره. فإن اللذة تتبع الشعور بالمحبوب، فكلما كان الشيء أحب إلى الإنسان كان حصوله أذله، وتنعمه به أعظم. / وروي أن يوم الجمعة يوم المزيد، وهو يوم الجمعة من ٢٧/١ أيام الآخرة، وفي الأحاديث والآثار ما يصدق هذا، قال الله تعالى في حق الكفار: ﴿لَهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦]. فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب، ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم منه - تعالى.

وهذان الأصلان ثابتان في الكتاب والسنة، وعليهما أهل العلم والإيمان، ويتكلم فيهما مشايخ الصوفية والعارفون، وعليهما أهل السنة والجماعة، وعوام الأمة، وذلك من فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وقد يحتجون على من ينكرها بالنصوص والآثار تارة؛ وبالذوق والوجد أخرى - إذا أنكر اللذة - فإن ذوقها ووجدها ينفي إنكارها. وقد يحتجون بالقياس في الأمثال تارة؛ وهي الأقيسة العقلية.

الوجه الثالث : أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل ربه هو الذي خلقه ورزقه، وبصره وهداه وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله، وهذا الوجه أظهر للعامة من الأول؛ ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر من الأول، لكن إذا تدبر اللبيب طريقة القرآن، وجد أن الله يدعو عباده بهذا الوجه إلى الأول.

فهذا الوجه يقتضي: التوكل على الله، والاستعانة به، ودعاه، ومسألته، دون ما سواه. ويقتضي أيضاً: محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عبده، وإسباغ/نعمه عليه، وحاجة ٢٨/١ العبد إليه في هذه النعم، ولكن إذا عبدوه وأحبوه، وتوكلوا عليه من هذا الوجه، دخلوا في الوجه الأول. ونظيره في الدنيا من نزل به بلاء عظيم أو فاقة شديدة أو خوف مقلق، فجعل يدعو الله ويتضرع إليه حتى فتح له من لذة مناجاته ما كان أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولاً، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولاً حتى يطلبه ويشاق إليه.

والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه، ومن ذكر نعمائه عليهم،

ومن ذكر ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعيم واللذات، وليس عند المخلوق شيء من هذا، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبة على إحسانه.

الوجه الرابع : أن تعلق العبد بما سوى الله مضرة عليه، إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته في عبادة الله، فإنه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجته، ضره وأهلكه، وكذلك من النكاح واللباس، وإن أحب شيئاً حباً تاماً بحيث يخالقه فلا بد أن يسأله، أو يفارقه. وفي الأثر المأثور: «أحب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه، وكن كما شئت فكما تدين تدان»^(١).

واعلم أن كل من أحب شيئاً لغير الله فلا بد أن يضره محبوبه، ويكون ذلك سبباً لعذابه؛ ولهذا كان الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، يمثل لأحدهم كثره يوم القيامة شجاعاً أقرع يأخذ بلهزمته. يقول: أنا كنتك، أنا مالك.

وكذلك نظائر هذا في الحديث: «يقول الله يوم القيامة: يابن آدم، أليس عدلاً مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولاه في الدنيا؟»^(٢). وأصل التولي/الحب؛ فكل من أحب شيئاً دون الله ولاه الله يوم القيامة ما تولاه، وأصله جهنم وساءت مصيراً، فمن أحب شيئاً لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد، أو فقد، فإن فقد عذب بالفراق وتألم، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة، وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء. وكل من أحب شيئاً دون الله لغير الله فإن مضرت أكثر من منفعتها، فصارت المخلوقات وبالا عليه، إلا ما كان لله وفي الله، فإنه كمال وجمال للعبد، وهذا معنى ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه»^(٣). رواه الترمذي، وغيره.

الوجه الخامس : أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته، فإنه يخذل من تلك الجهة، وهو أيضاً معلوم بالاعتبار والاستقراء، ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل. وقد قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ

(١) الحاكم في الرقاق ٣٢٥/٤ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٥٥/٢ وقال: «رواه الطبراني في الأوسط وفيه زافر بن سليمان وثقه أحمد وابن معين وأبو داود وتكلم فيه ابن عدى وابن حبان بما لا يضر»، وكشف الخفاء ٦٠/٢ (١٧٣٤).

(٢) أحمد ١٤٥/٦، ١٦٠ عن عائشة عن النبي ﷺ بلفظ مختلف.

(٣) الترمذي في الزهد (٢٣٢٢) وقال: «هذا حديث غريب»، وابن ماجه في الزهد (٤١١٢)، عن أبي هريرة رضى الله عنه.

ضِدًّا ﴿[مریم : ٨١ ، ٨٢] .

وهذان الوجهان في المخلوقات نظير العبادة والاستعانة في المخلوق فلما قال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥] كان صلاح العبد في عبادة الله واستعانتة . وكان في عبادة ما سواه ، والاستعانة بما سواه ، مضرتة وهلاكه وفساده .

الوجه السادس : أن الله - سبحانه - غني ، حميد ، كريم ، واجد ، رحيم ، فهو - سبحانه - محسن إلى عبده مع غناه عنه ؛ يريد به الخير ويكشف عنه الضر ، لا لجلب منفعة إليه من العبد ، ولا لدفع مضرة ، بل رحمة وإحسانا ، والعباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم ، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ، ويجلبوا له منفعة ويدفعوا عنه ٣٠/١ مضرة ما ، وإن كان ذلك أيضاً من تيسير الله تعالى ، فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد إذا لم يكن العمل لله . فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته ، سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر فإذا أحبوا الأنبياء والأولياء طلبوا لقاءهم ، فهم يحبون التمتع برؤيتهم ، وسماع كلامهم ، ونحو ذلك .

وكذلك من أحب إنساناً لشجاعته أو رياسته ، أو جماله أو كرمه ، فهو يحب أن ينال حظه من تلك المحبة ، ولولا التذاذبه بها لما أحبه ، وإن جلبوا له منفعة كخدمة أو مال ، أو دفعوا عنه مضرة كمرض وعدو - ولو بالدعاء أو الثناء - فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله ، فأجناد الملوك ، وعبيد المالك ، وأجراء الصانع ، وأعوان الرئيس ، كلهم إنما يسعون في نيل أغراضهم به ، لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدم ، إلا أن يكون قد عُلِّمَ وأدَّب من جهة أخرى ، فيدخل ذلك في الجهة الدينية ، أو يكون فيها طبع عدل ، وإحسان من باب المكافأة والرحمة ، وإلا فالمقصود بالقصد الأول هو منفعة نفسه . وهذا من حكمة الله التي أقام بها مصالح خلقه ، وقسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ؛ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً .

إذا تبين هذا ظهر أن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول ، بل إنما يقصد منفعته بك ، وإن كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر إذا لم يراعِ العدل ، فإذا دعوته ؛ فقد دعوت مَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ .

والرب - سبحانه - يريدك لك ، ولمنفعتك بك ، لا ليتنفع بك ، وذلك منفعة عليك بلا مضرة . فتدبر هذا ، فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعة ٣١/١ لك ، فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول ، كما أنه لا يقدر عليه . ولا يحملنك هذا على جفوة الناس ، وترك الإحسان إليهم ، واحتمال الأذى منهم ، بل أحسن إليهم لله لا

لرجائهم، وكما لا تخفهم فلا ترجهم، وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله، وارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله، وكن ممن قال الله فيه: ﴿وَسِجِّئُهَا الَّذِينَ يُوْقَى مَالُهُ يَتَرَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا أَتِنَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ١٧ - ٢٠] وقال فيه: ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا تَزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا تَنْكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

الوجه السابع : أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجاتهم بك، وإن كان ذلك ضرراً عليك، فإن صاحب الحاجة أعمى لا يعرف إلا قضاءها.

الوجه الثامن : أنه إذا أصابك مضرة كالخوف والجوع والمرض، فإن الخلق لا يقدرّون على دفعها إلا بإذن الله، ولا يقصدون دفعها إلا لغرضٍ لهم في ذلك .

الوجه التاسع : أن الخلق لو اجتهدوا أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بأمر قد كتبه الله لك، ولو اجتهدوا أن يضروك لم يضروك إلا بأمر قد كتبه الله عليك، فهم لا ينفعونك إلا بإذن الله، ولا يضرونك إلا بإذن الله، فلا تعلق بهم رجاءك.

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُمْ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠، ٢١]. والنصر ٣٢/١ يتضمن دفع الضرر، والرزق يتضمن حصول المنفعة/قال الله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُبْجَى إِلَيْهِ تُمْرَتٌ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وقال الخليل - عليه السلام -: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ﴾ الآية [البقرة: ١٢٦].

٣٣/١ وقال النبي ﷺ: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم»^(١): بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم؟ |

فصل

جماع هذا أنك أنت إذا كنت غير عالم بمصلحتك، ولا قادر عليها، ولا مرید لها كما ينبغي، فغيرك من الناس أولى ألا يكون عالماً بمصلحتك، ولا قادراً عليها، ولا مریداً لها، والله - سبحانه - هو الذي يعلم ولا تعلم، ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله

(١) البخاري في الجهاد (٢٨٩٦)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٩٤)، والترمذي في الجهاد (١٧٠٢)، والنسائي في الجهاد (٣١٧٩)، وأحمد ١٩٨/٥ .

العظيم، كما في حديث الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب»^(١) /

٣٤/١

فصل

وهو مثل المقدمة لهذا الذي أمامه، وهو أن كل إنسان فهو همام حارث حساس متحرك بالإرادة، بل كل حي فهو كذلك له علم وعمل بإرادته. والإرادة هي المشيئة والاختيار، ولا بد في العمل الإرادي الاختياري من مراد وهو المطلوب، ولا يحصل المراد إلا بأسباب، ووسائل تحصله، فإن حصل بفعل العبد فلا بد من قدرة وقوة، وإن كان من خارج فلا بد من فاعل غيره، وإن كان منه ومن الخارج فلا بد من الأسباب، كالألات ونحو ذلك، فلا بد لكل حي من إرادة، ولا بد لكل مريد من عون يحصل به مراده.

فصار العبد مجبولاً على أن يقصد شيئاً ويريده، ويستعين بشيء ويعتمد عليه في تحصيل مراده، هذا أمر حتم لازم ضروري في حق كل إنسان يجده في نفسه، لكن المراد والمستعان على قسمين:

منه ما يراد لغيره، ومنه ما يراد لنفسه. والمستعان: منه ما هو المستعان لنفسه، ومنه ما هو تبع للمستعان وآلة له، فمن المراد ما يكون هو الغاية المطلوب، فهو الذي يذل له الطالب ويحبه، وهو الإله المقصود، ومنه ما يراد لغيره، وهو بحيث يكون المراد هو ذلك الغير، فهذا مراد بالعرض. ومن المستعان ما يكون هو الغاية التي يعتمد عليه العبد، ويتوكل عليه، ويعتضد به، ليس عنده فوقه غاية في الاستعانة، ومنه ما يكون تبعاً لغيره، بمنزلة الأعضاء مع القلب، والمال مع المالك، والآلات مع الصانع.

٣٥/١

فإذا تدبر الإنسان حال نفسه وحال جميع الناس، وجدهم لا ينفكون عن هذين الأمرين: لا بد للنفس من شيء تطمئن إليه وتنتهي إليه محبتها، وهو إلهاها. ولا بد لها من شيء تثق به وتعتمد عليه في نيل مطلوبها هو مستعانها، سواء كان ذلك هو الله أو غيره، وإذا فقد يكون عاماً وهو الكفر، كمن عبد غير الله مطلقاً، وسأل غير الله مطلقاً. مثل: عبادة الشمس والقمر، وغير ذلك الذين يطلبون منهم الحاجات، ويفزعون إليهم في النوائب.

(١) البخاري في التهجد (١١٦٢)، وأبو داود في الصلاة (١٥٣٨)، والترمذي في الوتر (٤٨٠) وقال: «حديث جابر حديث حسن صحيح غريب»، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٨٣)، وأحمد ٣ / ٣٤٤.

وقد يكون خاصاً في المسلمين، مثل : من غلب عليه حب المال، أو حب شخص ، أو حب الرياسة، حتى صار عبد ذلك، كما قال ﷺ : «تعس عبد الدرهم! تعس عبد الدينار! تعس عبد الخميصة! تعس عبد الخميعة!» : إن أعطى رضى، وإن منع سخط ! تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»^(١)، وكذلك من غلب عليه الثقة بجاهه وماله، بحيث يكون عنده مخدموه من الرؤساء ونحوهم، أو خادمه من الأعوان والأجناد ونحوهم، أو أصدقائه أو أمواله، هي التي تجلب المنفعة الفلانية وتدفع المضرة الفلانية، فهو معتمد عليها ومستعين بها والمستعان هو مدعو ومسؤول.

وما أكثر ما تستلزم العبادة الاستعانة، فمن اعتمد عليه القلب في رزقه ونصره ونفعه وضره، خضع له وذل ، وانقاد وأحبه من هذه الجهة وإن لم يحبه لذاته، لكن قد يغلب عليه الحال حتى يحبه لذاته، وينسى مقصوده منه، كما يصيب كثيراً ممن يحب المال أو يحب من يحصل له به العز والسلطان.

وأما من أحبه القلب وأراد وقصده، فقد لا يستعينه ويعتمد عليه إلا إذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه، كاستشعار المحب قدرة المحبوب على وصله، فإذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه استعانه، وإلا فلا، فالأقسام ثلاثة؛ فقد يكون محبوباً غير مستعان، وقد يكون مستعناً غير محبوب، وقد يجتمع فيه الأمران.

فإذا علم أن العبد لا بد له في كل وقت وحال من منتهى يطلبه هو إلهه، ومنتهى يطلب منه هو مستعانه - وذلك هو صمده الذي يصمد إليه في استعانه وعبادته - تبين أن قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] كلام جامع محيط أولاً وآخراً، لا يخرج عنه شيء، فصارت الأقسام أربعة :

إما أن يعبد غير الله ويستعينه - وإن كان مسلماً - فالشرك في هذه الأمة أخفى من ديبِ النمل .

وإما أن يعبد ويستعين غيره، مثل كثير من أهل الدين، يقصدون طاعة الله ورسوله وعبادته وحده لا شريك له ، وتخضع قلوبهم لمن يستشعرون نصرهم، ورزقهم، وهدايتهم، من جهته؛ من الملوك والأغنياء والمشاخ.

وإما أن يستعينه - وإن عبد غيره - مثل كثير من ذوي الأحوال ، وذوي القدرة وذوي السلطان الباطن أو الظاهر، وأهل الكشف والتأثير، الذين يستعينونه ويعتمدون عليه

(١) البخاري في الجهاد (٢٨٨٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٣٦).

ويسألونه ويلجؤون إليه، لكن مقصودهم غير ما أمر الله به ورسوله ، وغير اتباع دينه وشريعته التي بعث الله بها رسوله .

والقسم الرابع : الذين لا يعبدون إلا إياه، ولا يستعينون إلا به ، وهذا القسم الرباعي قد ذكر فيما بعد أيضا، لكنه تارة يكون بحسب العبادة والاستعانة، وتارة يكون بحسب المستعان ، فهنا هو بحسب المعبود والمستعان ؛ لبيان أنه لابد لكل عبد من معبود مستعان، وفيما بعد بحسب عبادة الله واستعانتة، فإن الناس فيها على أربعة أقسام. /

٣٧/١

وقال شيخ الإسلام :

فصل

في وجوب اختصاص الخالق بالعبادة والتوكل عليه ، فلا يعمل إلا له ، ولا يرجى إلا هو ، هو - سبحانه - الذي ابتدأك بخلقك والإنعام عليك ، بنفس قدرته عليك ومشئته ورحمته من غير سبب منك أصلاً ، وما فعل بك لا يقدر عليه غيره . ثم إذا احتجت إليه في جلب رزق أو دفع ضرر ، فهو الذي يأتي بالرزق لا يأتي به غيره ، وهو الذي يدفع الضرر لا يدفعه غيره ، كما قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُذُّ لَكُمْ يَفْضُرُّكُم مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [المالك : ٢٠ ، ٢١] .

وهو - سبحانه - ينعم عليك ، ويحسن إليك بنفسه ، فإن ذلك موجب ما تسمى به ، ووصف به نفسه ؛ إذ هو الرحمن الرحيم ، الودود المجيد ، وهو قادر بنفسه ، وقدرته من لوازم ذاته ، وكذلك رحمته وعلمه وحكمته ، لا يحتاج إلى خلقه بوجه من الوجوه ، بل هو الغني عن العالمين ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٤٠] ﴿ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُجُومُكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ . وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لفتى حميدٌ ﴿ [إبراهيم : ٧ ، ٨] .

٣٨/١ وفي الحديث الصحيح الإلهي : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، ولو كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي شيئاً » إلى آخر الحديث (١) .

فالرب - سبحانه - غني بنفسه ، وما يستحقه من صفات الكمال ثابت له بنفسه ، واجب له من لوازم نفسه ، لا يستقر في شيء من ذلك إلى غيره ، بل أفعاله من كماله : كَمُلَ فَعَلَ ، وإحسانه وجوده من كماله ، لا يفعل شيئاً لحاجة إلى غيره بوجه من الوجوه ، بل كل ما يريده فعله ، فإنه فعال لما يريد . وهو - سبحانه - بالغ أمره ، فكل ما يطلب فهو يبلغه ويناله ويصل إليه وحده لا يعينه أحد ، ولا يعوقه أحد ، لا يحتاج في شيء من

(١) مسلم في البر والصلة والآداب (٥٥/٢٥٧٧) .

فصل

والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له، كان أقرب إليه، وأعز له. وأعظم لقدره، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله. وأما المخلوق فكما قيل: «احتج إلى من شئت تكن أسيرهُ، واستغن عن من شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره، ولقد صدق القائل:

بين التذلل والتدلل نقطة في رفعها تتحير الأفهام

ذاك التذلل شـرك فافهم يا فتى بالخلف^(١)

فأعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق، إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم، كنت أعظم ما يكون عندهم، ومتى احتجت إليهم - ولو في شربة ماء - نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله ورحمته، ليكون الدين كله لله، ولا يشرك به شيء.

ولهذا قال حاتم الأصم - لما سئل: فيم السلامة من الناس؟ - قال: أن يكون شيئك لهم مبذولاً وتكون من شيءهم آيساً، لكن إن كنت معوضاً لهم عن ذلك وكانوا محتاجين، فإن تعادلت الحاجتان تساويتم كالمبتاعين ليس لأحدهما فضل على الآخر، وإن كانوا إليك أحوج خضعوا لك.

فالرب - سبحانه - أكرم ما تكون عليه أحوج ما تكون إليه، وأفقر ما تكون إليه. ٤٠/١ والخلق أهون ما يكون عليهم أحوج ما يكون إليهم؛ لأنهم كلهم محتاجون في أنفسهم، فهم لا يعلمون حوائجك، ولا يهتدون إلى مصلحتك، بل هم جهلة بمصالح أنفسهم، فكيف يهتدون إلى مصلحة غيرهم؟! فإنهم لا يقدرُونَ عليها، ولا يريدون من جهة أنفسهم، فلا علم ولا قدرة ولا إرادة. والرب - تعالى - يعلم مصالحك ويقدر عليها، ويريد لها رحمة منه وفضلاً، وذلك صفته من جهة نفسه، لا شيء آخر جعله مريداً راحماً، بل رحمته من لوازم نفسه، فإنه كتب على نفسه الرحمة، ورحمته وسعت كل شيء، والخلق كلهم محتاجون، لا يفعلون شيئاً إلا لحاجتهم ومصلحتهم، وهذا هو الواجب عليهم والحكمة، ولا ينبغي لهم إلا ذلك، لكن السعيد منهم الذي يعمل لمصلحته التي

(١) هكذا بالأصل.

هي مصلحة، لا لما يظنه مصلحة وليس كذلك . فهم ثلاثة أصناف : ظالم، وعادل، ومحسن .

فالظالم : الذي يأخذ منك مالا أو نفعاً ولا يعطيك عوضه ، أو ينفع نفسه بضررك .

والعادل : المكافئ . كالبائع لا لك ولا عليك، كل به يقوم الوجود ، وكل منهما محتاج إلى صاحبه، كالزوجين ، والمتبايعين، والشريكين .

والمحسن : الذي يحسن لا لعوض يناله منك . فهذا إنما عمل لحاجته ومصلحته، وهو انتفاعه بالإحسان، وما يحصل له بذلك مما تحبه نفسه من الأجر، أو طلب مدح الخلق ، وتعظيمهم ، أو التقرب إليك، إلى غير ذلك . وبكل حال : ما أحسن إليك إلا لما يرجو من الانتفاع . وسائر الخلق، إنما يكرمونك ويعظمونك لحاجتهم إليك، وانتفاعهم بك ، ٤١/١ إما بطريق/المعاوضة؛ لأن كل واحد من المتبايعين والمشاركين والزوجين محتاج إلى الآخر، والسيد محتاج إلى مماليكه وهم محتاجون إليه، والملوك محتاجون إلى الجند والجند محتاجون إليهم ، وعلى هذا بني أمر العالم . وإما بطريق الإحسان منك إليهم . فأقرباؤك وأصدقاؤك وغيرهم إذا أكرموك لنفسك، فهم إنما يحبونك ويكرمونك لما يحصل لهم بنفسك من الكرامة ، فلو قد وليت ولوا عنك وتركوك، فهم في الحقيقة إنما يحبون أنفسهم، وأغراضهم .

فهؤلاء كلهم من الملوك إلى من دونهم، تجد أحدهم سيداً مطاعاً، وهو في الحقيقة عبد مطيع وإذا أودى أحدهم بسبب سيده أو من يطيعه تغير الأمر بحسب الأحوال ، ومتى كنت محتاجاً إليهم، نقص الحب والإكرام والتعظيم بحسب ذلك وإن قضوا حاجتك .

والرب -تعالى - يتمتع أن يكون المخلوق مكافئاً له أو متفضلاً عليه ؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول - إذا رفعت مائدته- : « الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفي ولا مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا » رواه البخاري من حديث أبي أمامة^(١) . بل ولا يزال الله هو المنعم المتفضل على العبد وحده لا شريك له في ذلك، بل ما بالخلق كلهم من نعمة فمن الله، وسعادة العبد في كمال افتقاره إلى الله، واحتياجه إليه، وأن يشهد ذلك ويعرفه ويتصف معه بموجبه، أي بموجب علمه ذلك . فإن الإنسان قد يفتقر ولا يعلم، مثل أن يذهب ماله ولا يعلم ، بل يظنه باقياً، فإذا علم بذهابه صار له حال آخر، فكذلك الخلق كلهم فقراء إلى الله، لكن أهل الكفر والنفاق في جهل بهذا وغفلة عنه وإعراض عن تذكره والعمل به، والمؤمن يقر بذلك ويعمل بموجب إقراره، وهؤلاء هم

(١) البخاري في الأطعمة (٥٤٥٨) .

فالإنسان وكل مخلوق فقير إلى الله بالذات، وفقره من لوازم ذاته، يمتنع أن يكون إلا فقيراً إلى خالقه، وليس أحد غنياً بنفسه إلا الله وحده، فهو الصمد الغني عما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، فالعبد فقير إلى الله من جهة ربوبيته ومن جهة إلهيته، كما قد بسط هذا في مواضع.

والإنسان يذنب دائماً، فهو فقير مذنب، وربّه تعالى يرحمه ويغفر له، وهو الغفور الرحيم، فلولا رحمته وإحسانه لما وجد خير أصلاً، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولولا مغفرته لما وقى العبد شر ذنوبه، وهو محتاج دائماً إلى حصول النعمة، ودفع الضر والشر ولا تحصل النعمة إلا برحمته، ولا يندفع الشر إلا بمغفرته، فإنه لا سبب للشر إلا ذنوب العباد، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، والمراد بالسيئات: ما يسوء العبد من المصائب، وبالحسنات: ما يسره من النعم، كما قال: ﴿وَبَلَّغْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، فالنعم والرحمة والخير كله من الله فضلاً وجوداً، من غير أن يكون لأحد من جهة نفسه عليه حق، وإن كان -تعالى- عليه حق لعباده، فذلك الحق هو أحقه على نفسه، وليس ذلك من جهة المخلوق، بل من جهة الله، كما قد بسط هذا في مواضع.

والمصائب بسبب ذنوب العباد وكسبهم، كما قال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

والنعم، وإن كانت بسبب طاعات يفعلها العبد فيثيبه عليها، فهو -سبحانه- المنعم بالعبد وبطاعته وثوابه عليها، فإنه -سبحانه- هو الذي خلق العبد وجعله مسلماً طائعاً، كما قال الخليل: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال: ﴿أَجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فسأل ربه أن يجعله مسلماً وأن يجعله مقيم الصلاة، وقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلَيمَنَ وَزَيَّنَّا فِي قُلُوبِكُمُ الْآيَةَ﴾ [الحجرات: ٧]، قال في آخرها: ﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٨].

وفي صحيح أبي داود وابن حبان: «اهدنا سبيل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك، قابليها، وأتممها علينا»^(١)، وفي

(١) أبو داود في الصلاة (٩٦٩)، وابن حبان (٢٤٢٩) (موارد الظمان).

الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وفي الدعاء الذي رواه الطبراني عن ابن عباس قال: مما دعا به رسول الله ﷺ عشية عرفة: «اللهم إني أسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سرِّي وعلايتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل^(١) المشفق، المقر بذنبي، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته، وذلل لك جسده، ورغم لك أنفه، اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقياً، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين» (٢).

ولفظ العبد في القرآن يتناول من عبدَ الله، فأما عبد لا يعبد فلا يطلق عليه لفظ عبده، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَنْعَكَ مِنَ الْعَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، فالاستثناء فيه منقطع، كما قاله أكثر المفسرين والعلماء، وقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ [ص: ١٧]، ﴿نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، ٤٤/١ ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١]، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥]، ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الكهف: ٦٥]، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿إِنَّهُمْ كَانَتْ عَبْدًا شُكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]. ونحو هذا كثير. وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُنثَالِكُم﴾ [الأعراف: ١٩٤]، ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الكهف: ١٠٢] قد يقال في هذا: إن المراد به الملائكة، والأنبياء، إذا كان قد نهى اتخاذهم أولياء فغيرهم بطريق الأولى، فقد قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في الدُّجَالِ: «فيوحى الله إلى المسيح أن لي

(١) أي: الخائف. انظر: لسان العرب، مادة «وجل».

(٢) الطبراني في الكبير ١١ / ١٧٤ (١١٤٠٥)، وذكره الهيثمي في المجمع ٣ / ٢٥٥ وقال: «رواه الطبراني في الكبير والصغير، وفيه يحيى بن صالح الأبله، قال العقيلي: روى عنه يحيى بن بكير منكر وبقيته رجاله رجال الصحيح».

عباداً لا يَدَانِ لأحد بقتالهم»^(١)، وهذا كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾ [الإسراء: ٥]، فهؤلاء لم يكونوا مطيعين لله، لكنهم مُعَبَّدُونَ، مُذَلَّلُونَ، مقهورون، يجري عليهم قدره .

وقد يكون كونهم عبيداً : هو اعترافهم بالصانع وخضوعهم له وإن كانوا كفاراً ،

كقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقوله: ﴿إِلَّا آتَى الرَّحْمَنُ عِبَادًا﴾ [مريم: ٩٣] أي ذليلاً خاضعاً. ومعلوم أنهم لا يأتون يوم القيامة إلا كذلك، وإنما الاستكبار عن عبادة الله كان في الدنيا، ثم قال: ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلَّمَا أَتَيْهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٤، ٩٥]، فذكر بعدها أنه يأتي منفرداً، كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ الآية [الرعد: ١٥]، وقال: ﴿بَلْ لَّمْ يَأْمُرْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لُحٍّ قَلْبًا﴾ [البقرة: ١١٦]، فليس المراد بذلك مجرد كونهم

مخلوقين مدبرين مقهورين تحت المشيئة والقدرة ، فإن هذا/لا يقال طوعاً وكرهاً ، فإن ٤٥/١ الطوع والكره إنما يكون لما يفعله الفاعل طوعاً وكرهاً ، فأما ما لا فعل له فيه فلا يقال له : ساجد أو قانت ، بل ولا مسلم ، بل الجميع مقرون بالصانع بفطرتهم ، وهم خاضعون مستسلمون ، قانتون مضطرون من وجوه :

منها : علمهم بحاجتهم وضرورتهم إليه . ومنها : دعاؤهم إياه عند الاضطرار . ومنها : خضوعهم واستسلامهم لما يجري عليهم من أقداره ومشئته . ومنها : انقيادهم لكثير مما أمر به في كل شيء ، فإن سائر البشر لا يُمَكِّنُونَ العبد من مراده ، بل يقهرونه ويلزمونه بالعدل الذي يكرهه ، وهو مما أمر الله به ، وعصيانهم له في بعض ما أمر به - وإن كان هو التوحيد - لا يمنع كونهم قانتين خاضعين ، مستسلمين كرهاً ، كالعصاة من أهل القبلة وأهل الذمة وغيرهم ، فإنهم خاضعون للدين الذي بعث به رسله ، وإن كانوا يعصونه في أمور .

والمؤمن يخضع لأمر ربه طوعاً، وكذلك لما يقدره من المصائب، فإنه يفعل عندها ما أمر به من الصبر وغيره طوعاً ، فهو مسلم لله طوعاً خاضعاً له طوعاً، والسجود مقصوده الخضوع، وسجود كل شيء بحسبه سجوداً يناسبها ويتضمن الخضوع للرب .

(١) مسلم في الفتن وأشراف الساعة (٢٩٣٧ / ١١٠) .

وقوله : « لا يَدَانِ » : أي لا قدرة ولا طاقة . يقال : ما لي بهذا الأمر يد ولا يدان ؛ لأن المباشرة والدفاع إنما يكون باليد . انظر : النهاية في غريب الحديث ٥ / ٢٩٣ .

وأما فقر المخلوقات إلى الله - بمعنى حاجتها كلها إليه، وأنه لا وجود لها ولا شيء من صفاتها، وأفعالها إلا به - فهذا أول درجات الافتقار، وهو افتقارها إلى ربوبيته لها، وخلقها وإتقانه، وبهذا الاعتبار كانت مملوكة له، وله - سبحانه - الملك والحمد.

٤٦/١ وهذا معلوم عند كل من آمن بالله ورسله الإيمان الواجب، فالحدوث/دليل افتقار الأشياء إلى محدثها، وكذلك حاجاتها إلى محدثها بعد إحداثها لها دليل افتقارها، فإن الحاجة إلى الرزق دليل افتقار المرزوق إلى الخالق الرازق.

والصواب: أن الأشياء مفتقرة إلى الخالق لذواتها لا لأمر آخر جعلها مفتقرة إليه، بل فقرها لازم لها، لا يمكن أن تكون غير مفتقرة إليه، كما أن غناء الرب وصف لازم له لا يمكن أن يكون غير غني، فهو غني بنفسه لا بوصف جعله غنياً، وفقر الأشياء إلى الخالق وصف لها، وهي معدومة وهي موجودة، فإذا كانت معدومة فقيل عن مطر ينتظر نزوله وهو مفتقر إلى الخالق كان معناه: أنه لا يوجد إلا بالخالق. هذا قول الجمهور من نظار المسلمين وغيرهم، وهذا الافتقار أمر معلوم بالعقل، وما أثبتته القرآن من استسلام المخلوقات وسجودها وتسبيحها وقنوتها، أمر زائد على هذا عند عامة المسلمين من السلف وجمهور الخلف.

ولكن طائفة تدعى أن افتقارها، وخضوعها، وخلقها، وجريان المشيئة عليها هو تسبيحها وقنوتها، وإن كان ذلك بلسان الحال، ولكونها دلالة شاهدة للخالق جل جلاله. وقل للأرض من فجر أنهارها، وغرس أشجارها، وأخرج نباتها وثمارها، فإن لم تحبك حواراً وإلا أجابتك اعتباراً، وهذا يقوله الغزالي وغيره، وهو أحد الوجوه التي ذكرها أبو بكر بن الأنباري في قوله: ﴿كُلُّ لَهْ قَتِينُونَ﴾ [البقرة: ١١٦] قال: كل مخلوق قانت له بأمر صنعته فيه وجرى أحكامه عليه، فذلك دليل على ذله لربه، وهو الذي ذكره الزجاج في قوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣] قال: إسلام الكل خضوعهم لنفاذ أمره في جبلتهم، لا يقدر أحد يمتنع من جيلة جيله الله عليها، وهذا المعنى صحيح، لكن الصواب - الذي عليه جمهور علماء السلف والخلف - : أن القنوت، والاستسلام، والتسبيح أمر زائد على ذلك، وهذا كقول بعضهم: إن سجود الكاره وذله وانقياده لما يريده الله منه من عافية ومرض وغنى وفقر، وكما قال بعضهم في قوله: ﴿وَأَنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]. قال: تسبيحه دلالة على صانعه، فتوجب بذلك تسبيحاً من غيره، والصواب: أن لها تسبيحاً وسجوداً بحسبها.

والمقصود أن فقر المخلوقات إلى الخالق، ودلالته عليه وشهادتها، له أمر فطري فطر

اللّٰه عليه عباده، كما أنه فطرهم على الإقرار به بدون هذه الآيات، كما قد بسط الكلام على هذا في مواضع، وبين الفرق بين دلالة الآيات ودلالة القياس الشمولي، والتمثيلي، فإن القياس البرهاني العقلي، سواء صيغ بلفظ الشمول، كالأشكال المنطقية، أو صيغ بلفظ التمثيل، وبين أن الجامع هو علة الحكم ويلزم ثبوت الحكم أينما وجد، وقد بسطنا الكلام على صورة القياسين في غير هذا الموضع.

والتحقيق: أن العلم بأن المحدث لا بد له من محدث هو علم فطري، ضروري في المعينات الجزئية، وأبلغ مما هو في القضية الكلية، فإن الكليات إنما تصير كليات في العقل بعد استقرار جزئياتها في الوجود، وكذلك عامة القضايا الكلية، التي يجعلها كثير من النظائر المتكلمة والمتفلسفة أصول علمهم، كقولهم: الكل أعظم من الجزء، أو النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، والأشياء المساوية لشيء واحد متساوية ونحو ذلك، فإنه أي كلي تصويره الإنسان علم أنه أعظم من جزئه، وإن لم تخطر له القضية الكلية، كما يعلم أن بدن الإنسان بعضه أكثر من بعض، وأن الدرهم أكبر من بعضه، وأن المدينة أكثر من بعضها، وأن الجبل أكبر من بعضه، وكذلك النقيضان وهما: الوجود والعدم، فإن العبد ٤٨/١ إذا تصور وجود أي شيء كان وعدمه، علم أن ذلك الشيء لا يكون موجوداً معدوماً في حالة واحدة، وأنه لا يخلو من الوجود والعدم، وهو يقضي بالجزئيات المعينة، وإن لم يستحضر القضية الكلية، وهكذا أمثال ذلك.

ولما كان القياس الكلي فائده أمر مطلق لا معين، كان إثبات الصانع بطريق الآيات هو الواجب، كما نزل به القرآن، وفطر الله عليه عباده، وإن كانت الطريقة القياسية صحيحة، لكن فائدتها ناقصة، والقرآن إذا استعمل لعل في الآيات الإلهيات استعمل قياس الأولى لا القياس الذي يدل على المشترك، فإنه ما وجب تنزيه مخلوق عنه من النقائص والعيوب التي لا كمال فيها، فالباري - تعالى - أولى بتنزيهه عن ذلك، وما ثبت للمخلوق من الكمال الذي لا نقص فيه كالحياة، والعلم، والقدرة، فالخالق أولى بذلك منه، فالمخلوقات كلها آيات للخالق، والفرق بين الآية وبين القياس: أن الآية تدل على عين المطلوب الذي هي آية وعلامة عليه، فكل مخلوق فهو دليل، وآية على الخالق نفسه، كما قد بسطناه في مواضع.

ثم الفطر تعرف الخالق بدون هذه الآيات، فإنها قد فطرت على ذلك، ولو لم تكن تعرفه بدون هذه الآيات، لم تعلم أن هذه الآية له، فإن كونها آية له ودلالة عليه، مثل كون الاسم يدل على المسمى، فلا بد أن يكون قد تصور المسمى قبل ذلك، وعرف أن هذا اسم له، فكذلك كون هذا دليلاً على هذا يقتضي تصور المدلول عليه، وتصور أن ذلك

الدليل مستلزم له، فلا بد في ذلك أن يعلم أنه مستلزم للمدلول، فلو لم يكن المدلول ٤٩/١ متصوراً لم يعلم أنه دليل عليه، /فمعرفة الإضافة متوقفة على تصور المضاف والمضاف إليه، لكن قد لا يكون الإنسان عالماً بالإضافة، ولا كونه دليلاً، فإذا تصوره عرف المدلول إذا عرف أنه مستلزم له، والناس يعلمون أن هذه المخلوقات آيات ودلائل للخالق، فلا بد أن يكونوا يعرفونه، حتى يعلموا أن هذه دلائل مستلزمة له.

والمقصود أن هذه الطرق العقلية الفطرية، هي التي جاء بها القرآن، واتفق العقل والشرع، وتلازم الرأي والسمع.

والمتفلسفة - كابن سينا والرازي ومن اتبعهما - قالوا: إن طريق إثباته الاستدلال عليه بالممكنات، وإن الممكن لا بد له من واجب، قالوا: والوجود إما واجب وإما ممكن، والممكن لا بد له من واجب، فيلزم ثبوت الواجب على التقديرين. وهذه المقالة أحدثها ابن سينا، ورَكَّبَهَا من كلام المتكلمين وكلام سلفه، فإن المتكلمين قسموا الوجود إلى قديم ومحدث، وقسمه هو إلى واجب وممكن، وذلك أن الفلك عنده ليس محدثاً، بل زعم أنه ممكن. وهذا التقسيم لم يسبقه إليه أحد من الفلاسفة، بل حَذَّاهُمْ عرفوا أنه خطأ، وأنه خالف سلفه وجمهور العقلاء وغيرهم، وقد بينا في مواضع أن القَدَمَ، ووجوب الوجود، متلازمان عند عامة العقلاء، الأولين والآخرين، ولم يعرف عن طائفة منهم نزاع في ذلك، إلا ما أحدثه هؤلاء، فإننا نشهد حدوث موجودات كثيرة، حدثت بعد أن لم تكن، ونشهد عدمها بعد أن كانت، وما كان معدوماً أو سيكون معدوماً لا يكون واجب الوجود، ولا قديماً أزلياً.

ثم إن هؤلاء إذا قدر أنهم أثبتوا واجب الوجود، فليس في دليلهم أنه مغاير للسموات ٥٠/١ والأفلاك، وهذا مما بَيَّنَّ تهاافتهم فيه الغزالي وغيره، لكن/عمدتهم أن الجسم لا يكون واجباً؛ لأنه مركب، والواجب لا يكون مركباً، هذا عمدتهم.

وقد بينا بطلان هذا من وجوه كثيرة، وما زال النظار يبينون فساد هذا القول كل بحسبه، كما بين الغزالي فساده بحسبه.

وذلك أن لفظ الواجب صار فيه اشتراك بين عدة معان: فيقال للموجود بنفسه الذي لا يقبل العدم، فتكون الذات واجبة والصفات واجبة، ويقال للموجود بنفسه والقائم بنفسه، فتكون الذات واجبة دون الصفات، ويقال لمبدع الممكنات، وهي المخلوقات، والمبدع لها هو الخالق، فيكون الواجب هو الذات المتصفة بتلك الصفات، والذات مجردة عن الصفات لم تخلق، والصفات مجردة عن الذات لم تخلق، ولهذا صار من سار

خلفهم ممن يدعي التحقيق والعرفان، إلى أن جعل الواجب هو الوجود المطلق، كما قد بسط القول عليه في مواضع.

والمقصود هنا الكلام أولاً في أن سعادة العبد في كمال افتقاره إلى ربه واحتياجه إليه؛ أي في أن يشهد ذلك ويعرفه، ويتصف معه بموجب ذلك من الذل والخضوع والخشوع، وإلا فالخلق كلهم محتاجون، لكن يظن أحدهم نوع استغناء فيطغى، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وقال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]، وفي الآية الأخرى: ﴿كَانَ يُوسُفَ﴾ [الإسراء: ٨٣].

٥١/١

فصل

والسعادة في معاملة الخلق: أن تعاملهم لله، فترجو الله فيهم ولا ترجوهم في الله، وتخافه فيهم ولا تخافهم في الله، وتحسن إليهم رجاء ثواب الله لا لمكافأتهم، وتكف عن ظلمهم خوفاً من الله لا منهم، كما جاء في الأثر: «ارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله، وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله» أي: لا تفعل شيئاً من أنواع العبادات والقرب لأجلهم، لا رجاء مدحهم ولا خوفاً من ذمهم، بل ارج الله ولا تخفهم في الله فيما تأتي وما تذر، بل افعل ما أمرت به وإن كرهوه. وفي الحديث: «إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، أو تذمهم على ما لم يؤتك الله»^(١) فإن اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً، لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك، إما ميل إلى ما في أيديهم من الدنيا، فيترك القيام فيهم بأمر الله؛ لما يرجوه منهم. وإما ضعف تصديق بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة، فإنك إذا أرضيت الله نصرك، ورزقك وكفاك مؤنتهم، فأرضائهم بسخطه إنما يكون خوفاً منهم ورجاء لهم؛ وذلك من ضعف اليقين.

وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك، فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم، فإنه ٥٢/١ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما لم يقدر، كان ذلك من ضعف يقينك، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك، لكن من حمده الله

(١) البيهقي في الشعب (٢٠٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١٠٦/٥، ٤١/١٠، والحديث فيه محمد بن مروان ضعيف. والسيوطي في الجامع الصغير (٢٤٩٣) ورمز إليه بالضعف.

ورسوله فهو المحمود ، ومن ذمه الله ورسوله فهو المذموم .

ولما قال بعض وفد بني تميم : يا محمد، أعطني، فإن حمدي زين وإن ذمي شين .
قال رسول الله ﷺ : « ذاك الله عز وجل » (١) .

وكتبت عائشة إلى معاوية، وروى أنها رفعتة إلى النبي ﷺ : «من أرضى الله بسخط الناس كفاه مؤنة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً» (٢) هذا لفظ المرفوع، ولفظ الموقوف: «من أرضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً» (٣) هذا لفظ المأثور عنها، وهذا من أعظم الفقه في الدين، والمرفوع أحق وأصدق، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه، وكان عبده الصالح، والله يتولى الصالحين، وهو كاف عبده ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] . فالله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب، وأما كون الناس كلهم يرضون عنه، فقد لا يحصل ذلك ، لكن يرضون عنه، إذا سلموا من الأغراض وإذا تبين لهم العاقبة، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً، كالظالم الذي يعرض على يده يقول: ﴿يَلْبِثُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سِيبًا﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨]، وأما كون حامده ينقلب ذاماً، فهذا يقع كثيراً، ويحصل في العاقبة، فإن العاقبة للتقوى ، لا يحصل ابتداء عند أهوائهم، وهو سبحانه أعلم .

٥٣/١ فالتوحيد ضد الشرك، فإذا قام العبد بالتوحيد الذي هو حق الله، فعبده/لا يشرك به شيئاً كان موحداً. ومن توحيد الله وعبادته: التوكل عليه والرجاء له، والخوف منه، فهذا يخلص به العبد من الشرك. وإعطاء الناس حقوقهم، وترك العدوان عليهم، يخلص به العبد من ظلمهم ، ومن الشرك بهم. وبطاعة ربه واجتناب معصيته، يخلص العبد من ظلم نفسه ، وقد قال -تعالى- في الحديث القدسي : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» (٤) . فالنصفان يعود نفعهما إلى العبد، وكما في الحديث الذي رواه الطبراني في

(١) الترمذي في التفسير (٣٢٦٧) وقال: « هذا حديث حسن غريب » ، والنسائي في الكبرى في التفسير (٢/١١٥١٥)، وأحمد ٤٨٨/٣ .

(٢) الترمذي في الزهد (٢٤١٤) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١٨٨/٨ . وقال: «غريب من حديث هشام بهذا اللفظ»، والسيوطي في الجامع الصغير (٨٣٩٤) ورمز إليه بالحسن .

(٣) الترمذي في الزهد (٢٤١٤) .

(٤) مسلم في الصلاة (٣٨٩٥/٣٨، ٤٠)، والترمذي في التفسير (٢٩٥٣) وقال: «هذا حديث حسن»، والنسائي في الافتتاح (٩٠٩)، ومالك في الصلاة ٨٤/١ (٣٩)، وأحمد ٢/٢٨٥، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الدعاء : « يا عبادي ، إنما هي أربع ، واحدة لي ، واحدة لك ، وواحدة بيني وبينك ، وواحدة بينك وبين خلقي ، فالتى لي : تعبدني لا تشرك بي شيئاً . والتى لك : عملك أجزيك به أحوج ما تكون إليه . والتى بيني وبينك : فممنك الدعاء وعلى الإجابة . والتى بينك وبين خلقي : فأت إليهم ما تحب أن يأتوه إليك»^(١) . والله يحب المنصفين ، ويجب أن يعبدوه .

وما يعطيه الله العبد من الإعانة والهداية هو من فضله وإحسانه ، وهو وسيلة إلى ذلك المحبوب ، وهو إنما يحبه لكونه طريقاً إلى عبادته ، والعبد يطلب ما يحتاج أولاً ، وهو محتاج إلى الإعانة على العبادة وإلى الهداية إلى الصراط المستقيم ، وبذلك يصل إلى العبادة . فهو يطلب ما يحتاج إليه أولاً ليتوسل به إلى محبوب الرب ، الذي فيه سعادته . وكذلك قوله : « عملك أجزيك به أحوج ما تكون إليه » ، فإنه يحب الثواب الذي هو جزاء العمل ، فالعبد إنما يعمل لنفسه ، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، ثم إذا طلب العبادة فإنما يطلبها من حيث هي نافعة له ، محصلة لسعادته ، محصنة له من عذاب ربه فلا يطلب العبد قط إلا ما فيه حظ له ، وإن كان الرب يحب ذلك فهو يطلبه من حيث هو ملائم له ، فمن عبد الله لا يشرك به شيئاً أحبه وأثابه ، فيحصل للعبد ما يحبه من النعم ٥٤/١ تبعاً لمحبوب الرب ، وهذا كالبائع والمشتري ، البائع يريد من المشتري أولاً الثمن ، ومن لوازم ذلك : إرادة تسليم المبيع ، والمشتري يريد السلعة ، ومن لوازم ذلك : إرادة إعطاء الثمن .

فالرب يحب أن يحب ، ومن لوازم ذلك : أن يحب من لا تحصل العبادة إلا به . والعبد يحب ما يحتاج إليه ويتنفع به ، ومن لوازم ذلك : محبته لعبادة الله ، فمن عبد الله وأحسن إلى الناس ، فهذا قائم بحقوق الله وحق عباد الله ، في إخلاص الدين له . ومن طلب من العباد العوض ، ثناء أو دعاء أو غير ذلك ، لم يكن محسناً إليهم لله . ومن خاف الله فيهم ولم يخفهم في الله كان محسناً إلى الخلق وإلى نفسه ، فإن خوف الله يحمله على أن يعطيهم حقهم ويكف عن ظلمهم ، ومن خافهم ولم يخف الله فهذا ظالم لنفسه ولهم ، حيث خاف غير الله ورجاه ؛ لأنه إذا خافهم دون الله احتاج أن يدفع شرهم عنه

(١) الطبراني في الدعاء ص ٧٩٢ (١٦) وأبو يعلى (٢٧٥٧) ، والبخاري في كشف الأستار في الإيمان (١٩) ، وذكره الهيثمي في المجمع ٥٦/١ وقال : « هذا لفظ أبي يعلى ورواه البخاري وفي إسناده صالح المروى وهو ضعيف ، وتدليس الحسن أيضاً » ، وأورده الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٣٢٨٦) وعزاه إلى أبي يعلى .

بكل وجه، إما بمداهنتهم ومرأاتهم، وإما بمقابلتهم بشيء أعظم من شرهم أو مثله، وإذا رجاهم لم يقم فيهم بحق الله، وهو إذا لم يخف الله فهو مختار للعدوان عليهم، فإن طبع النفس الظلم لمن لا يظلمها فكيف بمن يظلمها؟ فتجد هذا الضرب كثير الخوف من الخلق، كثير الظلم إذا قدر، مهين ذليل إذا قهر، فهو يخاف الناس بحسب ما عنده من ذلك، وهذا مما يوقع الفتن بين الناس.

وكذلك إذا رجاهم فهم لا يعطونه ما يرجوه منهم، فلا بد أن يبغضهم فيظلمهم إذا لم يكن خائفاً من الله عز وجل، وهذا موجود كثيراً في الناس، تجدهم يخاف بعضهم بعضاً ويرجو بعضهم بعضاً، وكل من هؤلاء يتظلم من الآخر، ويطلب ظلمه، فهم ظالمون بعضهم لبعض، ظالمون في حق الله حيث خافوا غيره ورجوا غيره، ظالمون لأنفسهم، فإن هذا من الذنوب التي تعذب النفس بها وعليها، وهو يجر إلى فعل المعاصي المختصة، كالشرك والزنا، فإن الإنسان إذا لم يخف الله اتبع هواه، ولا سيما إذا كان طالباً ما لم يحصل له؛ فإن نفسه تبقى طالبة لما تستريح به وتدفع به الغم والحزن عنها، وليس عندها من ذكر الله وعبادته ما تستريح إليه وبه، فيستريح إلى المحرمات من فعل الفواحش وشرب المحرمات وقول الزور، وذكر مجريات النفس والهزل واللعب، ومخالطة قرناء السوء وغير ذلك، ولا يستغني القلب إلا بعبادة الله - تعالى .

فإن الإنسان خلق محتاجاً إلى جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ونفسه مريدة دائماً، ولا بد لها من مراد يكون غاية مطلوبها لتسكن إليه وتطمئن به، وليس ذلك إلا لله وحده، فلا تطمئن القلوب إلا به، ولا تسكن النفوس إلا إليه، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فكل مألوه سواه يحصل به الفساد، ولا يحصل صلاح القلوب إلا بعبادة الله وحده لا شريك له .

فإذا لم تكن القلوب مخلصة لله الدين، عبدت غيره من الآلهة التي يعبدها أكثر الناس مما رضوه لأنفسهم، فأشركت بالله بعبادة غيره، واستعانت به، فتعبد غيره وتستعين به، لجهلها بسعادتها التي تنالها بعبادة خالقها والاستعانة به، فبالعبادة له تستغني عن معبود آخر، وبالاستعانة به تستغني عن الاستعانة بالخلق، وإذا لم يكن العبد كذلك، كان مذنباً محتاجاً، وإنما غناه في طاعة ربه، وهذا حال الإنسان؛ فإنه فقير محتاج، وهو مع ذلك مذنب خطاء، فلا بد له من ربه، فإنه الذي يسدي مغافره، ولا بد له من الاستغفار من ذنوبه، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فبالتوحيد يقوى العبد ويستغني، ومن سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، وبالاستغفار يغفر له ويدفع عنه عذابه، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فلا يزول فقر

العبد وفاقته|إلا بالتوحيد؛ فإنه لابد له منه، وإذا لم يحصل له لم يزل فقيراً محتاجاً معذباً ٥٦/١
في طلب ما لم يحصل له، واللّه تعالى لا يغفر أن يشرك به، وإذا حصل مع التوحيد
الاستغفار، حصل له غناه وسعاده، وزال عنه ما يعذبه، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

والعبد مفتقر دائماً إلى التوكل على اللّه والاستعانة به، كما هو مفتقر إلى عبادته،
فلا بد أن يشهد دائماً فقره إلى اللّه، وحاجته في أن يكون معبوداً له، وأن يكون معيناً له،
فلا حول ولا قوة إلا باللّه، ولا ملجأ من اللّه إلا إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ
أَوْلِيَآءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي يخوفكم بأوليائه. هذا هو الصواب الذي عليه
الجمهور، كابن عباس وغيره وأهل اللغة كالفرّاء وغيره. قال ابن الأنباري: والذي نختاره
في الآية: يخوفكم أوليائه. تقول العرب: أعطيت الأموال: أي أعطيت القوم
الأموال، فيحذفون المفعول الأول.

قلت: وهذا لأن الشيطان يخوف الناس أوليائه تخويفاً مطلقاً، ليس له في تخويف
ناس بناس ضرورة، فحذف الأول لأنه ليس مقصوداً.

وقال بعض المفسرين: يخوف أوليائه المنافقين، والأول أظهر؛ لأنها نزلت بسبب
تخويفهم من الكفار، فهي إنما نزلت فيمن خوف المؤمنين من الناس، وقد قال: ﴿يُخَوِّفُ
أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٥] الضمير عائد إلى أولياء الشيطان، الذين قال فيهم:
﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] قبلها، والذي قال: الثاني فسرهما من جهة المعنى،
وهو أن الشيطان إنما يخوف أوليائه؛ لأن سلطانه عليهم، فهو يدخل عليهم المخاوف
دائماً، وإن كانوا ذوي عَدَدٍ وَعُدَدٍ، وأما المؤمنون فهم متوكلون على اللّه لا يخوفهم
الكفار، أو أنهم أرادوا المفعول الأول، أي يخوف|المنافقين أوليائه، وهو يخوف الكفار، ٥٧/١
كما يخوف المنافقين، ولو أريد أنه يجعل أوليائه خائفين لم يكن للضمير ما يعود عليه،
وهو قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾.

وأيضاً، فإنه يعد أوليائه وَيُمْنِيهِمْ، ولكن الكفار يلقي اللّه في قلوبهم الرعب من
المؤمنين، والشيطان لا يختار ذلك، قال تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر:
١٣]، وقال: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، ولكن الذين
قالوا ذلك من السلف أرادوا أن الشيطان يخوف الذين أظهروا الإسلام وهم يوالون العدو
فصاروا بذلك منافقين، وإنما يخاف من الكفار المنافقون بتخويف الشيطان لهم، كما قال
تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦]، وقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ لُتُوفُ﴾ الآية [الأحزاب: ١٩].
فكلا القولين صحيح من حيث المعنى، لكن لفظ أوليائه هم الذين

يجعلهم الشيطان مخوفين لا خائفين ، كما دل عليه السياق ، وإذا جعلهم مخوفين فإنما يخافهم من خوفه الشيطان منهم .

فدلت الآية على أن الشيطان يجعل أوليائه مخوفين ، ويجعل ناساً خائفين منهم .

ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان ، ولا يخاف الناس ، كما قال : ﴿ فَلَا تَخْشَوْا نَاسًا وَالَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ عَظِيمًا ﴾ [المائدة : ٤٤] ، فخوف الله أمر به ، وخوف أولياء الشيطان نهى عنه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاحْشَوْنِي ﴾ [البقرة : ١٥٠] ، فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته ، وقال : ﴿ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ فِي مَعْلَمٍ مَحْدُودٍ ﴾ [النحل : ٥١] .

٥٨/١ وبعض الناس يقول : يا رب ، إني أخافك وأخاف من لا يخافك ، فهذا كلام ساقط لا يجوز ، بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحداً ، فإن من لا يخاف الله أذل من أن يخاف ، فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان ، فالخوف منه قد نهى الله عنه ، وإذا قيل : قد يؤذيني ، قيل : إنما يؤذك بتسليط الله له ، وإذا أراد الله دفع شره عنك دفعه ، فالأمر لله ، وإنما يسلط على العبد بذنوبه ، وأنت إذا خفت الله فاتقته وتوكلت عليه كفك شر كل شر ، ولم يسلطه عليك ، فإنه قال : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] ، وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه ، فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرته لم يسلط عليك ، كما قال : ﴿ وَمَا كَانَتْ أَلْفُ اللَّهِ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

وفي الآثار : « يقول الله : أنا الله لا إله إلا أنا ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيها بيدي ، فمن أطاعني جعلت قلوب الملوك عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ، ولكن توبوا إلي وأطيعوا أعطفهم عليكم »^(١) .

ولما سلط الله العدو على الصحابة يوم أحد قال : ﴿ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ ؟ ! الآية [آل عمران : ١٦٥] ، وقال : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلْنَا مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] والأكثرون يقرؤون : قاتل - والريون الكثير عند جماهير السلف والخلف : هم الجماعات الكثيرة ، قال ابن مسعود وابن عباس - في رواية عنه - والفراء : ألوف كثيرة . وقال ابن عباس في أخرى ومجاهد وقتادة : جماعات كثيرة ، وقرئ بالحركات الثلاث في الراء ،

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٢٥٢/٥ عن أبي الدرداء ، وقال : « رواه الطبراني في الأوسط وفيه إبراهيم بن راشد وهو متروك » ، والديلمي في الفردوس (٨٠٣٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ مختلف .

فعلى هذه القراءة فالرييون الذين قاتلوا معه : الذين ما وهنوا وما ضعفوا . وأما على قراءة أبي عمرو وغيره ففيها وجهان :

أحدهما : يوافق الأول، أي الرييون يقتلون فما وهنوا ، أي ما وهن من بقي/منهم، ٥٩/١ لقتل كثير منهم، أي ما ضعفوا لذلك ولا دخلهم خور ولا ذلوا لعدوهم، بل قاموا بأمر الله في القتال حتى أذلهم الله عليهم وصارت كلمة الله هي العليا.

والثاني : أن النبي ﷺ قتل معه ربيون كثير فما وهن من بقي منهم لقتل النبي ﷺ. وهذا يناسب صرخ الشيطان أن محمداً قد قتل، لكن هذا لا يناسب لفظ الآية، فالمناسب أنهم مع كثرة المصيبة ما وهنوا، ولو أريد أن النبي قتل ومعه ناس لم يخافوا لم يحتج إلى تكثيرهم بل تقليلهم هو المناسب لها، فإذا كثروا لم يكن في مدحهم بذلك عبرة.

وأيضاً، لم يكن فيه حجة على الصحابة، فإنهم يوم أحد قليلون والعدو أضعافهم ، فيقولون ولم يهنوا ؛ لأنهم ألوف ونحن قليلون.

وأيضاً، فقلوه : ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ﴾ [آل عمران : ١٤٦] يقتضي كثرة ذلك، وهذا لا يعرف أن أنبياء كثيرون قتلوا في الجهاد.

وأيضاً: فيقتضي أن المقتولين مع كل واحد منهم ربيون كثير ، وهذا لم يوجد ، فإن من قبل موسى من الأنبياء لم يكونوا يقاتلون، وموسى وأنبياء بني إسرائيل لم يقتلوا في الغزو، بل ولا يعرف نبي قتل في جهاد، فكيف يكون هذا كثيراً ويكون جيشه كثيراً؟!

والله - سبحانه - أنكر على من ينقلب ، سواء كان النبي مقتولاً أو ميتاً ، فلم يذمهم إذ مات أو قتل على الخوف بل على الانقلاب على الأعقاب ، ولهذا تلاها الصديق - رضي الله عنه - بعد موته ﷺ فكان لم يسمعوها قبل ذلك .

ثم ذكر بعدها معنى آخر: وهو أن من كان قبلكم كانوا يقاتلون فيقتل منهم/خلق كثير ٦٠/١ وهم لا يهنون، فيكون ذكر الكثرة مناسباً؛ لأن من قتل مع الأنبياء كثير، وقتل الكثير من الجنس يقتضي الوهن، فما وهنوا وإن كانوا كثيرين، ولو وهنوا دل على ضعف إيمانهم ، ولم يقل هنا: ولم ينقلبوا على أعقابهم، فلو كان المراد أن نبيهم قتل لقال: فانقلبوا على أعقابهم؛ لأنه هو الذي أنكره إذا مات النبي أو قتل، فأنكر سبحانه شئين: الارتداد إذا مات أو قتل، والوهن والضعف والاستكانة لما أصابهم في سبيل الله من استيلاء العدو؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾ [آل عمران : ١٤٦]... إلخ. ولم يقل: فما وهنوا لقتل النبي، ولو قتل وهم أحياء لذكر ما يناسب ذلك، ولم يقل: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ومعلوم أن ما يصيب في سبيل الله في عامة الغزوات لا يكون قتل نبي.

وأيضاً: فكون النبي قاتل معه أو قتل معه ربيون كثير، لا يستلزم أن يكون النبي معهم في الغزاة، بل كل من اتبع النبي وقاتل على دينه فقد قاتل معه، وكذلك كل من قتل على دينه فقد قتل معه، وهذا الذي فهم الصحابة، فإن أعظم قتالهم كان بعد وفاته ﷺ، حتى فتحوا البلاد شاماً، ومصرأ، وعراقاً، ويمنأ، وعجمأ، وروماً، ومغربأ، ومشرقأ، وحينئذ فظهر كثرة من قتل معه، فإن الذين قاتلوا وأصيبوا وهم على دين الأنبياء كثيرون، ويكون في هذه الآية عبرة لكل المؤمنين إلى يوم القيامة، فإنهم كلهم يقاتلون مع النبي ﷺ على دينه، وإن كان قد مات، والصحابة الذين يغزون في السرايا، والنبي ليس معهم، كانوا معه يقاتلون، وهم داخلون في قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ الآية [الفتح: ٦١/٢٩]، وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٧٥]. ليس من شرط من يكون مع المطاع أن يكون مشاهداً للمطاع ناظراً إليه.

وقد قيل في: ﴿رَبِّيُونَ﴾ هنا: إنهم العلماء، فلما جعل هؤلاء هذا كلفظ الرباني، وعن ابن زيد هم الاتباع كانه جعلهم الربويين. والاول اصح من وجوه:

أحدها: أن الربانيين عين الأخبار، وهم الذين يربون الناس، وهم أئمتهم في دينهم، ولا يكون هؤلاء إلا قليلاً.

الثاني: أن الأمر بالجهاد والصبر لا يختص بهم، وأصحاب الأنبياء لم يكونوا كلهم ربانيين، وإن كانوا قد أعطوا علماً ومعهم الخوف من الله عز وجل.

الثالث: أن استعمال لفظ الرباني في هذا ليس معروفاً في اللغة.

الرابع: أن استعمال لفظ الربى في هذا ليس معروفاً في اللغة، بل المعروف فيها هو الأول، والذين قالوه قالوا: هو نسبة للرب بلا نون والقراءة المشهورة (ربي) بالكسر، وما قالوه إنما يتوجه على من قرأه بنصب الراء، وقد قرئ بالضم، فعلم أنها لغات.

الخامس: أن الله تعالى يأمر بالصبر والثبات كل من يأمره بالجهاد، سواء كان من الربانيين أو لم يكن.

السادس: أنه لا مناسبة في تخصيص هؤلاء بالذكر، وإنما المناسب ذكرهم في مثل قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَجْبَارُ﴾ الآية [المائدة: ٦٣]. وفي قوله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيِّنَ﴾ [آل عمران: ٧٩] فهناك ذكرهم به مناسباً.

السابع: قيل: إن الرباني منسوب إلى الرب، فزيادة الألف والنون كاللحياني، وقيل: إلى تربيته الناس، وقيل: إلى ربان السفينة، وهذا أصح، فإن الأصل عدم الزيادة في النسبة؛ لأنهم منسوبون إلى التربية، وهذه تختص بهم، وأما نسبتهم إلى الرب فلا

اختصاص لهم بذلك، بل كل عبد له فهو منسوب إليه، إما نسبة عموم أو خصوص ولم
يسم الله أوليائه المتقين ربانيين، ولا سمى به رسله وأنبياءه، فإن الرباني من يرب الناس،
كما يرب الرباني السفينة، ولهذا كان الربانيون يذمون تارة، ويمدحون أخرى، ولو كانوا
منسوين إلى الرب لم يذموا قط. وهذا هو الوجه الثامن :

أنها إن جعلت مدحاً فقد ذموا في مواضع، وإن لم تكن مدحاً لم يكن لهم خاصة
يمتازون بها من جهة المدح، وإذا كان منسوباً إلى رباني السفينة بطل قول من يجعل الرباني
منسوباً إلى الرب، فنسبة الربيون إلى الرب أولى بالبطلان.

التاسع : أنه إذا قدر أنهم منسوبون إلى الرب، فلا تدل النسبة على أنهم علماء. نعم
تدل على إيمان وعبادة وتآله، وهذا يعم جميع المؤمنين، فكل من عبد الله وحده لا يشرك
به شيئاً فهو متآله عارف بالله، والصحابة كلهم كذلك، ولم يسموا ربانيين ولا ربين،
وإنما جاء أن ابن الحنفية قال لما مات ابن عباس : اليوم مات رباني هذه الأمة، وذلك
لكونه يؤدبهم بما آتاه الله من العلم، والخلفاء أفضل منهم، ولم يسموا ربانيين، وإن
كانوا هم الربانيين. وقال إبراهيم : كان علقمة من الربانيين؛ ولهذا قال مجاهد : هم
الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره، فهم أهل الأمر والنهي. والأخبار يدخل فيه
من أخبر بالعلم ورواه عن غيره وحدث به وإن لم يأمر، أو ينه، وذلك هو المنقول عن
السلف في الرباني، نقل عن عليّ قال : «هم الذين يغذون الناس بالحكمة» ويربونهم ٦٣/١
عليها، وعن ابن عباس قال : «هم الفقهاء المعلمون»^(١).

قلت : أهل الأمر والنهي هم الفقهاء المعلمون. وقال قتادة وعطاء : هم الفقهاء
العلماء الحكماء. قال ابن قتيبة : واحد هم رباني، وهم العلماء المعلمون. قال أبو عبيد :
أحسب الكلمة عبرانية أو سريانية، وذلك أن أبا عبيد زعم أن العرب لا تعرف الربانيين.

قلت : اللفظة عربية منسوبة إلى ربان السفينة الذي ينزلها ويقوم لمصلحتها، ولكن
العرب في جاهليتهم لم يكن لهم ربانيون ؛ لأنهم لم يكونوا على شريعة منزلة من الله عز

وجل /

٦٤/١

(١) انظر : ابن جرير في التفسير ٧٨/٤، ٧٩.

وقال شيخ الإسلام - رحمه الله - :

فصل

قال الله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»^(١).

وكتاب الله يدل على ذلك في مواضع، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقوله: ﴿قَبَاءُ»^(٢) يَغْضِبُ عَلَى عَصِيٍّ﴾ [البقرة:

٩٠]، وقوله: ﴿وَبَاءُ يَغْضِبُ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وقال في النصارى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا مِنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا ابْنُ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قُلْ لَّهُمْ اللَّهُ أَفَبِإِذَا يَوْمُكُونَ. اتَّخَذُوا أَحِبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠، ٣١]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوتِيَهُ اللَّهُ أَلِكِتَابَ وَالْحَكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَيْنِ يَمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَيَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ. وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

(١) الترمذي في تفسير القرآن (٢٩٥٤)، وأحمد ٣٧٨/٤، وذكره الهيثمي في المجمع ٣١٤/٦ وقال: «رواه

أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٢) في المطبوعة: «وباءوا»، والصواب ما أثبتناه.

ولما أمرنا الله - سبحانه - أن نسأله في كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، المغايرين للمغضوب عليهم وللضالين، كان ذلك مما يبين أن العبد يخاف عليه أن ينحرف إلى هذين الطريقين، وقد وقع ذلك كما أخبر به النبي ﷺ حيث قال: «لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة»^(١)، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»^(٢) وهو حديث صحيح.

وكان السلف يرون أن من انحرف من العلماء عن الصراط المستقيم ففيه شبه من اليهود، ومن انحرف من العباد ففيه شبه من النصارى، كما يرى في أحوال منحرفة أهل العلم من تحريف الكلم عن مواضعه، وقسوة القلوب، واليخل بالعلم، والكبر وأمر الناس بالبر ونسيان أنفسهم، وغير ذلك. وكما يرى في منحرفة أهل العبادة والأحوال من الغلو في الأنبياء والصالحين، والابتداع في العبادات، من الرهبانية والصور والأصوات.

ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى/ عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبدٌ ٦٦/١ فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٣) ولهذا حقق الله له نعت العبودية في أرفع مقاماته حيث قال: «سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا» [الإسراء: ١]، وقال تعالى: «فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ» [النجم: ١٠]، وقال تعالى: «وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا» [الجن: ١٩]. ولهذا يشرع في التشهد وفي سائر الخطب المشروعة، كخطب الجمع والأعياد، وخطب الحاجات عند النكاح وغيره، أن نقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وكان رسول الله ﷺ يحقق عبوديته؛ لثلاث تقع الأمة فيما وقعت فيه النصارى في المسيح، من دعوى الألوهية، حتى قال له رجل: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده»^(٤)، وقال أيضاً لأصحابه: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، بل قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد»^(٥)، وقال: «لا تتخذوا قبوري

(١) حذو القذة بالقذة: أي كما تُقَدَّرُ كُلُّ واحدة منهما على قدر صاحبها وتُقَطَّع. يضرب مثلاً للشيثين يستويان ولا يتفاوتان. انظر: النهاية في غريب الحديث ٢٨/٤.

(٢) البخاري في الأنبياء (٣٤٥٦)، وأحمد ١٢٥/٤ بلفظ مغاير.

(٣) البخاري في الأنبياء (٣٤٤٥)، والدارمي في الرقائق ٣٢٠/٢، وأحمد ٢٣/١، ٢٤ كلهم عن عمر رضي الله عنه.

(٤) أحمد ٢١٤/١، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧ بلفظ «عدلاً» بدلاً من «ندا».

(٥) ابن ماجة في الكفارات (٢١١٨)، والدارمي في الاستئذان ٢٩٥/٢، وأحمد ٣٩٣/٥.

عيداً وصلوا عليّ حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني»^(١) ، وقال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد ، اشتد غضبُ الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »^(٢) ، وقال : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك »^(٣).

والغلو في الأمة وقع في طائفتين : طائفة من ضلال الشيعة الذين يعتقدون في الأنبياء والأئمة من أهل البيت الألوهية ، وطائفة من جهال المتصوفة يعتقدون نحو ذلك في الأنبياء والصالحين ، فمن توهم في نبينا أو غيره من الأنبياء شيئاً من الألوهية والربوبية ، فهو من جنس النصارى ، وإنما حقوق الأنبياء ما جاء به الكتاب والسنة عنهم ، قال تعالى في خطابه لبني إسرائيل : ﴿ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [المائدة : ١٢] ، والتعزير : النصر والتوقير والتأييد . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح : ٨ ، ٩] ، فهذا في حق الرسول ، ثم قال في حق الله تعالى : ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح : ٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٣١ ، ٣٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِمَّنْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ [التوبة : ٢٤] .

وذكر طاعة الرسول في أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن . وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا

(١) أبو داود في المناسك (الحج) (٢٠٤٢) ، وأحمد ٣٦٧/٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) مالك في قصر الصلاة في السفر ١٧٢/١ (٨٥) ، وأحمد ٢٤٦/٢ .

(٣) مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٣/٥٣٢) .

يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» [النساء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» [النور: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ الَّذِي تَتَّقُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ» [النور: ٥١، ٥٢]، فجعل الطاعة لله والرسول، وجعل الخشية والتقوى لله وحده كما قال: ﴿فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ» [النحل: ٥١]، وقال: ﴿وَإِنِّي^(١) فَأَتَّقُونَ» [البقرة: ٤١]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُون» [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» [الفتح: ١٠]، وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا» [النور: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَرْوَجُهُمْ^(٢) مِنْهُمْ» [الأحزاب: ٦].

وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»^(٢). وقال له عمر: واللّه يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل أحد إلا من نفسي، فقال: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال: فأنت أحب إلى من نفسي قال: «الآن يا عمر»^(٣).

فقد بين الله في كتابه حقوق الرسول من الطاعة له، ومحبه، وتعزيره، وتوقيره، ونصره، وتحكيمه، والرضا بحكمه، والتسليم له، واتباعه والصلاة والتسليم عليه، وتقديمه على النفس والأهل والمال، ورد ما يتنازع فيه إليه وغير ذلك من الحقوق.

وأخبر أن طاعته طاعته فقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ» [النساء: ٨٠]، ومبايعته مبايعته فقال: ﴿إِنَّ الَّذِيكُ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ» [الفتح: ١٠]، وقرن بين اسمه واسمه في المحبة فقال: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» [التوبة: ٢٤]، وفي الأذى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [الأحزاب: ٥٧]، وفي الطاعة والمعصية فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [النساء: ١٣]، ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [النساء: ١٤]، وفي الرضا فقال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ» [التوبة: ٦٢]. فهذا ونحوه هو

(١) في المطبوعة: «فإياي»، والصحيح ما أثبتناه.

(٢) البخاري في الإيمان (١٥)، ومسلم في الإيمان (٧٠/٤٤)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠١٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٧)، وأحمد ١٧٧/٣، ٢٧٥، كلهم عن أنس رضي الله عنه.

(٣) البخاري في الإيمان والندور (٦٦٣٢).

فأما العبادة والاستعانة فلله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وقد جمع بينهما في مواضع، كقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ لَا يَمُوتُ وَسَيَحْيِي حَيِّدَةً﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وكذلك التوكل كما قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ^(١) مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، وقال: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

والدعاء لله وحده، سواء كان دعاء العبادة، أو دعاء المسألة والاستعانة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨ - ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، وقال: ﴿فَلَا نَنْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، وقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وذم الذين يدعون الملائكة والأنبياء وغيرهم، فقال: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، روي عن ابن مسعود: أن قوماً كانوا يدعون الملائكة، والمسيح، وعزيراً، فقال الله: هؤلاء الذين تدعونهم يخافون الله، ويرجون، ويتقربون إليه كما تخافونه أنتم، وترجون، وتتقربون إليه. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال: ﴿أَمِنْ حُجُبِ الْمَظْطَرِّ إِذَا دَعَا وَبِكَشِفِ السُّوءِ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَظِيمٍ؟﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ

(١) في المطبوعة: «أرايتهم»، والصحيح ما أثبتناه.

إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزُولُ ﴿﴾ [الفرقان : ٦٨] .

وتوحيد الله ، وإخلاص الدين له في عبادته واستعانته ، في القرآن كثير جداً ، بل هو قلب الإيمان ، وأول الإسلام وآخره ، كما قال النبي ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ »^(١) ، وقال : « إِنِّي لِأَعْلَمَ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا عِنْدَ الْمَوْتِ أَحَدٌ إِلَّا وَجَدَ رُوحَهُ لَهَا رُوحًا »^(٢) ، وقال : « مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ »^(٣) ، وهو قلب الدين والإيمان ، وسائر الأعمال كالجوارح له . وقول النبي ﷺ : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَهَاجَرَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا ، فَهَاجَرَ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ »^(٤) ، فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل . وإخلاص الدين لله ، وعبادة الله وحده ، ومتابعة الرسول فيما جاء به ، هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

ولهذا أنكرنا على الشيخ يحيى الصرصري ما يقوله في قصائده في مدح الرسول من الاستغاثة به ، مثل قوله : بك أستغيث وأستعين وأستنجد ، ونحو ذلك . / ٧١/١

وكذلك ما يفعله كثير من الناس ، من استنجاد الصالحين والمتشبهين بهم ، والاستغاثة بهم أحياء وأمواتا ، فإني أنكرت ذلك في مجالس عامة وخاصة ، وبينت للناس التوحيد ، ونفع الله بذلك ما شاء الله من الخاصة والعامة .

وهو دين الإسلام العام ، الذي بعث الله به جميع الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] وقال : ﴿ وَسَلِّمْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٥] ، وقال : ﴿ بِتَأْيِهَا أَرْسَلْنَا كُؤُومًا مِنَ الطَّاغُوتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ

(١) البخاري في الإيمان (٢٥) ، ومسلم في الإيمان (٣٦/٢٢) ، كلاهما عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) ابن ماجه في الأدب (٣٧٩٥) ، وأبو يعلى (٦٤١) ، كلاهما عن طلحة رضي الله عنه واللفظ لأبي يعلى ، وذكره الهيثمي في المجمع ٣٢٧/٢ وقال : « رجاله رجال الصحيح » .

(٣) أحمد ٢٣٣/٥ ، ٢٤٧ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٤) البخاري في بدء الوحي (١) ، ومسلم في الإمامة (١٥٥/١٩٠٧) ، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١) ،

والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، والنسائي في الطهارة (٧٥) ،

وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧) ، وأحمد ٢٥/١ ، كلهم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فَأَقْوَينَ ﴿المؤمنون: ٥١، ٥٢﴾، وقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ ألا يعذبهم»^(١)، وقال لابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»^(٢).

ويدخل في العبادة الخشية، والإنابة، والإسلام، والتوبة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْسُونَهُ لَوْلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْنَّاسَ وَأَخْشَوْا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْزُمُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، وقال الخليل: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ. وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢]، وقال: ﴿أَلَا تُقْبِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، ﴿وَإِنِّي فَأَقْوَينَ﴾ [البقرة: ٤١]، وقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ﴾ [النور: ٥٢]، وقال نوح: ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ [نوح: ٣].

فجعل العبادة والتقوى لله، وجعل له أن يطاع، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وكذلك قَالَتِ الرُّسُلُ مِثْلُ نُوحٍ، وَهَوْدٍ، وَصَالِحٍ، وَشُعَيْبٍ، وَلُوطٍ، وَغَيْرِهِمْ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٠٨، ١٢٦، ١٤٤، ١٦٣، ١٧٩]، فجعلوا التقوى لله، وجعلوا لهم أن يطاعوا. وكذلك في مواضع كثيرة جداً من القرآن: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. وكذلك... (٣).

(١) البخاري في التوحيد (٧٣٧٣)، ومسلم في الإيمان (٥٠/٣٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٩٦)، وأحمد ٣/٢٦٠، ٢٦١.
(٢) الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد ١/٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧.
(٣) بياض في الأصل.

وقال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقال: ﴿وَأُيَسِّرُوا لِي رَيْبَكُمْ وَأَسْلِمُوا لَكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقالت بلقيس: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾^(١) وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال: ﴿وَتَوَلَّوْا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٣١]، ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١]، وقال: ﴿فَتَوَلَّوْا إِلَى بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، ﴿تَوَلَّوْا إِلَى اللَّهِ قَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحریم: ٨]، والاستغفار: ﴿أَسْتَغْفِرُكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، ٧٣/١، ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]، والاسترزاق، والاستنصار، كما في صلاة الاستسقاء، والقنوت على الأعداء، قال: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، والاستغاثة كما قال: ﴿إِذَا سَتَعِفُّونَ رَبَّكُمْ فَاَسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، والاستجارة كما قال: ﴿قُلْ مَنْ يَدْعُوهُ

مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْعِرُونَ﴾^(٢)؟ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩]، والاستعاذة كما قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، وقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]، وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَالْآيَةَ [النحل: ٩٨]، وتفويض الأمر كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

وفي الحديث المتفق عليه في الدعاء الذي علمه النبي ﷺ أن يقال عند المنام: «اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك»^(٣).

(١) ما بين المعقوفين سقط من المطبوعة .

(٢) في المطبوعة: «أفلا تتقون»، والصحيح ما أثبتناه.

(٣) البخاري في الدعوات (٦٣١١، ٦٣١٣، ٦٣١٥)، ومسلم في الذكر والدعاء (٥٦/٢٧١٠)، وأبو داود في الأدب (٥٠٤٦)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٧٦)، والدارمي في الاستئذان ٢/٢٩٠، وأحمد ٤/٢٨٥، ٢٩٠، كلهم عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

وقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]، فالولي الذي يتولى أمرك كله، والشفيع الذي يكون شافعاً فيه أي عوناً، فليس للعبد دون الله من ولي يستقل ولا ظهير معين وقال: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، وقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٣]، وقال: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضُ﴾ [النجم: ٢٦].

فالعبادة والاستعانة وما يدخل في ذلك من الدعاء ، والاستغاثة ، والخشية ، والرجاء ، والإنابة ، والتوكل ، والتوبة ، والاستغفار: كل هذا لله وحده لا شريك له ، فالعبادة متعلقة بألوهيته ، والاستعانة متعلقة بربوبيته ، والله رب العالمين لا إله إلا هو ، ولا رب لنا غيره ، لا ملك ولا نبي ولا غيره ، بل أكبر الكبائر الإشراك بالله وأن تجعل له ندا وهو خالقك ، والشرك أن تجعل لغيره شركاً أي نصيباً في عبادتك ، وتوكلك ، واستعانتك ، كما قال من قال: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] ، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام: ٩٤] ، وكما قال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ﴾؟ [الزمر: ٤٣] ، وكما قال: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤].

وأصناف العبادات الصلاة بأجزائها مجتمعة ، وكذلك أجزاؤها التي هي عبادة بنفسها ، من السجود ، والركوع ، والتسبيح ، والدعاء ، والقراءة ، والقيام ، لا يصلح إلا لله وحده .

ولا يجوز أن يتنفل على طريق العبادة إلا لله وحده ، لا لشمس ، ولا لقمر/ ولا لملك ، ولا لنبي ، ولا صالح ، ولا لقبر نبي ولا صالح ، هذا في جميع ملل الأنبياء ،

وقد ذكر ذلك في شريعتنا حتى نهى أن يتنفل على وجه التحية والإكرام للمخلوقات، ولهذا نهى النبي ﷺ معاذاً أن يسجد له. وقال: «لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»^(١). ونهى عن الانحناء في التحية^(٢)، ونهاهم أن يقوموا خلفه في الصلاة وهو قاعد^(٣).

وكذلك الزكاة العامة، من الصدقات كلها والخاصة، لا يتصدق إلا لله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكَ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا أَتَيْنَاهُ بِجَهْدٍ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ١٩، ٢٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ [الإنسان: ٩]، وقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥] وقال: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغَفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، فلا يجوز فعل ذلك على طريق الدين لا الملك ولا لشمس؛ ولا لقمر؛ ولا لنبي؛ ولا لصالح؛ كما يفعل بعض السوال والمعظمين كرامة لفلان وفلان؛ يقسمون بأشياء: إما من الأنبياء وإما من الصحابة وإما من الصالحين، كما يقال: بكر وعلي ونور الدين أرسلان والشيخ عدي والشيخ جاليد.

وكذلك الحج، لا يحج إلا إلى بيت الله، فلا يطاف إلا به، ولا يحلق الرأس إلا به، ولا يوقف إلا بفنائه، لا يفعل ذلك بنبي، ولا صالح، ولا بقبر نبي ولا صالح، ولا بوثن.

وكذلك الصيام، لا يصام عبادة إلا لله، فلا يصام لأجل الكواكب والشمس والقمر، ولا لقبور الأنبياء والصالحين ونحو ذلك.

٧٦/١

وهذا كله تفصيل الشهادتين، اللتين هما أصل الدين شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً عبده ورسوله، والإله من يستحق أن يألهه العباد، ويدخل فيه حبه وخوفه، فما كان من توابع الألوهية فهو حق محض لله، وما كان من أمور الرسالة فهو حق الرسول.

ولما كان أصل الدين الشهادتين، كانت هذه الأمة الشهداء ولها وصف الشهادة، والقسيسون لهم العبادة بلا شهادة؛ ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَأَتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]؛ ولهذا كان المحققون على أن الشهادتين أول واجبات

(١) الترمذي في الرضاع (١١٥٩) وقال: «حديث أبي هريرة حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٢)، وأحمد ٧٦/٦، كلاهما عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) الترمذي في الاستئذان (٢٧٢٨) وقال: «هذا حديث حسن»، وابن ماجه في الأدب (٣٧٠٢)، وأحمد ١٩٨/٣، كلهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) البخاري في الأذان (٦٨٨)، ومسلم في الصلاة (٨٤/٤١٣)، وأبو داود في الصلاة (٦٠٢)، والترمذي في الصلاة (٣٦١)، والنسائي في الإمامة (٨٣٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٤٠)، ومالك في صلاة الجماعة ١٣٥/١ (١٦).

الدين، كما عليه خلص أهل السنة، وذكره منصور السمعاني والشيخ عبد القادر وغيرهما؛ وجعله أصل الشرك؛ وغيروا بذلك ملة التوحيد التي هي أصل الدين؛ كما فعله قدماء المتفلسفة، الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله.

ومن أسباب ذلك : الخروج عن الشريعة الخاصة التي بعث الله بها محمداً ﷺ، إلى القدر المشترك الذي فيه مشابهة الصابئين، أو النصارى ، أو اليهود، وهو القياس الفاسد، المشابه لقياس الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا أَلِيقِمْ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] فيريدون أن يجعلوا السماع جنساً واحداً، والملة جنساً واحداً ، ولا يميزون بين مشروعة ومبتدعة، ولا بين المأمور به والمنهي عنه . فالسماع الشرعي الديني سماع كتاب الله وتزيين الصوت به وتحبيره . كما قال ﷺ: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(١) ، وقال أبو موسى : لو علمت أنك تستمع لحبرته لك ٧٧/١ تحبيراً . والصور، والأزواج ، والسراري التي أباحها الله تعالى،/والعبادة: عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وهذا المعنى يقرر قاعدة اقتضاء الصراط المستقيم ، مخالفة أصحاب الجحيم، وينهى أن يشبه الأمر الديني الشرعي بالطبيعي البدعي ؛ لما بينهما من القدر المشترك كالصوت الحسن، ليس هو وحده مشروعاً حتى ينضم إليه القدر المميز، كحروف القرآن ، فيصير ٧٨/١ المجموع من المشترك ، والمميز هو الدين النافع./

(١) البخاري في التوحيد معلقاً (الفتح ٥١٨/١٣) ، وأبو داود في الصلاة (١٤٦٨)، والنسائي في الافتتاح (١٠١٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤٢)، والدارمي في فضائل القرآن ٤٧٤/٢، وأحمد ٢٨٣/٤، ٢٩٦ كلهم عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

وقال - رحمه الله :-

فصل

في ألا يسأل العبد إلا الله

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَعْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ [الشرح : ٧ ، ٨] قال النبي ﷺ لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله »^(١) . وفي الترمذي « ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع ، فإنه إن لم ييسره لم يتيسر »^(٢) ، وفي الصحيح ، أنه قال لعدي بن مالك والرهط الذين بايعهم معه : « لا تسألوا الناس شيئا » فكان سوط أحدهم يسقط من يده ، فلا يقول لأحد ناولني إياه^(٣) ، وفي الصحيح في حديث السبعين ألفا ، الذين يدخلون الجنة بغير حساب : « هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ ، ولا يَكْتُونُونَ ، ولا يَطْطِيرُونَ »^(٤) ، والاسترقاء طلب الرقية ، وهو نوع من السؤال .

وأحاديث النهي عن مسألة الناس الأموال كثيرة كقوله : « لا تحل المسألة إلا لثلاثة .. »^(٥) وقوله : « لأن يأخذ أحدكم حبله .. » الحديث^(٦) ، وقوله : « لا تزال المسألة بأحدهم .. »^(٧) ، وقوله : « من سأل الناس وله ما يغنيه .. »^(٨) ، وأمثال ذلك . وقوله : « من نزلت به فاقّة فأنزلها بالناس ، لم تسد فاقته » الحديث^(٩) .

(١) سبق تخريجه ص ٥٦

(٢) الحديث في تحفة الأشراف ١٠٧/١ وعزاه للترمذي ، وهذا الحديث سقط من النسخة المطبوعة ، وكذا عزاه ابن حجر في الفتح ٣٠٠/٢ للترمذي ، وانظر موارد الظمان (٢٤٠٢) ، كلهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) ابن ماجه في الزكاة (١٨٣٧) ، وأحمد ٢٧٧/٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، كلاهما عن ثوبان رضي الله عنه .

(٤) البخاري في الطب (٥٧٠٥) ، ومسلم في الإيمان (٣٧٢/٢١٨) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٤٦) ، وأحمد ٢٧١/١ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ .

(٥) مسلم في الزكاة (١٠٩/١٠٤٤) ، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٠) ، والنسائي في الزكاة (٢٥٧٩) ، وأحمد ١١٤/٣ ، ١٢٧ ، كلهم عن قبصة بن مخارق ماعدا أحمد فعن أنس .

(٦) البخاري في الزكاة (١٤٧٠) ، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٩٩) ، وأحمد ٢٥٧/٢ ، ٣٠٠ كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٧) مسلم في الزكاة (١٠٣/١٠٤٠) ، وأحمد ١٥/٢ ، ٨٨ ، كلاهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه .

(٨) أبو داود في الزكاة (١٦٢٦) ، والترمذي في الزكاة (٦٥٠) وقال : « حديث حسن » ، والنسائي في الزكاة (٢٥٩٢) ، وابن ماجه في الزكاة (١٨٤٠) ، وأحمد ٤٤١/١ ، كلهم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٩) أبو داود في الزكاة (١٦٤٥) ، والترمذي في الزهد (٢٣٢٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » ، وأحمد ٤٠٧/١ ، ٤٤٢ ، كلهم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

فأما سؤال ما يسوغ مثله من العلم ، فليس من هذا الباب ؛ لأن المخبر/ لا يتقص الجواب من علمه بل يزداد بالجواب ، والسائل محتاج إلى ذلك ، قال ﷺ : « هلا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإن شفاء العيِّ السؤال »^(١). ولكن من المسائل ما ينهى عنه ، كما قال تعالى : ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ [المائدة : ١٠١] . وكنهيه عن أغلوطات المسائل ونحو ذلك .

وأما سؤله لغيره أن يدعو له : فقد قال النبي ﷺ لعمر : « لا تنسنا من دعائك »^(٢) ، وقال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ فإنه من صلّى عليّ مرة صلّى الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له شفاعتي يوم القيامة »^(٣) ، وقد يقال في هذا : هو طلب من الأمة الدعاء له ؛ لأنهم إذا دعوا له حصل لهم من الأجر أكثر مما لو كان الدعاء لأنفسهم . كما قال للذي قال : أجعل صلاتي كلها عليك ؟ فقال : « إِذَا يَكْفِيكَ اللَّهُ مَا أَهَمَّكَ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ »^(٤) ، فطلبه منهم الدعاء له لمصلحتهم ، كسائر أمره إياهم بما أمر به ، وذلك لما في ذلك من المصلحة لهم ، فإنه قد صح عنه أنه قال : « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة ، إلا وكل الله به ملكا كلما دعا دعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك مثله »^(٥) .

(١) أبو داود في الطهارة (٣٣٧) ، وابن ماجه في الطهارة (٥٧٢) ، وأحمد ١/ ٣٣٠ ، كلهم عن ابن عباس رضي الله عنه .

و«العيُّ» : الجهل . انظر : النهاية ٣/ ٣٣٤ .

(٢) أبو داود في الصلاة (١٤٩٨) ، والترمذي في الدعوات (٣٥٦٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه في المناسك (٢٨٩٤) ، كلهم عن عمر رضي الله عنه .

(٣) مسلم في الصلاة (١١/ ٣٨٤) ، وأبو داود في الصلاة (٥٢٣) ، والترمذي في المناقب (٣٦١٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، والنسائي في الأذان (٦٧٨) ، وأحمد ٢/ ١٦٨ ، كلهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٤) الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٧) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » بلفظ : « أجعل لك صلاتي كلها ، قال : إذا تكفي همك ويغفر لك ذنبك » .

(٥) مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٢/ ٨٦ م ، ٨٧ ، ٨٨/ ٢٧٣٣) ، وابن ماجه في المناسك (٢٨٩٥) ، وأحمد ١٩٥/ ٥ . وذكره الإمام ابن تيمية بمعناه .

وقال شيخ الإسلام - رحمه الله :-

فصل

العبادات مبناهما على الشرع والاتباع ، لا على الهوى والابتداع ، فإن الإسلام مبني على أصلين :

أحدهما : أن نعبد الله وحده لا شريك له . والثاني : أن نعبد به ما شرعه على لسان رسوله ﷺ ، لا نعبده بالأهواء والبدع ، قال الله تعالى : ﴿ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أَلَا جَزَاءُ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الشورى : ٢١] . وقال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] .

فليس لأحد أن يعبد الله إلا بما شرعه رسوله ﷺ ، من واجب ومستحب ، لا نعبد به بالأمر المبتدعة ، كما ثبت في السنن من حديث العريضي بن سارية . قال الترمذي : حديث حسن صحيح^(١) . وفي مسلم أنه كان يقول في خطبته : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة »^(٢) .

وليس لأحد أن يعبد إلا الله وحده ، فلا يصلي إلا لله ، ولا يصوم إلا لله ، ولا يحج ٨١/١ إلا بيت الله ، ولا يتوكل إلا على الله ، ولا يخاف إلا الله ، ولا ينذر إلا لله ، ولا يحلف إلا بالله . وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت »^(٣) . وفي السنن : « من حلف بغير الله فقد أشرك »^(٤) ، وعن ابن مسعود : « لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً »^(٥) ؛ لأن الحلف بغير الله شرك ، والحلف بالله توحيد . وتوحيد معه كذب ، خير

(١) أبو داود في السنة (٤٦٠٧) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٦) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه في المقدمة (٤٢) ، والدارمي في المقدمة ٤٤/١ ، وأحمد ١٢٦/٤ ، ١٢٧ ، ونص الحديث : « ... وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة » .

(٢) مسلم في الجمعة (٤٣/٨٦٧) .

(٣) البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٤٦) ، ومسلم في الإيمان (٣/١٦٤٦) ، كلاهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٤) أبو داود في الإيمان والنذور (٣٢٥١) ، والترمذي في النذور والإيمان (١٥٣٥) وقال : « هذا حديث حسن » ، وأحمد ٣٤ / ٢ ، ٩٦ ، كلهم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه .

(٥) الطبراني في الكبير (٨٩٠٢) ، وذكره الهيثمي في المجمع ١٨٠ / ٤ وقال : « رواه الطبراني في الكبير ، ورجاله رجال الصحيح » .

من شرك معه صدق، ولهذا كان غاية الكذب أن يعدل بالشرك، كما قال النبي ﷺ : «عدلت شهادة الزور الإشراف بالله» مرتين أو ثلاثاً^(١). وقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، وإذا كان الحالف بغير الله قد أشرك، فكيف الناذر لغير الله ؟. والنذر أعظم من الحلف؛ ولهذا لو نذر لغير الله فلا يجب الوفاء به، باتفاق المسلمين. مثل أن ينذر لغير الله صلاة، أو صوماً ، أو حجاً، أو عمرة، أو صدقة.

ولو حلف ليفعلن شيئاً، لم يجب عليه أن يفعله، قيل: يجوز له أن يكفر عن اليمين، ولا يفعل المحلوف عليه، كما قال النبي ﷺ : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير ، وليكفر عن يمينه »^(٢)، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ : أنه نهى عن النذر وقال : « إنه لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل »^(٣) ، فإذا كان النذر لا يأتي بخير فكيف بالنذر للمخلوق؟ ولكن النذر لله يجب الوفاء به إذا كان في طاعة ، وإذا كان معصية لم يجز الوفاء باتفاق العلماء ، وإنما تنازعوا: هل فيه بدل، أو كفارة يمين، أم لا؟ لما رواه البخاري في صحيحه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه »^(٤).

فمن ظن أن النذر للمخلوقين يجلب له منفعة، أو يدفع عنه مضرة، فهو من الضالين، كالذين يظنون أن عبادة المخلوقين تجلب لهم منفعة، أو تدفع عنهم مضرة.

وهؤلاء المشركون قد تتمثل لهم الشياطين ، وقد تخاطبهم بكلام، وقد تحمل أحدهم في الهواء ، وقد تخبره ببعض الأمور الغائبة، وقد تأتيه بنفقة أو طعام، أو كسوة ، أو غير ذلك ، كما جرى مثل ذلك لعباد الأصنام من العرب وغير العرب، وهذا كثير ، موجود في هذا الزمان ، وغير هذا الزمان، للضالين المتسدين المخالفين للكتاب والسنة، إما بعبادة غير الله، وإما بعبادة لم يشرعها الله.

(١) أبو داود في الأقضية (٣٥٩٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٧٢)، وأحمد ٣٢١/٤ كلهم عن خريم بن فاتك الأسدي.

(٢) مسلم في الأيمان (١٣/١٦٥٠)، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٣٠) وقال: « حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح »، والنسائي في الكبرى في الأيمان والكفارات (٢/٤٧٢٢) كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٧٧)، والنسائي في الكبرى في الأيمان والنذور (٤/٤٧٢٤) كلاهما عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

(٣) البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٩٢)، ومسلم في النذر (٤/١٦٣٩) كلاهما عن عبد الله بن عمر واللفظ لمسلم.

(٤) البخاري في الأيمان والنذور (٦٧٠٠) عن عائشة رضي الله عنها.

وهؤلاء إذا أظهر أحدهم شيئاً خارقاً للعادة لم يخرج عن أن يكون حالاً شيطانياً، أو محالاً بهتانياً فخواصهم تقترب بهم الشياطين، كما يقع لبعض العقلاء منهم ، وقد يحصل ذلك لغير هؤلاء ، لكن لا تقترب بهم الشياطين إلا مع نوع من البدعة، إما كفر ، وإما فسق، وإما جهل بالشرع. فإن الشيطان قصده إغواء بحسب قدرته، فإن قدر على أن يجعلهم كفاراً جعلهم كفاراً وإن لم يقدر إلا على جعلهم فساقاً ، أو عصاة، وإن لم يقدر إلا على نقص عملهم ودينهم، ببدعة يرتكبونها يخالفون بها الشريعة التي بعث الله بها رسوله ﷺ فيستفح منهم بذلك !! /

٨٣/١

ولهذا قال الأئمة : لو رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي ، ولهذا يوجد كثير من الناس يطير في الهواء وتكون الشياطين هي التي تحمله، لا يكون من كرامات أولياء الله المتقين.

ومن هؤلاء : من يحمله الشيطان إلى عرفات فيقف مع الناس ، ثم يحمله فيرده إلى مدينته تلك الليلة، ويظن هذا الجاهل أن هذا من أولياء الله، ولا يعرف أنه يجب عليه أن يتوب من هذا، وإن اعتقد أن هذا طاعة وقربة إليه، فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل؛ لأن الحج الذي أمر الله به ورسوله لا بد فيه من الإحرام، والوقوف بعرفة، ولا بد فيه من أن يطوف بعد ذلك طواف الإفاضة؛ فإنه ركن لا يتم الحج إلا به، بل عليه أن يقف بمزدلفة، ويرمي الجمار ويطوف للوداع، وعليه اجتناب المحظورات، والإحرام من الميقات، إلى غير ذلك من واجبات الحج. وهؤلاء الضالون الذين يضلهم الشيطان يحملهم في الهواء ، ويحمل أحدهم بتيابه، فيقف بعرفة ويرجع من تلك الليلة. حتى يرى في اليوم الواحد ببلده ويرى بعرفة.

ومنهم من يتصور الشيطان بصورته ويقف بعرفة، فيراه من يعرفه واقفاً ، فيظن أنه ذلك الرجل وقف بعرفة! فإذا قال له ذلك الشيخ: أنا لم أذهب العام إلى عرفة، ظن أنه ملك خلق على صورة ذلك الشيخ، وإنما هو شيطان تمثل على صورته، ومثل هذا وأمثاله يقع كثيراً، وهي أحوال شيطانية، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]. وذكر الرحمن هو الذكر الذي أنزله على نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦] ونسيانها

٨٤/١

هو ترك الإيمان والعمل بها، وإن حفظ حروفها ، قال ابن عباس : « تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه، ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة » وقرأ هذه الآية ، فمن اتبع ما بعث الله به رسوله محمداً ﷺ من الكتاب والحكمة هداه الله وأسعده، ومن

أعرض عن ذلك ضل وشقي، وأضله الشيطان وأشقاءه .

فالأحوال الرحمانية وكرامات أوليائه المتقين يكون سببه الإيمان، فإن هذه حال أوليائه، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] وتكون نعمة لله على عبده المؤمن في دينه ودنياه، فتكون الحجة في الدين والحاجة في الدنيا للمؤمنين، مثل ما كانت معجزات نبينا محمد ﷺ : كانت الحجة في الدين والحاجة للمسلمين، مثل البركة التي تحصل في الطعام والشراب، كنبع الماء من بين أصابعه، ومثل نزول المطر بالاستسقاء ، ومثل قهر الكفار وشفاء المريض بالدعاء ، ومثل الأخبار الصادقة، والنافعة بما غاب عن الحاضرين، وأخبار الأنبياء لا تكذب قط .

وأما أصحاب الأحوال الشيطانية ، فهم من جنس الكهان ، يكذبون تارة ويصدقون أخرى، ولا بد في أعمالهم من مخالفة للأمر، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].

ولهذا يوجد الواحد من هؤلاء ملابسا الخبائث من النجاسات والأفذار،/ التي تحبها الشياطين، ومرتكبا للمفواحش، أو ظالما للناس في أنفسهم وأموالهم ، وغير ذلك، والله تعالى قد حرم ﴿الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ الآية [الأعراف: ٣٣].

وأولياء الله هم الذين يتبعون رضاه بفعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على ٨٦/١ المقدور، وهذه جملة لها بسط طويل لا يتسع له هذا المكان، والله أعلم. /

وقال شيخ الإسلام:

فصل جامع

قد كتبتُ فيما تقدم في مواضع قبلُ بعض القواعد ، وآخر مسودة الفقه: أن جماع الحسنات العدل ، وجماع السيئات الظلم، وهذا أصل جامع عظيم.

وتفصيل ذلك: أن الله خلق الخلق لعبادته، فهذا هو المقصود المطلوب لجميع الحسنات، وهو إخلاص الدين كله لله، وما لم يحصل فيه هذا المقصود، فليس حسنة مطلقة مستوجبة لثواب الله في الآخرة، وإن كان حسنة من بعض الوجوه له ثواب في الدنيا، وكل ما نهى عنه فهو زيغ وانحراف عن الاستقامة ، ووضع للشئ في غير موضعه فهو ظلم.

ولهذا؛ جمع بينهما - سبحانه - في قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩] فهذه الآية في سورة الأعراف المشتملة على أصول الدين، والاعتصام بالكتاب، وذم الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، كالشرك وتحريم الطيبات، أو خالفوا ما شرعه الله من أمور دينهم. كإبليس ، ومخالفي الرسل من قوم نوح إلى قوم فرعون، والذين بدلوا الكتاب من أهل الكتاب، فاشتملت السورة على ذم من أتى بدين باطل ككفار العرب، ومن خالف الدين الحق كله كالكفار بالأنبياء ، أو بعضه ككفار أهل الكتاب.

وقد جمع - سبحانه - في هذه السورة وفي الأنعام وفي غيرهما ذنوب المشركين

٨٧/١

في نوعين: /

أحدهما : أمر بما لم يأمر الله به كالشرك، ونهي عما لم ينه الله عنه كتحریم الطيبات فالأول شرع من الدين ما لم يأذن به الله . والثاني: تحريم لما لم يحرمه الله .

وكذلك في الحديث الصحيح حديث عياض بن حمار، عن النبي ﷺ ، عن الله تعالى : « إني خلقت عبادي حنفاءً فاجتالتهم الشياطين، فحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً » (١).

ولهذا كان ابتداء العبادات الباطلة، من الشرك ونحوه، هو الغالب على النصارى

(١) مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٦٥/٦٣).

و «اجتالتهم الشياطين» : أي استخفتهم ، فجالوا معهم في الضلال . انظر: النهاية ٣١٧/١.

ومن ضاهاهم من منحرفة المتعبدة، والمتصوفة. وابتداع التحريمات الباطلة هو الغالب على اليهود ومن ضاهاهم من منحرفة المتفقهة، بل أصل دين اليهود فيه آصار وأغلال من التحريمات؛ ولهذا قال لهم المسيح: ﴿وَلَأُجِدَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وأصل دين النصارى فيه تأله بألفاظ متشابهة، وأفعال مجملة، فالذين في قلوبهم زيغ اتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما قررته في غير هذا الموضع: بأن توحيد الله الذي هو إخلاص الدين له، والعدل الذي نفعله نحن هو جماع الدين يرجع إلى ذلك، فإن إخلاص الدين لله أصل العدل، كما أن الشرك بالله ظلم عظيم./ ٨٨/١

وقال شيخ الإسلام :

اعلم - رحمك الله - أن الشرك بالله أعظم ذنب عصى الله به ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] وفي الصحيحين أنه ﷺ سئل : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » ^(١) !! . والند المثل قال تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَنَّعَ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ [الزمر : ٨] . فمن جعل لله نداً من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الإلهية والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة .

فإن الله - سبحانه - هو المستحق للعبادة لذاته ؛ لأنه المألوه المعبود ، الذي تأله القلوب وترغب إليه ، وتفزع إليه عند الشدائد ، وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبودية ، فكيف

يصلح أن يكون إلهاً ؟ قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ [الزخرف : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مریم : ٩٣] ، وقال الله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء : ١٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْ نَدِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ عَبُدُ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر : ٨٩/١] ، فالله - سبحانه - هو المستحق أن يعبد لذاته ، قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] ، فذكر (الحمد) بالألف واللام التي تقتضي الاستغراق لجميع المحامد ، فدل على أن الحمد كله لله ، ثم حصره في قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] . فهذا تفصيل لقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . فهذا يدل على أنه لا معبود إلا الله ، وأنه لا يستحق أن يعبد أحد سواه ، فقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إشارة إلى عبادته بما اقتضته إلهيته : من المحبة والخوف ، والرجاء ، والأمر ، والنهي . ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ إشارة

إلى ما اقتضته الربوبية ، من التوكل والتفويض والتسليم ؛ لأن الرب - سبحانه وتعالى - هو المالك ، وفيه أيضاً معنى الربوبية والإصلاح ، والمالك الذي يتصرف في ملكه كما يشاء .

(١) البخاري في التوحيد (٧٥٢٠) ، (٧٥٣٢) ، ومسلم في الإيمان (١٤١/٨٦) عن عبد الله رضي الله عنه .

فإذا ظهر للعبد من سر الربوبية أن الملك والتدبير كله بيد الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك : ١] فلا يرى نفعاً ، ولا ضرراً ، ولا حركة ، ولا سكوناً ، ولا قبضاً ، ولا بسطاً ، ولا خفضاً ، ولا رفعاً ، إلا واللّه - سبحانه وتعالى - فاعله ، وخالفه ، وقابضه ، وباسطه ، ورافعه ، وخافضه . فهذا الشهود هو سر الكلمات الكونية ، وهو علم صفة الربوبية . والأول هو علم صفة الإلهية وهو كشف سر الكلمات التكليفات .

٩٠/١ فالتحقيق بالأمر والنهي ، والمحبة والخوف والرجاء ، يكون عن كشف علم الإلهية .

والتحقيق بالتوكل والتفويض والتسليم يكون بعد كشف علم الربوبية ، وهو علم التدبير الساري في الأكوان ، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] . فإذا تحقق العبد لهذا المشهد ، ووفقه لذلك ، بحيث لا يحجبه هذا المشهد عن المشهد الأول فهو الفقيه في عبوديته ، فإن هذين المشهدين عليهما مدار الدين ، فإن جميع مشاهد الرحمة واللفظ والكرم ، والجمال داخل في مشهد الربوبية . ولهذا قيل : إن هذه الآية جمعت أسرار القرآن : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ؛ لأن أولها اقتضى عبادته بالأمر والنهي ، والمحبة والخوف ، والرجاء ، كما ذكرنا ، وآخرها اقتضى عبوديته بالتفويض والتسليم ، وترك الاختيار ، وجميع العبوديات داخله في ذلك .

ومن غاب عن هذا المشهد وعن المشهد الأول ، ورأى قيام الله عز وجل على جميع الأشياء ، وهو القيام على كل نفس بما كسبت ، وتصرفه فيها ، وحكمه عليها ، فرأى الأشياء كلها منه صادرة عن نفاذ حكمه ، وإرادته القدريّة ، فغاب بما لاحظ عن التمييز والفرق ، وعطل الأمر والنهي والنبوات ، ومرق من الإسلام مروق السهم من الرميّة .

وإن كان ذلك المشهد قد أدهشه وغيب عقله ، لقوة سلطانه الوارد ، وضعف قوة البصيرة ؛ أن يجمع بين المشهدين ، فهذا معذور منقوص إلا من جمع بين المشهدين : الأمر الشرعي ، ومشهد الأمر الكوني الإرادي . وقد زلت في هذا المشهد أقسام كثير من السالكين ، لقلة معرفتهم بما بعث الله به المرسلين ؛ وذلك لأنهم عبدوا الله على مرادهم منه ، ففنوا بمرادهم عن مراد الحق - عز وجل - منهم ؛ لأن الحق يغني بمراده ومحجوبه ، ولو عبدوا الله على مراده منهم لم ينلهم شيء من ذلك ، لأن العبد إذا شهد عبوديته ولم يكن مستيقظاً لأمر سيده ، لا يغيب بعبادته عن معبوده ، ولا بمعبوده عن عبادته ، بل يكون له عينان ينظر بأحدهما إلى المعبود كأنه يراه ؛ كما قال ﷺ لما سئل عن الإحسان : « أن تعبد الله

٩١/١

كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١)، والأخرى ينظر بها إلى أمر سيده، ليقوعه على الأمر الشرعي الذي يحبه مولاه ويرضاه.

فإذا تقرر هذا ، فالشرك إن كان شركاً يكفر به صاحبه . وهو نوعان :

شرك في الإلهية ، وشرك في الربوبية .

فأما الشرك في الإلهية فهو : أن يجعل لله نداً ، أي : مثلاً في عبادته ، أو محبته ، أو خوفه ، أو رجائه ، أو إنابته ، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] وهذا هو الذي قاتل عليه رسول الله ﷺ مشركي العرب ؛ لأنهم أشركوا في الإلهية ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ الآية [البقرة : ١٦٥] ، وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ الآية [الزمر : ٣] ، وقالوا : ﴿ أَجْعَلْ آلِهَةً إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ ! [ص : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ أَلِفًا فِي جَهَنَّمَ كُلِّ كَفَّارٍ عَيْنٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ [ق : ٢٤ - ٢٦] .

وقال النبي ﷺ لحُصَيْن : « كم تعبد؟ » قال : ستة في الأرض وواحد في السماء . قال : « فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك؟ » قال : الذي في السماء . قال : « ألا تسلم فأعلمك كلمات؟ » فأسلم . فقال النبي ﷺ : « قل : اللَّهُمَّ اِهْمِنِي رُشْدِي ، وَفِنِي شَرَّ نَفْسِي »^(٢) .

وأما الربوبية فكانوا مقرين بها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۙ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان : ٢٥] ، وقال : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ ؟ [المؤمنون : ٨٤ - ٨٩] ، وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هي التي تنزل الغيث ، وترزق العالم وتدبره ، وإنما كان شركهم كما ذكرنا ، اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئاً من دون الله كما يحب الله تعالى ، فقد أشرك ، وهذا كقوله : ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا

(١) البخاري في الإيمان (٥٠) ، ومسلم في الإيمان (٥/٩) ، وأبو داود في السنة (٤٦٩٥) ، والترمذي في الإيمان (٢٦١٠) ، وابن ماجه في المقدمة (٦٣) ، وأحمد ٢٧/١ ، ٥١ .

(٢) الترمذي في الدعوات (٣٤٨٣) ، وقال : « هذا حديث غريب » عن عمران بن حصين رضي الله عنه .

يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ تُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿الشعراء: ٩٦ - ٩٨﴾ .
وكذا من خاف أحداً كما يخاف الله ، أو رجاه كما يرجو الله ، وما أشبه ذلك .

وأما النوع الثاني : فالشرك في الربوبية ، فإن الرب - سبحانه - هو المالك المدبر ، المعطي المانع ، الضار النافع ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، فمن شهد أن المعطي أو المانع ، أو الضار أو النافع ، أو المعز أو المذل غيره ، فقد أشرك بربوبيته .

ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك ، فليُنظر إلى المعطي الأول مثلاً ، فيشكره على ما أولاه من النعم ، وينظر إلى من أسدى إليه المعروف فيكافئه عليه ، لقوله عليه السلام : «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له ، حتى تروا أنكم قد كافأتموه»^(١) لأن النعم كلها لله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ، وقال تعالى : ﴿كَلَّا نُمَدِّدْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠] ، فالله - سبحانه - هو المعطي على الحقيقة ، فإنه هو الذي خلق الأرزاق وقدرها ، وساقها إلى من يشاء من عباده ، فالمعطي هو الذي أعطاه ، وحرك قلبه لعطاء غيره . فهو الأول والآخر . / ٩٣/١

ومما يقوي هذا المعنى قوله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » قال الترمذي : هذا حديث صحيح^(٢) . فهذا يدل على أنه لا ينفع في الحقيقة إلا الله ، ولا يضر غيره ، وكذا جميع ما ذكرنا في مقتضى الربوبية .

فمن سلك هذا المسلك العظيم استراح من عبودية الخلق ونظره إليهم ، وأراح الناس من لَوْمِهِ وذَمِّه إياهم ، وتجرد التوحيد في قلبه ، فقوي إيمانه ، وانشرح صدره ، وتنور قلبه ، ومن توكل على الله فهو حسبه ، ولهذا قال الفضيل بن عياض - رحمه الله - : من عرف الناس استراح . يريد - والله أعلم - أنهم لا ينفعون ولا يضرون .

وأما الشرك الخفي : فهو الذي لا يكاد أحد أن يسلم منه ، مثل : أن يحب مع الله غيره .

(١) أبو داود في الزكاة (١٦٧٢) ، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٧) ، وأحمد ٦٨/٢ ، ٩٦ ، كلهم عن ابن عمر رضي الله عنه .

(٢) الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وأحمد ٢٩٣/١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، كلاهما عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه .

فإن كانت محبته لله مثل حب النبيين والصالحين، والأعمال الصالحة فليست من هذا الباب؛ لأن هذه تدل على حقيقة المحبة، لأن حقيقة المحبة أن يحب المحبوب وما أحبه، ويكره ما يكرهه، ومن صحت محبته امتنعت مخالفته؛ لأن المخالفة إنما تقع لنقص المتابعة، ويدل على نقص المحبة قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٣١]. فليس الكلام في هذا، إنما الكلام في ٩٤/١
 محبة تتعلق بالنفوس لغير الله تعالى، فهذا لا شك أنه نقص في توحيد المحبة لله، وهو دليل على نقص محبة الله تعالى، إذ لو كملت محبته، لم يحب سواه.

ولا يرد علينا الباب الأول؛ لأن ذلك داخل في محبته. وهذا ميزان لم يجر عليك كلما قويت محبة العبد لمولاه، صغرت عنده المحبوبات وقلت، وكلما ضعفت، كثرت محبوباته وانتشرت.

وكذا الخوف، والرجاء، وما أشبه ذلك، فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئاً سواه، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُلْقُونَ رِسَالَتِي اللَّهَ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته. يكون الخوف كما ذكرنا في المحبة، وكذا الرجاء وغيره، فهذا هو الشرك الخفي، الذي لا يكاد أحد أن يسلم منه، إلا من عصمه الله تعالى. وقد روي أن الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل^(١).

وطريق التخلص من هذه الآفات كلها: الإخلاص لله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، ولا يحصل الإخلاص إلا بعد الزهد، ولا زهد إلا بتقوى، والتقوى متابعة الأمر والنهي.

٩٥/١

فصل

ولابد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب إلى الله عز وجل، فتعصم به، فتقل آفاتهما، أو تذهب عنها بالكلية، بحول الله وقوته.

فنقول: اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء. وأقواها المحبة، وهي مقصودة تراد لذاتها؛ لأنها تراد في الدنيا والآخرة

(١) أحمد ٤٠٣/٤ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ولفظه: «اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب النمل...».

بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، والخوف المقصود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقى العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده، فهذا أصل عظيم، يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره.

فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان، قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه، فأى شيء يحرك القلوب؟ قلنا: يحركها شيان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبيب؛ لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به، ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه، قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا ءَالَءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه، من تسخير السماء والأرض، وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة، من الإيمان وغيره، فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثاً، وكذلك الخوف، تحركه مطالعة آيات الوعيد، والزجر، والعرض، والحساب ونحوه، وكذلك الرجاء، يحركه مطالعة الكرم، والحلم، والعفو.

وما ورد في الرجاء والكلام في التوحيد واسع. وإنما الغرض التنبيه على تضمينه الاستغناء بأدنى إشارة، والله - سبحانه وتعالى - أعلم، وصلى الله على محمد وآله

٩٧/١ وصحبه وسلم.

وقال شيخ الإسلام - رحمه الله - :

فصل

ذكر الله عن إمامنا إبراهيم خليل الله أنه قال لمناظريه من المشركين الظالمين :
﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام : ٨١ ، ٨٢] .

وفى الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود؛ أن النبي ﷺ فسر الظلم بالشرك وقال : «ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟»^(١) . فأنكر أن نخاف ما أشركوهم بالله من جميع المخلوقات العلويات والسفليات ، وعدم خوفهم من إشراكهم بالله شريكا لم ينزل الله به سلطاناً ، وبين أن القسم الذى لم يشرك هو الأمن المهدى .

وهذه آية عظيمة تنفع المؤمن الحنيف فى مواضع ، فإن الإشراك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل ، دع جليله ، وهو شرك فى العبادة والتأله ، وشرك فى الطاعة والانقياد ، وشرك فى الإيمان والقبول .

فالغالية من النصارى والرافضة وضلال الصوفية والفقراء والعامة يشركون بدعاء غير الله تارة ، وبنوع من عبادته أخرى ، وبهما جميعاً تارة ، ومن أشرك هذا الشرك أشرك فى الطاعة . /

٩٨/١

وكثير من المتفقهة وأجناد الملوك ، وأتباع القضاة ، والعامة المتبعة لهؤلاء ، يشركون شرك الطاعة ، وقد قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم لما قرأ : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة : ٣١] فقال : يا رسول الله ، ما عبدوهم ، فقال : « ما عبدوهم ، ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم »^(٢) .

فتجد أحد المنحرفين يجعل الواجب ما أوجبه متبوعه ، والحرام ما حرمه ، والحلال ما

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٧٦) .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٠٩٥) وقال : « هذا حديث غريب ... » .

حلله ، والدين ما شرعه ، إما ديناً وإما دنيا ، وإما دنيا وديناً . ثم يخوف من امتنع من هذا الشرك ، وهو لا يخاف أنه أشرك به شيئاً في طاعته بغير سلطان من الله ، وبهذا يخرج من أوجب الله طاعته من رسول ، وأمير وعالم ووالد وشيخ وغير ذلك .

وأما الشرك الثالث : فكثير من أتباع المتكلمة ، والمتفلسفة ، بل وبعض المتفقهة والمتصوفة ، بل وبعض أتباع الملوك والقضاة ، يقبل قول متبوعه فيما يخبر به من الاعتقادات الخبرية ، ومن تصحيح بعض المقالات وإفساد بعضها ، ومدح بعضها ، وبعض القائلين ، وذم بعض ، بلا سلطان من الله . ويخاف ما أشركه في الإيمان والقبول ، ولا يخاف إشراكه بالله شخصاً في الإيمان به ، وقبول قوله بغير سلطان من الله .

وبهذا يخرج من شرع الله تصديقه من المرسلين ، والعلماء المبلغين ، والشهداء الصادقين ، وغير ذلك . فباب الطاعة والتصديق ينقسم إلى مشروع في حق البشر وغير مشروع .

وأما العبادة والاستعانة والتأله ، فلا حق فيها للبشر بحال ، فإنه كما قال القائل : ما وضعت يدي في قَصْعَةٍ أحد إلا ذللت له ! . ولا ريب أن من نصرك ورزقك/كان له سلطان عليك ، فالمؤمن يريد ألا يكون عليه سلطان إلا لله ولرسوله ، ولمن أطاع الله ورسوله ، وقبول مال الناس فيه سلطان لهم عليه ، فإذا قصد دفع هذا السلطان وهذا القهر عن نفسه ، كان حسناً محموداً ، يصح له دينه بذلك ، وإن قصد الترفع عليهم والتروؤس والمراعاة بالحال الأولى كان مذموماً ، وقد يقصد بترك الأخذ غنى نفسه عنهم ويترك أموالهم لهم .

فهذه أربع مقاصد صالحة : غنى نفسه وعزتها حتى لا تنفق إلى الخلق ولا تذلل لهم ، وسلامة مالهم ودينهم عليهم حتى لا تنقص عليهم أموالهم ، فلا يذهبها عنهم ، ولا يوقعهم بأخذها منهم فيما يكره لهم من الاستيلاء عليه ، ففي ذلك منفعة له ألا يذل ولا يفتقر إليهم ، ومنفعة لهم أن يبقى لهم مالهم ودينهم ، وقد يكون في ذلك منفعة بتأليف قلوبهم بإبقاء أموالهم لهم ، حتى يقبلوا منه ، ويتألفون بالعطاء لهم ، فكذلك في إبقاء أموالهم لهم ، وقد يكون في ذلك أيضاً حفظ دينهم فإنهم إذا قبل منهم المال قد يطمعون هم أيضاً في أنواع من المعاصي ، ويتركون أنواعاً من الطاعات ، فلا يقبلون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي ذلك منافع ومقاصد أخر صالحة .

وأما إذا كان الأخذ يفضي إلى طمع فيه حتى يستعان به في معصية أو يمنع من طاعة ، فتلك مفسد أخر ، وهي كثيرة ترجع إلى ذله وفقره لهم ، فإنهم لا يتمكنون من منعه من

طاعة إلا إذا كان ذليلاً أو فقيراً إليهم، ولا يتمكنون هم من استعماله في المعصية إلا مع ذله أو فقره، فإن العطاء يحتاج إلى جزاء ومقابلة، فإذا لم تحصل مكافأة دنيوية من مال أو نفع لم يبق إلا ما ينتظر من المنفعة الصادرة منه إليهم. /

١٠٠/١

وللرد وجوه مكروهة مذمومة، منها : الرد مراعاة بالتشبه بمن يرد غنى وعزة ورحمة للناس في دينهم ودنياهم، ومنها : التكبر عليهم والاستعلاء حتى يستعبدهم، ويستعلي عليهم بذلك، فهذا مذموم أيضاً . ومنها : البخل عليهم فإنه إذا أخذ منهم احتاج أن ينفعهم، ويقضي حوائجهم ، فقد يترك الأخذ بخلاً عليهم بالمنافع . ومنها : الكسل عن الإحسان إليهم، فهذه أربع مقاصد فاسدة في الرد للعطاء : الكبر، والرياء ، والبخل ، والكسل .

فالحاصل : أنه قد يترك قبول المال لجلب المنفعة لنفسه، أو لدفع المضرة عنها، أو لجلب المنفعة للناس، أو دفع المضرة عنهم، فإن في ترك أخذه غنى نفسه وعزها، وهو منفعة لها، وسلامة دينه ودنياه مما يترتب على القبول من أنواع المفسد ، وفيه نفع الناس بإبقاء أموالهم ودينهم لهم ، ودفع الضرر المتولد عليهم إذا بذلوا بذلاً قد يضرهم، وقد يتركه لمضرة الناس ، أو لترك منفعتهم ، فهذا مذموم كما تقدم، وقد يكون في الترك أيضاً مضرة نفسه، أو ترك منفعتها، إما بأن يكون محتاجاً إليه فيضره تركه، أو يكون في أخذه وصرفه منفعة له في الدين والدنيا، فيتركها من غير معارض مقاوم؛ فلهذا فصلنا هذه المسألة، فإنها مسألة عظيمة، وبإزائها مسألة القبول أيضاً، وفيها التفصيل، لكن الأغلب أن ترك الأخذ كان أجود من القبول ؛ ولهذا يعظم الناس هذا الجنس أكثر، وإذا صح الأخذ كان أفضل، أعني الأخذ والصرف إلى الناس . /

١٠١/١

سئل الشيخ - رحمه الله - عمن قال - : يجوز الاستغاثه بالنبي ﷺ في كل ما يستغاث الله تعالى فيه : على معنى أنه وسيلة من وسائل الله تعالى في طلب الغوث ، وكذلك يستغاث بسائر الأنبياء والصالحين في كل ما يستغاث الله تعالى فيه .

وأما من توسل إلى الله تعالى بنبيه في تفرج كربة فقد استغاث به ، سواء كان ذلك بلفظ الاستغاثه ، أو التوسل ، أو غيرهما مما هو في معناهما ، وقول القائل : أتوسل إليك يا إلهي برسولك ! أو أستغيث برسولك عندك ، أن تغفر لي ، استغاثه بالرسول حقيقة في لغة العرب وجميع الأمم .

قال : ولم يزل الناس يفهمون معنى الاستغاثه بالشخص ، قديما وحديثا ، وأنه يصح إسنادها للمخلوقين ، وأنه يستغاث بهم على سبيل التوسل ، وأنها مطلقة على كل من سأل تفرج الكربة بواسطة التوسل به ، وأن ذلك صحيح في أمر الأنبياء والصالحين .

قال : وفيما رواه الطبراني عن النبي ﷺ : أن بعض الصحابة - رضي الله عنهم - قال : استغيثوا برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ : «إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله»^(١) . / إن النبي ﷺ لو نفى عن نفسه أنه يستغاث به ، ونحو ذلك ، يشير به إلى التوحيد ، وإفراد الباري بالقدرة ، لم يكن لنا نحن أن ننفي ذلك ، ونجوز أن نطلق أن النبي ﷺ والصالح يستغاث به ، يعني في كل ما يستغاث فيه بالله تعالى ، ولا يحتاج أن يقول على سبيل أنه وسيلة وواسطة ، وأن القائل لا يستغاث به متقصا له ، وأنه كافر بذلك ، لكنه يعذر إذا كان جاهلا ، فإذا عرف معنى الاستغاثه ثم أصر على قوله بعد ذلك صار كافرا .

والتوسل به استغاثه به كما تقدم ، فهل يعرف أنه قال أحد من علماء المسلمين : إنه يجوز أن يستغاث بالنبي ﷺ والصالح ، في كل ما يستغاث به الله تعالى ؟ وهل يجوز إطلاق ذلك ؟ كما قال القائل ، وهل التوسل بالنبي ﷺ ، أو الصالح أو غيرهما إلى الله تعالى في كل شيء استغاثه بذلك المتوسل به ؟ كما نقله هذا القائل عن جميع اللغات ، وسواء كان التوسل بالنبي ﷺ أو الصالح استغاثه به ، أو لم يكن ، فهل يعرف أن أحدا من العلماء قال : إنه يجوز التوسل إلى الله بكل نبي وصالح ؟ فقد أفتى الشيخ عز الدين

(١) الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٦٢ عن عبادة بن الصامت قال : « رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث » ، وأحمد ٥/٣١٧ ولكن بغير هذا السياق .

ابن عبد السلام في فتاويه المشهورة: أنه لا يجوز التوسل إلى الله تعالى إلا بالنبي ﷺ، إن صح الحديث فيه، فهل قال أحد خلاف ما أفتى به الشيخ المذكور؟

وبتقدير أن يكون في المسألة خلاف، فمن قال: لا يتوسل بسائر الأنبياء والصالحين، كما أفتى الشيخ عز الدين؟ هل يكفر كما كفره هذا القائل؟ ويكون ما أفتى به الشيخ كفراً، بل نفس التوسل به لو قال قائل: لا يتوسل به،/ولا يستغاث به، إلا في حياته ١٠٣/١ وحضوره، لا في موته ومغيبه، هل يكون ذلك كفراً؟ أو يكون تنقضا؟

ولو قال: ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى لا يستغاث فيه إلا بالله، أي: لا يطلب إلا من الله تعالى هل يكون كفراً، أو يكون حقاً؟ وإذا نفى الرسول ﷺ عن نفسه أمراً من الأمور لكونه من خصائص الربوبية، هل يحرم عليه أن ينفيه عنه أم يجب، أم يجوز نفيه؟ أفتونا - رحمكم الله - بجواب شاف كاف، موفقين مثابين - إن شاء الله تعالى .

الجواب :

الحمد لله رب العالمين . لم يقل أحد من علماء المسلمين : أنه يستغاث بشيء من المخلوقات ، في كل ما يستغاث فيه بالله تعالى ، لا بنبي ، ولا بملك ، ولا بصالح ، ولا غير ذلك ، بل هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ، أنه لا يجوز إطلاقه .

ولم يقل أحد : إن التوسل بنبي ، هو استغاثة به ، بل العامة الذين يتوسلون في أدعيتهم بأمر ، كقول أحدهم : أتوسل إليك بحق الشيخ فلان ، أو بحرمة ، أو أتوسل إليك باللوح والقلم ، أو بالكعبة ، أو غير ذلك ، مما يقولونه في أدعيتهم ، يعلمون أنهم لا يستغيثون بهذه الأمور ، فإن المستغيث بالنبي ﷺ طالب منه وسائل له ، والتوسل به لا يدعي ولا يطلب منه ولا يُسأل ، وإنما يُطلب به ، وكل أحد يفرق بين المدعو والمدعو به .

والاستغاثة طلب الغوث ، وهو إزالة الشدة ، كالاستنصار طلب النصر ، والاستعانة

طلب العون ، والمخلوق يطلب منه من هذه الأمور ما يقدر عليه/منها ، كما قال تعالى : ١٠٤/١ ﴿وَإِنْ أَسْتَعِزُّوْكُمْ فِي الَّذِيْنَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢] ، وكما قال : ﴿فَاسْتَعِزُّوْهُ الَّذِيْ مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِيْ مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥] ، وكما قال تعالى : ﴿وَتَمَاوُؤًا عَلَى الْبَرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] .

وأما ما لا يقدر عليه إلا الله ، فلا يطلب إلا من الله ؛ ولهذا كان انسلمون لا يستغيثون بالنبي ﷺ ويستسقون به ، ويتوسلون به ، كما في صحيح البخاري : أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - استسقى بالعباس وقال : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك

بنينا فتسقيننا، وإننا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون^(١).

وفي سنن أبي داود : أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إنا نستشفع بالله عليك، ونستشفع بك على الله، فقال : «شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع به على أحد من خلقه»^(٢) فأقره على قوله: نستشفع بك على الله ، وأنكر عليه قوله: نستشفع بالله عليك.

وقد اتفق المسلمون على أن نبينا شفيع يوم القيامة ، وأن الخلق يطلبون منه الشفاعة ، لكن عند أهل السنة أنه يشفع في أهل الكبائر ، وأما عند الوعيدية فإنما يشفع في زيادة الثواب.

وقول القائل : إن من توسل إلى الله بنبي، فقال : أتوسل إليك برسولك، فقد استغاث برسوله حقيقة، في لغة العرب وجميع الأمم، قد كذب عليهم، فما يعرف هذا في لغة أحد من بني آدم، بل الجميع يعلمون أن المستغاث المسؤول به مدعو، ويفرقون بين المسؤول والمسؤول به ، سواء استغاث بالخالق/أو بالخلق ، فإنه يجوز أن يستغاث بالخلق فيما يقدر على النصر فيه، والنبي ﷺ أفضل مخلوق يستغاث به في مثل ذلك .

ولو قال قائل لمن يستغاث به : أسألك بفلان، أو بحق فلان، لم يقل أحد: إنه استغاث بما توسل به، بل إنما استغاث بمن دعاه، وسأله؛ ولهذا قال المصنفون في شرح أسماء الله الحسنى: إن المغيث بمعنى المجيب ، لكن الإغاثة أخص بالأفعال ، والإجابة أخص بالأقوال .

والتوسل إلى الله بغير نبينا ﷺ - سواء سُمي استغاثة أو لم يُسمَ - لا نعلم أحداً من السلف فعله . ولا روى فيه أثراً ، ولا نعلم فيه إلا ما أفتى به الشيخ من المنع، وأما التوسل بالنبي ﷺ ، ففيه حديث في السنن، رواه النسائي والترمذي وغيرهما : أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أصبت في بصري فادع الله لي ، فقال له النبي ﷺ: «توضاً وصل ركعتين ، ثم قل : اللهم أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ، يا محمد، إني أتشفع بك في ردِّ بصري. اللهم شفّع نبيك في»^(٣) ، وقال : « فإن كانت لك حاجة فمثل ذلك» فرد الله بصره . فلأجل هذا الحديث استثنى الشيخ التوسل به .

وللناس في معنى هذا قولان:

(١) البخاري في الاستسقاء (١٠١٠) عن أنس رضي الله عنه .

(٢) أبو داود في السنة (٤٧٢٦).

(٣) الترمذي في الدعوات (٣٥٧٨) وقال: « هذا حديث حسن صحيح غريب»، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (٤٩٤/١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٨٥) كلهم عن عثمان بن حنيف.

أحدهما : أن هذا التوسل هو الذي ذكر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لما قال : كنا إذا أجدبنا نتوسل بنبينا إليك فتسقيننا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا (١) ، فقد ذكر عمر - رضي الله عنه - : أنهم كانوا يتوسلون به في حياته في الاستسقاء ، ثم توسلوا بعمه العباس بعد موته ، وتوسلهم/به هو استسقاؤهم به ، بحيث يدعو ويدعون معه ، ١٠٦/١ فيكون هو وسيلتهم إلى الله ، وهذا لم يفعله الصحابة بعد موته ولا في مغيبه ، والنبي ﷺ كان في مثل هذا شافعاً لهم ، داعياً لهم ؛ ولهذا قال في حديث الأعمى : اللهم شفّعه في . فعلم أن النبي ﷺ شفّع له ، فسأل الله أن يشفّعه فيه .

والثاني : أن التوسل يكون في حياته ، وبعد موته ، وفي مغيبه وحضرته ، ولم يقل أحد : إن من قال بالقول الأول فقد كفر ، ولا وجه لتكفيره ، فإن هذه مسألة خفية ، ليست أدلتها جلية ظاهرة ، والكفر إنما يكون بإنكار ما علم من الدين ضرورة ، أو بإنكار الأحكام المتواترة والمجمع عليها ، ونحو ذلك . واختلاف الناس فيما يشرع من الدعاء وما لا يشرع ، كاختلافهم هل تشرع الصلاة عليه عند الذبح ، وليس هو من مسائل السب عند أحد من المسلمين .

وأما من قال : إن من نفى التوسل الذي سماه استغاثة بغيره كفر ، وتكفير من قال بقول الشيخ عز الدين وأمثاله ، فأظهر من أن يحتاج إلى جواب ، بل المكفر بمثل هذه الأمور ، يستحق من غليظ العقوبة والتعزير ما يستحقه أمثاله ، من المفترين على الدين ، لا سيما مع قول النبي ﷺ : « من قال لأخيه : كافر فقد باء بها أحدهما » (٢) .

وأما من قال : ما لا يقدر عليه إلا الله لا يستغاث فيه إلا به ، فقد قال الحق ، بل لو قال كما قال أبو يزيد : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق ، وكما قال الشيخ أبو عبد الله القرشي : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون لكان قد أحسن ، فإن مطلق هذا الكلام يفهم الاستغاثة/المطلقة ، كما قال النبي ﷺ لابن عباس : ١٠٧/١ « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » (٣) .

وإذا نفى الرسول عن نفسه أمراً كان هو الصادق المصدوق في ذلك ، كما هو الصادق المصدوق في كل ما يخبر به من نفي ، وإثبات ، وعلينا أن نصدق في كل ما أخبر به ،

(١) سبق تخريجه ص ٨٠ .

(٢) البخاري في الأدب (٦١٠٤) ، ومسلم في الإيمان (٦٠ / ١١١) ، والترمذي في الإيمان (٣٦٣٧) ، ومالك في الكلام ٢ / ٨٩٤ (١) ، وأحمد ١٨/٢ ، ٤٤ ، كلهم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه .

(٣) سبق تخريجه ص ٥٦ .

من نفي ، وإثبات ، ومن رد خبره تعظيما له ، أشبه النصارى ، الذين كذبوا المسيح في إخباره عن نفسه بالعبودية ، تعظيما له ، ويجوز لنا أن ننفي ما نفاه ، وليس لأحد أن يقابل نفيه بنقيض ذلك البتة ، والله أعلم. / ١٠٨/١

وسئل شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية - رضي الله عنه :-

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين ، وفقهم الله لطاعته ، فيمن يقول : لا يستغاث برسول الله ﷺ ، هل يحرم عليه هذا القول ، وهل هو كفر أم لا ؟ وإن استدل بآيات من كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ هل ينفعه دليله أم لا ؟ وإذا قام الدليل من الكتاب والسنة فما يجب على من يخالف ذلك ؟ أفوتونا مأجورين .

فأجاب :

الحمد لله ، قد ثبت بالسنة المستفيضة ، بل المتواترة ، واتفاق الأمة : أن نبينا ﷺ الشافع المشفع ، وأنه يشفع في الخلائق يوم القيامة وأن الناس يستشفعون به ، يطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربهم وأنه يشفع لهم .

ثم اتفق أهل السنة والجماعة أنه يشفع في أهل الكبائر ، وأنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد .

وأما الخوارج والمعتزلة فأنكروا شفاعته لأهل الكبائر ، ولم ينكروا شفاعته للمؤمنين ، وهؤلاء مبتدعة ضلال ، وفي تكفيرهم نزاع وتفصيل . /

١٠٩/١

وأما من أنكر ما ثبت بالتواتر والإجماع فهو كافر بعد قيام الحجة ، وسواء سمي هذا المعنى استغاثة أو لم يسمه ؟

وأما من أقر بشفاعته وأنكر ما كان الصحابة يفعلونه من التوسل به والاستشفاع به ، كما رواه البخاري في صحيحه عن أنس أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ، وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون^(١) . وفي سنن أبي داود وغيره أن أعرابيا قال للنبي ﷺ : جهدت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلك المال ، فادع الله لنا ، فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك . فسبح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه وقال : « ويحك ، إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك »^(٢) ، وذكر تمام الحديث فأنكر قوله : نستشفع بالله عليك ، ولم ينكر قوله : نستشفع بك على الله ، بل أقره عليه ، فعلم جوازه . فمن أنكر هذا فهو ضال مخطئ مبتدع ، وفي تكفيره نزاع وتفصيل .

وأما من أقر بما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع من شفاعته والتوسل به ونحو ذلك ،

(١) ، (٢) سبق تخريجهما ص ٨٠ .

ولكن قال : لا يدعي إلا الله ، وأن الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله لا تطلب إلا منه ، مثل غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، وإنزال المطر ، وإنبات النبات ، ونحو ذلك - فهذا مصيب في ذلك ، بل هذا مما لا نزاع فيه بين المسلمين أيضاً ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ، وقال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦] وكما قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نَعِمْتَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ٣] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ، وقال : ﴿ إِلَّا نَصْرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] .

فالمعاني الثابتة بالكتاب والسنة يجب إثباتها ، والمعاني المنفية بالكتاب والسنة يجب نفيها ، والعبارة الدالة على المعاني نفياً وإثباتاً إن وجدت في كلام الله ورسوله وجب إقرارها ، وإن وجدت في كلام أحد وظهر مراده من ذلك رتب عليه حكمه ، وإلا رجع فيه إليه .

وقد يكون في كلام الله ورسوله عبارة لها معنى صحيح ، لكن بعض الناس يفهم من تلك غير مراد الله ورسوله ، فهذا يرد عليه فهمه . كما روى الطبراني في معجمه الكبير : أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذى المؤمنين ، فقال أبو بكر الصديق : قوموا بنا لنستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ : « إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله » (١) ، فهذا إنما أراد به النبي ﷺ المعنى الثاني ، وهو أن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله ، وإلا فالصحابة كانوا يطلبون منه الدعاء ويستسقون به ، كما في صحيح البخاري ، عن ابن عمر قال : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي ﷺ يستسقى ، فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل ! (٢)

وهو قول أبي طالب ، ولهذا قال العلماء المصنفون في أسماء الله تعالى : يجب على كل مكلف أن يعلم ألا غياث ولا مغيث على الإطلاق إلا الله ، وأن كل غوث فمن عنده ، وإن كان جعل ذلك على يدي غيره فالحقيقة له سبحانه وتعالى ولغيره مجاز .

قالوا : من أسمائه تعالى المغيث والغياث وجاء ذكر المغيث في حديث أبي هريرة ،

(١) سبق تخريجه ص ٧٨ .

(٢) البخاري في الاستسقاء (١٠٠٩) .

قالوا: واجتمعت الأمة على ذلك .

وقال أبو عبد الله الحليمي : الغياث هو المغيث، وأكثر ما يقال: غياث المستغيثين، ومعناه المدرك عباده في الشدائد إذا دعوه، ومجيئهم ومخلصهم، وفي خبر الاستسقاء في الصحيحين: «اللهم أغثنا، اللهم أغثنا»^(١) يقال: أغاثه إغاثة وغياثا وغوثا، وهذا الاسم في معنى المجيب والمستجيب، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، إلا أن الإغاثة أحق بالأفعال، والاستجابة أحق بالأقوال، وقد يقع كل منهما موقع الآخر

قالوا: الفرق بين المستغيث والداعي: أن المستغيث ينادي بالغوث، والداعي ينادي بالمدعو والمغيث. وهذا فيه نظر، فإن من صيغة الاستغاثة يالله للمسلمين، وقد روي عن معروف الكرخي أنه كان يكثر أن يقول: واغوثاه، ويقول: إني سمعت الله يقول: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾، وفي الدعاء المأثور: «يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك»^(٢).

والاستغاثة برحمته استغاثة به في الحقيقة، كما أن الاستعاذة بصفاته استعاذة به في الحقيقة، وكما أن القسم بصفاته قسم به في الحقيقة، ففي الحديث: «أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق»^(٣)، وفيه «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(٤).

١١٢/١

(١) البخاري في الاستسقاء (١٠١٤)، ومسلم في صلاة الاستسقاء (٨/٨٩٧) كلاهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) الهيثمي في المجمع ١٨٣/١٠ وقال: «رواه الطبراني في الصغير والأوسط من طريق سلمة بن حرب بن زياد عن أبي مدرك عن أنس، وقد ذكر الذهبي سلمة في الميزان فقال: مجهول كشيخه أبي مدرك وقد وثقه ابن حبان وذكر له هذا الحديث في ترجمته، وفي الميزان: أبو مدرك قال الدارقطني: متروك فلا أدري هو أبو مدرك هذا أو غيره، وبقية رجاله ثقات»، وانظر: ابن حبان في الثقات ٣٩٨/٦.

(٣) مسلم في الذكر والدعاء (٥٤/٢٧٠٨)، والترمذي في الدعوات (٣٤٣٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وابن ماجه في الطب (٣٥٤٧)، ومالك في الاستئذان ٩٨٧/٢ (٣٤)، وأحمد ٣٧٧/٦ كلهم عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها. وكذا مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٩)، وأبو داود في الطب (٣٨٩٩)، وابن ماجه في الطب (٣٥١٨)، ومالك في الشعر ٩٥١/٢ (١١)، وأحمد ٢٩٠/٢ كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) مسلم في الصلاة (٢٢/٤٨٦)، وأبو داود في الصلاة (٧٨٩)، والنسائي في التطبيق (١١٠٠)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤١) كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وكذا الترمذي في الدعوات (٣٤٩٣) وقال: «هذا حديث حسن»، وأبو داود في الصلاة (٨٧٩)، والنسائي في التطبيق (١١٣٠)، وأحمد ٥٨/٦، ٢٠١ كلهم عن عائشة رضي الله عنها.

ولهذا استدل الأئمة فيما استدلوا على أن كلام الله غير مخلوق بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامة» قالوا: والاستعاذة لا تصلح بالمخلوق.

وكذلك القَسَم، قد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت»^(١)، وفي لفظ «من حلف بغير الله فقد أشرك» رواه الترمذي وصححه^(٢). ثم قد ثبت في الصحيح: الحلف بـ «عزة الله»^(٣)، و «لعمركم بالله»^(٤)، ونحو ذلك مما اتفق المسلمون على أنه ليس من الحلف بغير الله الذي نهى عنه، والاستعاذة بمعنى أن يطلب من الرسول ما هو اللائق بمنصبه لا ينازع فيها مسلم، ومن نازع في هذا المعنى فهو إما كافر إن أنكر ما يكفر به، وإما مخطئ ضال.

وأما بالمعنى الذي نفاه رسول الله ﷺ: فهو أيضاً مما يجب نفيها، ومن أثبت لغير الله ما لا يكون إلا لله فهو أيضاً كافر إذا قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها.

ومن هذا الباب قول أبي يزيد البسطامي: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق، وقول الشيخ أبي عبد الله القرشي المشهور بالديار المصرية: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون.

وفي دعاء موسى -عليه السلام-: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(٥)، ولما كان هذا المعنى هو المفهوم منها عند الإطلاق وكان مختصاً بالله، صح إطلاق نفيه عما سواه؛ ولهذا لا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين أنه جَوَزَ مطلق الاستغاثة بغير الله، ولا أنكر ١١٣/١ على من نفى مطلق الاستغاثة عن غير الله.

وكذلك الاستغاثة أيضاً، فيها ما لا يصلح إلا لله، وهي المشار إليها بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة إلا الله. وقد

(١) البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٤٦)، ومسلم في الإيمان (١٦٤٦/٣)، كلاهما عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) الترمذي في النذور والإيمان (١٥٣٥) وقال: «هذا حديث حسن»، وأبو داود في الإيمان والنذور (٣٢٥١) كلاهما عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) البخاري في الإيمان والنذور معلقاً (٥٤٥/١١)، وفي التوحيد (٧٣٨٤) عن أنس.

(٤) البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٦٢) عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) الهيثمي في المجمع ١٨٦/١٠ وقال: «رواه الطبراني في الأوسط والصغير وفيه من لم أعرفهم». واللفظ مختلف.

يستعان بال مخلوق فيما يقدر عليه، وكذلك الاستنصار، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصِرُكُمْ فِي الدِّينِ فَقَلِيلٌ مِّنْكُمْ أَلَنْصُرُكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٢]، والنصر المطلق هو خلق ما به يغلب العدو ولا يقدر عليه إلا الله.

ومن خالف ما ثبت بالكتاب والسنة، فإنه يكون إما كافراً، وإما فاسقاً، وإما عاصياً، إلا أن يكون مؤمناً مجتهداً مخطئاً فيشأب على اجتهاذه، ويغفر له خطؤه، وكذلك إن كان لم يبلغه العلم الذي تقوم عليه به الحجة، فإن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وأما إذا قامت عليه الحجة الثابتة بالكتاب والسنة فخالفها: فإنه

يعاقب بحسب ذلك، إما بالقتل، وإما بدونه. والله أعلم./

وقال شيخ الإسلام :

فصل

سَمَّى اللَّهُ آلَهُتَهُمُ الَّتِي عَبَدُوهَا مِنْ دُونِهِ شُفَعَاءَ ، كَمَا سَمَّاها شُرَكَاءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ،
فَقَالَ فِي يُونُسَ : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا
عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِهُوا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَعَلَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] ، وقال : ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا
يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٣ ، ٤٤] ، ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ
يُؤْسِ الْمُجْرِمُونَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شَفَعُونَ﴾ [الروم: ١٢ ، ١٣] .

وجمع بين الشرك والشفاعة في قوله : ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكِ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا نَفْعَ
الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢ ، ٢٣] . فهذه الأربعة هي التي يمكن أن يكون لهم
بها تعلق ، الأول : ملك شيء ولو قل ، الثاني : شركهم في شيء من الملك . فلا ملك
١١٥/١ ولا شركة ولا معاونة يصير بها ندأ . فإذا انتفت الثلاثة بقيت الشفاعة فعلقها بالمشيئة /

وقال : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٦] ، وقال : ﴿قُلْ
أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّبِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] ، وقال
في اتخاذهم قربانا : ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] ، وقال : ﴿فَلَوْلَا
١١٦/١ نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾
[الأحقاف: ٢٨] .

وقال شيخ الإسلام - رحمه الله -:

فصل

في الشفاعة المنفية في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقوله: ﴿مَنْ قِيلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠]، [١٠١]، وقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُمْ يَقُولُ الَّذِينَ شَوْهَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وأمثال ذلك.

واحتج بكثير منه الخوارج والمعتزلة على منع الشفاعة لأهل الكبائر، إذ منعوا أن يشفع لمن يستحق العذاب، أو أن يخرج من النار من يدخلها، ولم ينفوا الشفاعة لأهل الثواب في زيادة الثواب.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة: إثبات الشفاعة لأهل الكبائر، والقول بأنه يخرج من النار مَنْ في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأيضاً، فالأحاديث المستفيضة عن النبي ﷺ في الشفاعة: فيها استشفاع أهل الموقف ليقضى بينهم، وفيهم المؤمن والكافر، وهذا فيه/ نوع شفاعة للكفار. وأيضاً، ففي ١١٧/١ الصحيح عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك. قال: «نعم هو في ضَحَضَاح^(١) من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»^(٢)، وعن عبد الله بن الحارث قال: سمعت العباس يقول: قلت: يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعه ذلك؟ قال: «نعم، وجدته في غمرات من نار فأخرجته إلى ضَحَضَاح»^(٣).

(١) الضَحَضَاح في الأصل: ما رق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين، فاستعاره للنار. انظر: النهاية في غريب الحديث ٧٥/٣.

(٢) البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٨٣) وفي الأدب (٦٢٠٨)، ومسلم في الإيمان (٣٥٧/٢٠٩)، وأحمد ٢٠٦/١، ٢٠٧، ٢١٠.

(٣) مسلم في الإيمان (٣٥٨/٢٠٩).

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبوطالب، فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار، يبلغ كعبه، يغلي منه دماغه»^(١).

فهذا نص صحيح صريح لشفاعته في بعض الكفار أن يخفف عنه العذاب، بل في أن يجعل أهون أهل النار عذاباً، كما في الصحيح أيضاً عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب وهو متعل بنعلين يغلي منهما دماغه»^(٢).

وعن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أذننى أهل النار عذاباً متعل بنعلين من نار، يغلي دماغه من حرارة نعليه»^(٣)، وعن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان، يغلي منهما دماغه»^(٤)، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه، كما يغلي الرجل»^(٥)، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً»^(٦).

وهذا السؤال الثاني يضعف جواب من تأول نفي الشفاعة على الشفاعة للكفار، وإن الظالمين هم الكافرون...^(٧).

فيقال: الشفاعة المنفية هي الشفاعة المعروفة عند الناس عند الإطلاق، وهي أن يشفع الشفيع إلى غيره ابتداء فيقبل شفاعته، فأما إذا أذن له في أن يشفع فشفع، لم يكن مستقلاً بالشفاعة، بل يكون مطيعاً له أي تابعاً له في الشفاعة، وتكون شفاعته مقبولة ويكون الأمر كله للأمر المسؤول.

وقد ثبت بنص القرآن في غير آية: أن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه. كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا

(١) البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٨٥) ومسلم في الإيمان (٣٦٠/٢١٠)، وأحمد ٩/٣، ٥٠.

(٢) مسلم في الإيمان (٣٦٢/٢١٢)، وأحمد ١/٢٩٥.

(٣) مسلم في الإيمان (٣٦١/٢١١)، وأحمد ٣/٢٧.

(٤) البخاري في الرقاق (٦٥٦١)، ومسلم في الإيمان (٣٦٣/٢١٣)، والترمذي في صفة جهنم (٢٦٠٤)

وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد ٤/٢٧١، ٢٧٤.

(٥) الرجل: الإناء الذي يُغلى فيه الماء. انظر: النهاية في غريب الحديث ٤/٣١٥.

(٦) مسلم في الإيمان (٣٦٤/٢١٣).

(٧) بياض بالأصل.

لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ ﴿سبأ: ٢٣﴾، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وأمثال ذلك. والذي يبين أن هذه الشفاعة المنفية. أنه قال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]، فأخبر أنه ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع.

وأما نفى الشفاعة بدون إذنه، فإن الشفاعة إذا كانت بإذنه لم تكن من دونه، كما أن الولاية التي بإذنه ليست من دونه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

وأيضاً، فقد قال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، فذم الذين اتخذوا من دون الله شفعاء وأخبر أن لله الشفاعة جميعاً، فعلم أن الشفاعة منتفية من غيره، إذ لا يشفع أحد إلا بإذنه، وتلك فهي له.

وقد قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبَهُتُ اللَّهُ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

ومما يوضح ذلك: أنه نفى يومئذ الخلة بقوله: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ومعلوم أنه إنما نفى الخلة المعروفة ونفعها المعروف، كما ينفع الصديق الصديق في الدنيا، كما قال: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٩]، وقال: ﴿لِيُنذِرَ^(١) يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥، ١٦]، لم ينف أن يكون في الآخرة خلة نافعة بإذنه، فإنه قد قال: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ يَنْعَبِدُونَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٧، ٦٨]،

(١) في المطبوعة: «لتنذر»، والصواب ما أثبتناه.

وقد قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِي»^(١) ويقول الله تعالى: «أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أَظْلَهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»^(٢).

فتعين أن الأمر كله عائد إلى تحقيق التوحيد ، وأنه لا يُنفع أحد ولا يضر إلا بإذن الله ، وأنه لا يجوز أن يُعبد أحد غير الله ، ولا يُستعان به من دون الله ، وأنه يوم القيامة يظهر لجميع الخلق أن الأمر كله لله ، ويتبرأ كل مدع من دعواه الباطلة ، فلا يبقى من يدعي لنفسه معه شركا في ربوبيته ، أو إلهيته ، ولا من يدعي ذلك لغيره . بخلاف الدنيا ، فإنه وإن لم يكن رب ولا إله إلا هو فقد اتخذ غيره ربا وإلهاً ، وادعي ذلك مدعون .

وفي الدنيا يشفع الشافع عند غيره ، وينتفع بشفاعته وإن لم يكن أذن له في الشفاعة ، ويكون خليله ، فيعينه ويفتدي نفسه من الشر ، فقد ينتفع بالنفوس والأموال في الدنيا ، النفوس ينتفع بها تارة بالاستقلال ، وتارة بالإعانة وهي الشفاعة ، والأموال بالفداء ، فنفى الله هذه الأقسام الثلاثة . قال تعالى: ﴿لَا يَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] ، وقال: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ، كما قال: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣] ، فهذا هذا والله أعلم .

وعاد ما نفاه الله من الشفاعة ، إلى تحقيق أصلي الإيمان ، وهي الإيمان بالله وباليوم الآخر ، التوحيد والمعاد ، كما قرن بينهما في مواضع كثيرة . كقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٨] ، وقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] ، وقوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفٍ وَحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨] ، وقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] . وأمثال ذلك .

(١) مالك في الشعر ٩٥٤/٢ (١٦) ، وأحمد ٢٢٩/٥ ، ٢٣٧ ، والحاكم في المستدرک ١٦٩/٤ وقال: «إسناده صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ، كلهم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .
(٢) مسلم في البر والصلة والآداب (٣٧/٢٥٦٦) ، والدارمي في الرقاق ٣١٢/٢ ، و مالك في الشعر ٩٥٢ / ٢ (١٣) ، وأحمد ٣٣٨/٢ كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

سئل شيخ الإسلام - قدس الله روحه - عن رجلين تناظرا ، فقال أحدهما : لا بد لنا من واسطة بيننا وبين الله ، فإننا لا نقدر أن نصل إليه بغير ذلك . فأجاب :

الحمد لله رب العالمين . إن أراد بذلك أنه لا بد من واسطة تبلغنا أمر الله ، فهذا حق . فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه ، وما أمر به وما نهى عنه ، وما أعد له لأوليائه من كرامته ، وما وعد به أعداءه من عذابه ، ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنی ، وصفاته العليا ، التي تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك إلا بالرسول ، الذين أرسلهم الله إلى عباده .

فالْمُؤْمِنُونَ بالرسول المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زُلْفَى ، ويرفع درجاتهم ، ويكرمهم في الدنيا والآخرة . وأما المخالفون للرسول ، فإنهم ملعونون ، وهم عن ربهم

ضالون محجوبون ، قال تعالى : ﴿ يَبْقَىٰ مَادَمَٰ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُم رُّسُلٌ مِّنْكُمْ يَفْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَاصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٥ ، ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ۚ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَىٰكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْشَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦] ، قال ابن عباس : تكفل

الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة .

وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ كَلَّمَآ أَلْفَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك: ٨ ، ٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ هَٰذَا جَاءَهَا ۖ فَخَسَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَن ءَامَنَ وَاصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَسْتَهْزِئُ بِالْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٨ ، ٤٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ

وَالَّتَيْنِ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِزْهِيماً وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ وَنُوحًا وَرُوحَنَا دَاوُدَ زُورًا. وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا. رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴿النساء: ١٦٣ - ١٦٥﴾. ومثل هذا في القرآن كثير.

وهذا مما أجمع عليه جميع أهل الملل من المسلمين ، واليهود ، والنصارى ، فإنهم يثبتون الوسائط بين الله وبين عباده ، وهم الرسل الذين بلغوا عن الله / أمره وخبره . قال تعالى : ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنْكَ الْكَاتِبَةَ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ﴾ [الحج : ٧٥] ، ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر بإجماع أهل الملل .

والسور التي أنزلها الله بمكة : مثل : الأنعام ، والأعراف ، وذوات : ﴿الر﴾ و﴿حم﴾ و﴿طس﴾ ونحو ذلك ، هي متضمنة لأصول الدين ، كالإيمان بالله ورسله واليوم الآخر .

وقد قص الله قصص الكفار الذين كذبوا الرسل ، وكيف أهلكهم ، ونصر رسله ، والذين آمنوا ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٣] ، وقال : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر : ٥١] .

فهذه الوسائط تُطاع وتُتبع ويقتدي بها . كما قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يُطِيعُ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء : ٦٤] ، وقال تعالى : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] ، وقال : ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وقال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وإن أراد بالواسطة : أنه لا بد من واسطة في جلب المنافع ، ودفع المضار ، مثل : أن يكون واسطة في رزق العباد ، ونصرهم ، وهداهم ، يسألونه ذلك ، ويرجون إليه فيه ، فهذا من أعظم الشرك ، الذي كفر الله به المشركين ، حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء ، يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار .

لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها، حتى قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا. أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٢، ٢٣].

وقالت طائفة من السلف: كان أقوام يدعون المسيح، والعزير، والملائكة: فبين الله لهم أن الملائكة والأنبياء لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلاً، وأنهم يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلشِّرْكِ أَنْ يُوَفِّيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمِينَ إِمَّا كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ وَإِمَّا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ. وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْكُفَّةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠]، فبين سبحانه: أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر.

فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنب، وهداية القلوب، وتفريج الكرب، وسد الفاقات، فهو كافر بإجماع المسلمين.

وقد قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ. وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمُ إِلَٰهُهُ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُ الْأَرْضُ وَنَحْنُ لِلْإِنْسَانِ هَدَا. أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَقْبُذُوا

مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿يونس: ١٨﴾،

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضُ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَإِنْ يَسْأَلَنَّ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِيدَ يَخْصِرْ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ رَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، ومثل هذا كثير في

١٢٦/١ القرآن . ومن سوى الأنبياء - من مشايخ العلم والدين - فمن أثبتهم وسائط بين الرسول وأمتهم، يبلغونهم، ويعلمونهم، ويؤدبونهم، ويقتدون بهم، فقد أصاب في ذلك. وهؤلاء إذا أجمعوا فإجماعهم حجة قاطعة، لا يجتمعون على ضلالة، وإن تنازعوا في شيء رده إلى الله والرسول، إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق، بل كل أحد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ، وقد قال النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر»^(١).

وإن أثبتهم وسائط بين الله وبين خلقه - كالحجاب الذين بين الملك وورعته - بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه، فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم، فالخلق يسألونهم، وهم يسألون الله، كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس، لقريرهم منهم، والناس يسألونهم، أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك، أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك؛ لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج. فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه، فهو كافر مشرك، يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل. وهؤلاء مشبهون لله، شبهوا المخلوق بالخالق، وجعلوا لله أندادا. وفي القرآن من الرد على هؤلاء، ما لم تتسع له هذه الفتوى.

فإن الوسائط التي بين الملوك وبين الناس، يكونون على أحد وجوه ثلاثة:

(١) البخاري في العلم معلقاً (الفتح ١/ ١٦٠)، وأبو داود في العلم (٣٦٤١)، والترمذي في العلم (٢٦٨٢) وقال: «ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندي بمتصل...» وابن ماجه في المقدمة (٢٢٣)، وأحمد ١٩٦/٥، كلهم عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

ومن قال: إن الله لا يعلم أحوال عبادته حتى يخبره بتلك بعض الملائكة أو الأنبياء أو غيرهم فهو كافر، بل هو - سبحانه - يعلم السر وأخفى، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلظه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين.

الوجه الثاني: أن يكون الملك عاجزاً عن تدبير رعيته، ودفع أعدائه - إلا بأعوان يعينونه - فلا بد له من أنصار وأعوان، لذلك وعجزه. والله - سبحانه - ليس له ظهير، ولا ولي من الدن، قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكُوتِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

وكل ما في الوجود من الأسباب فهو خالقه، وربّه ومليكه، فهو الغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، بخلاف الملوك المحتاجين إلى ظهرائهم وهم - في الحقيقة - شركاؤهم في الملك.

والله - تعالى - ليس له شريك في الملك، بل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

والوجه الثالث: أن يكون الملك ليس مريداً لنفع رعيته، والإحسان إليهم ورحمتهم إلا بمحرك يحركه من خارج. فإذا خاطب الملك من ينصحه، ويعظمه، أو من يدل عليه، بحيث يكون يرجوه ويخافه، تحركت إرادة الملك/وهمته، في قضاء حوائج رعيته، ١٢٨/١ إما لما حصل في قلبه من كلام الناصح الواعظ المشير، وإما لما يحصل من الرغبة أو الرهبة من كلام المدل عليه.

والله - تعالى - هو رب كل شيء ومليكه، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وكل الأشياء إنما تكون بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو إذا أجرى نفع العباد بعضهم على بعض، فجعل هذا يحسن إلى هذا ويدعو له ويشفع فيه ونحو ذلك، فهو الذي خلق ذلك كله، وهو الذي خلق في قلب هذا المحسن الداعي الشافع إرادة الإحسان والدعاء والشفاعة، ولا يجوز أن يكون في الوجود من يكرهه على خلاف مراده، أو يعلمه ما لم يكن يعلم، أو من يرجوه الرب ويخافه.

ولهذا قال النبي ﷺ: « لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ولكن ليغزم المسألة ، فإنه لا مكره له»^(١). والشفعاء الذين يشفعون عنده لا يشفعون إلا بإذنه، كما قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٢، ٢٣].

فَبَيَّنَ أَنَّ كُلَّ مَنْ دَعَى مِنْ دُونِهِ لَيْسَ لَهُ مَلِكٌ وَلَا شَرِكٌ فِي الْمَلِكِ، وَلَا هُوَ ظَهِيرٌ، وَأَنَّ شَفَاعَتَهُمْ لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ .

وهذا بخلاف الملوك ، فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك، وقد يكون شريكاً لهم في الملك ، وقد يكون مظاهراً لهم معاوناً لهم على ملكهم، وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك هم وغيرهم ، والملك يقبل شفاعتهم ، تارة بحاجته إليهم، وتارة لخوفه منهم، وتارة لجزاء إحسانهم إليه ومكافأتهم ولإنعامهم عليه، حتى إنه يقبل شفاعته ولده وزوجته لذلك ، فإنه محتاج إلى الزوجة وإلى الولد، حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لتضرر بذلك، ويقبل شفاعته مملوكه، فإذا لم يقبل شفاعته ، يخاف أن لا يطيعه، أو أن يسعى في ضرره، وشفاعة العباد بعضهم عند بعض ، كلها من هذا الجنس ، فلا يقبل أحد شفاعته أحد إلا لرغبة أو رهبة .

والله - تعالى - لا يرجو أحداً ، ولا يخافه ، ولا يحتاج إلى أحد بل هو الغني، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْتَعِجِ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِجِبُوا إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٦ - ٦٨].

والمشركون يتخذون شفعاء من جنس ما يعهدونه من الشفاعاة، قال تعالى: ﴿وَيَقْبِذُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلِ اتَّبِعُوا اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

(١) البخاري في التوحيد (٧٤٧٧) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٨/٢٦٧٩) ، وأبو داود في الصلاة (١٤٨٣) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٩٧) وقال: « هذا حديث حسن صحيح » ، ومالك في القرآن ٢١٣/١ (٢٨) كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وأخبر عن المشركين أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْكُفَّةِ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]. فأخبر

أن ما يدعى من دونه لا يملك كشف ضر ولا تحويلة، وأنهم يرجون رحمته، ويخافون عذابه، ويتقربون إليه فهو - سبحانه - قد نفى ما من الملائكة والأنبياء، إلا من الشفاعة بإذنه، والشفاعة هي الدعاء.

ولا ريب أن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع، والله قد أمر بذلك، لكن الداعي الشافع ليس له أن يدعو ويشفع إلا بإذن الله له في ذلك، فلا يشفع شفاعة نهى عنها، كالشفاعة للمشركين والدعاء لهم بالمغفرة، قال تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْحَجِيرِ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ لِإِثْمِهِمْ لِأَيْسِهِ إِلَّا عَنِ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤]، وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦].

وقد ثبت في الصحيح: أن الله نهى نبيه عن الاستغفار للمشركين والمنافقين، وأخبر أنه لا يغفر لهم^(١)، كما في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤]، وقد قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] - في الدعاء - ومن الاعتداء في الدعاء: أن

يسأل العبد ما لم يكن الرب ليفعله، مثل: أن يسأله منازل الأنبياء وليس منهم، أو المغفرة للمشركين، ونحو ذلك. أو يسأله ما فيه معصية الله، كإعانتة على الكفر والفسوق والعصيان.

فالشفيع الذي أذن الله له في الشفاعة، شفاعته في الدعاء الذي ليس فيه عدوان.

ولو سأل أحدهم دعاء لا يصلح له لا يقر عليه فإنهم معصومون أن يقرؤا على ذلك. كما قال نوح: ﴿إِنَّ أَيْتِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، قال

(١) البخاري في التفسير (٤٦٧٠، ٤٦٧١).

تعالى: ﴿يَنْتَوِجُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَلَوْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّهُ يَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتِلَّكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [هود: ٤٦، ٤٧].

وكل داع شافع دعا الله - سبحانه وتعالى - وشفع : فلا يكون دعاؤه وشفاعته إلا بقضاء الله وقدره ومشيتته ، وهو الذي يجيب الدعاء ويقبل الشفاعة ، فهو الذي خلق السبب والمسبب ، والدعاء من جملة الأسباب التي قدرها الله - سبحانه وتعالى .

وإذا كان كذلك : فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ، بل العبد يجب أن يكون توكُّله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله - سبحانه وتعالى - والله يقدر له من الأسباب - من دعاء الخلق وغيرهم - ما شاء .

والدعاء مشروع ، أن يدعو الأعلى للأدنى ، والأدنى للأعلى فطلب الشفاعة والدعاء من الأنبياء كما كان المسلمون يستشفعون بالنبي ﷺ في الاستسقاء ، ويطلبون منه الدعاء ، بل وكذلك بعده استسقى عمر والمسلمون بالعباس عمه ، والناس يطلبون الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء ، ومحمد ﷺ وهو سيد الشفعاء ، وله شفاعات يختص بها ومع هذا فقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلُّوا عليّ ، فإنه من صلى عليّ مرة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلُّوا الله لي الوسيلة ، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون ذلك العبد ! فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة »^(١). وقد قال ﷺ لعمر - لما أراد أن يعتمر وودعه - : « يا أخي لا تنسني من دعائك »^(٢).

فالنبي ﷺ قد طلب من أمته أن يدعوا له ، ولكن ليس ذلك من باب سؤالهم ، بل أمره بذلك لهم كأمره لهم بسائر الطاعات التي يثابون عليها ، مع أنه ﷺ له مثل أجورهم في كل ما يعملونه ، فإنه قد صح عنه أنه قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من

(١) مسلم في الصلاة (١١/٣٨٤)، وأبو داود في الصلاة (٥٢٣)، والترمذي في المناقب (٣٦١٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، والنسائي في الأذان (٦٧٨)، وأحمد ١٦٨/٢ كلهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه .

(٢) أبو داود في الصلاة (١٤٩٨)، والترمذي في الدعوات (٣٥٦٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه في المناسك (٢٨٩٤)، كلهم عن عمر رضي الله عنه .

الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً^(١) ، وهو داعي الأمة إلى كل هدى ، فله مثل أجورهم في كل ما اتبعوه فيه .

وكذلك إذا صلُّوا عليه ، فإن الله يصلي على أحدهم عشراً ، وله مثل أجورهم مع ما يستجيبه من دعائهم له ، فذلك الدعاء قد أعطاهم الله أجرهم عليه ، وصار ما حصل له به من النفع نعمة من الله عليه ، وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكاً ، كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك مثل ذلك »^(٢) ، وفي حديث آخر : « أسرع الدعاء دعوة غائب لغائب »^(٣) . ١٣٣/١

فالدعاء للغير ينتفع به الداعي ، والمدعو له وإن كان الداعي دون المدعو له ، فدعاء المؤمن لأخيه ينتفع به الداعي والمدعو له . فمن قال لغيره : ادع لي وقصد انتفاعهما جميعاً بذلك كان هو وأخوه متعاونين على البر والتقوى ، فهو به المسؤول وأشار عليه بما ينفعهما ، والمسؤول فعل ما ينفعهما ، بمنزلة من يأمر غيره ببر وتقوى ، فيثاب المأمور على فعله ، والأمر أيضاً يثاب مثل ثوابه ؛ لكونه دعا إليه ، لا سيما ومن الأدعية ما يؤمر بها العبد ، كما قال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد : ١٩] ، فأمره بالاستغفار ثم قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٦٤] .

فذكر - سبحانه - استغفارهم ، واستغفار الرسول لهم إذ ذاك مما أمر به الرسول ، حيث أمره أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، ولم يأمر الله مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً شيئاً لم يأمر الله المخلوق به ، بل ما أمر الله العبد أمر إيجاب أو استحباب ففعله هو عبادة لله ، وطاعة وقربة إلى الله ، وصلاح لفاعله وحسنة فيه ، وإذا فعل ذلك كان أعظم لإحسان الله إليه ، وإنعامه عليه ، بل أجل نعمة أنعم الله بها على عباده أن هداهم للإيمان .

والإيمان قول وعمل ، يزيد بالطاعة والحسنات ، وكلما ازداد العبد عملاً للخير ، ازداد إيمانه . هذا هو الإنعام الحقيقي المذكور في قوله : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة : ٧] ، وفي قوله : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء :

(١) مسلم في العلم (٢٦٧٤/١٦) ، وأبو داود في السنة (٤٦٠٩) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٤) وقال : « هذا

حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٦) ، كلهم عن أبي هريرة .

(٢) مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٢/٨٧) ، وأبو داود في الصلاة (١٥٣٤) كلاهما عن أبي الدرداء رضي الله عنه . وذكره الإمام ابن تيمية بمعناه .

(٣) أبو داود في الصلاة (١٥٣٥) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٨٠) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » ، كلاهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه .

[٦٩]، بل نعم الدنيا بدون الدين هل هي من نعمه أم لا؟ فيه قولان مشهوران للعلماء من ١٣٤/١ أصحابنا وغيرهم. /

والتحقيق : أنها نعمة من وجه وإن لم تكن نعمة تامة من وجه، وأما الإنعام بالدين الذي ينبغي طلبه فهو ما أمر الله به من واجب ومستحب ، فهو الخير الذي ينبغي طلبه باتفاق المسلمين ، وهو النعمة الحقيقية عند أهل السنة، إذ عندهم أن الله هو الذي أنعم بفعل الخير . والقدرة عندهم إنما أنعم بالقدرة عليه، الصالحة للضدين فقط .

والمقصود هنا : أن الله لم يأمر مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً إلا ما كان مصلحة لذلك المخلوق ، إما واجب أو مستحب، فإنه سبحانه لا يطلب من العبد إلا ذلك، فكيف يأمر غيره أن يطلب منه غير ذلك؟ بل قد حرم على العبد أن يسأل العبد ماله إلا عند الضرورة .

وإن كان قصده مصلحة المأمور أو مصلحته ومصلحة المأمور ، فهذا يثاب على ذلك، وإن كان قصده حصول مطلوبه من غير قصد منه لانتفاع المأمور، فهذا من نفسه أتى، ومثل هذا السؤال لا يأمر الله به قط ، بل قد نهى عنه، إذ هذا سؤال محض للمخلوق من غير قصده لنتفعه ولا لمصلحته، والله يأمرنا أن نعبده ونرغب إليه، ويأمرنا أن نحسن إلى عباده ، وهذا لم يقصد لا هذا ولا هذا ، فلم يقصد الرغبة إلى الله ودعائه، وهو الصلاة ، ولا قصد الإحسان إلى المخلوق الذي هو الزكاة ، وإن كان العبد قد لا يأثم بمثل هذا السؤال، لكن فرق ما بين ما يؤمر به العبد وما يؤذن له فيه، ألا ترى أنه قال في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب : إنهم «لا يسترقون»^(١) . وإن كان الاسترقاء جائزاً . وهذا قد بسطناه في غير هذا الموضع .

١٣٥/١ والمقصود هنا : أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه، كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية، فهو مشرك ، بل هذا دين المشركين عبّاد الأوثان كانوا يقولون : إنها تماثيل الأنبياء والصالحين ، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله ، وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصاري حيث قال : ﴿أَتَخَذُوا آبَاءَهُمْ وَرُفَعَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلِقَائِهِمْ يَوْمَ يُرْسَدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، أي فليستجيبوا لي إذا دعوتهم بالأمر والنهي، وليؤمنوا بي أن أجيب دعاءهم لي بالمسألة والتضرع .

وقال تعالى : ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧ ، ٨]، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا

(١) البخاري في الطب (٥٧٠٥)، (٥٧٥٢) ومسلم في الإيمان (٣٧١/٢١٨)، (٣٧٢) كلاهما عن عمران بن حصين.

مَسَّكُمْ الْفَرْ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا ﴿[الإسراء: ٦٧]﴾، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وقد بين الله هذا التوحيد في كتابه ، وحسم مواد الإشراك به حتى لا يخاف أحد غير الله، ولا يرجو سواه، ولا يتوكل إلا عليه، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا الْكَاسَ وَآخِشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِمَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي يخوفكم أوليائه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ يَتَقَه فَالْأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

فبين أن الطاعة لله ورسوله، وأما الخشية فلله وحده.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩]، ونظيره قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقد كان النبي ﷺ يحقق هذا التوحيد لأئمة، ويحسم عنهم مواد الشرك؛ إذ هذا تحقيق قولنا لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي تألوه القلوب؛ لكمال المحبة والتعظيم، والإجلال والإكرام، والرجاء والخوف، حتى قال لهم: « لا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد»^(١)، وقال له رجل: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلتني لله ندًا؟ بل ما شاء الله وحده»^(٢)، وقال: « من كان حالفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمِتْ »^(٣)، وقال: « من حلف بغير الله فقد أشرك »^(٤)، وقال لابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، جفَّ القلم بما أنت لاق، فلو جهدت الخليفة على أن تفعلك لم تفعلك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو جهدت أن تضرك

(١) ابن ماجه في الكفارات (٢١١٨)، والدارمي في الاستئذان ٢/٢٩٥، وأحمد ٥/٧٢.

(٢) سبق تخريجه ص ٥١

(٣ ، ٤) سبق تخريجهما ص ٦٣ .

لم تضرِكَ إلا بشيء كتبه الله عليك»^(١) ! وقال أيضاً : « لا تُطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، وإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله »^(٢) ، وقال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد »^(٣) ، وقال : « لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم »^(٤) ، وقال في مرضه : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور/ أنبيائهم مساجد »^(٥) ، يحذر ما صنعوا ، قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً . وهذا باب واسع .

ومع علم المؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه ، فإنه لا ينكر ما خلقه الله من الأسباب ، كما جعل المطر سبباً لإنبات النبات ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْزَلَهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَرَكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَاكِ ﴾ [البقرة: ١٦٤] ، وكما جعل الشمس القمر سبباً لما يخلقه بهما ، وكما جعل الشفاعة والدعاء سبباً لما يقضيه بذلك ، مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت ، فإن ذلك من الأسباب التي يرحمه الله بها ، ويثيب عليها المصلين عليه ، لكن ينبغي أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور :

أحدها : أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب ، بل لا بد معه من أسباب أخرى ، ومع هذا فلها موانع . فإذا لم يكمل الله الأسباب ، ويدفع الموانع ، لم يحصل المقصود ، وهو - سبحانه - ما شاء كان - وإن لم يشأ الناس - وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله .

الثاني : أن لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم ، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو يخالف الشرع ، كان مبطلاً ، مثل من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعمة . وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ : أنه نهى عن النذر وقال : « إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل »^(٦) .

الثالث : أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سبباً إلا أن تكون مشروعة ، فإن العبادات مبناه على التوقيف ، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله ، فيدعو غيره - وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه - وكذلك لا يُعبد الله بالبدع المخالفة للشرعية - وإن ظن ذلك - فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك ، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان ، فلا يحل له ذلك ، إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به ، إذ الرسول ﷺ بعث بتحصيل

(١) سبق تخريجه ص ٥٦ . (٢) (٣ ، ٢) سبق تخريجهما ص ٥١ .

(٤) أبو داود في المناسك (٢٠٤٢) ، وأحمد ٣٦٧/٢ ، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) البخاري في الجنائز (١٣٣٠) ومسلم في المساجد (١٩/٥٢٩) .

(٦) البخاري في القدر (٦٦٠٨) ومسلم في النذر (٤/١٦٣٩) .

المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما أمر الله به فمصلحته راجحة ، وما
نهى عنه فمفسدته راجحة، وهذه الجمل لها بسط لا تحتمله هذه الورقة ، والله أعلم./ ١٣٩/١

وسئل - رحمه الله - :

قال السائل : إن الله يسمع الدعاء بواسطة محمد ﷺ فإنه الوسيلة والواسطة .

فأجاب :

الحمد لله ، إن أراد بذلك أن الإيمان بمحمد ، وطاعته ، والصلاة والسلام عليه وسيلة للعباد في قبول دعائه وثواب دعائه فهو صادق ، وإن أراد أن الله لا يجيب دعاء أحد حتى يرفعه إلى مخلوق ، أو يقسم عليه به ، أو أن نفس الأنبياء بدون الإيمان بهم وطاعتهم ١٤٠/١ وبدون شفاعتهم وسيلة في إجابة الدعاء ، فقد كذب في ذلك . والله أعلم . /

وسئل شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - :

هل يجوز التوسل بالنبي ﷺ أم لا ؟

فأجاب :

الحمد لله ، أما التوسل بالإيمان به ، ومحبته وطاعته ، والصلاة والسلام عليه ، وبدعائه وشفاعته ونحو ذلك ، مما هو من أفعاله ، وأفعال العباد المأمور بها في حقه ، فهو مشروع باتفاق المسلمين ، وكان الصحابة - رضى الله عنهم - يتوسلون به في حياته ، وتوسلوا بعد موته بالعباس عمه ، كما كانوا يتوسلون به .

وأما قول القائل : اللهم إني أتوسل إليك به . فللعلماء فيه قولان ، كما لهم في الحلف به قولان . وجمهور الأئمة - كمالك والشافعي وأبي حنيفة - على أنه لا يسوغ الحلف بغيره من الأنبياء والملائكة . ولا تنعقد اليمين بذلك باتفاق العلماء ، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد ، والرواية الأخرى تنعقد اليمين به خاصة دون غيره ؛ ولذلك قال أحمد في منسكه الذي كتبه للمروزي ^(١) صاحبه : إنه يتوسل بالنبي ﷺ في دعائه ، ولكن غير أحمد قال : إن هذا إقسام على الله به ، ولا يقسم على الله بمخلوق ، وأحمد في إحدى الروايتين قد جوز القسم به ، فلذلك جوز التوسل به .

ولكن الرواية الأخرى عنه - هي قول جمهور العلماء - أنه لا يقسم به ، / فلا يقسم ١٤١/١ على الله به كسائر الملائكة والأنبياء ، فإننا لا نعلم أحداً من السلف والأئمة قال : إنه يقسم به على الله كما لم يقولوا : إنه يقسم بهم مطلقاً ؛ ولهذا أفتى أبو محمد بن عبد السلام : أنه لا يقسم على الله بأحد من الملائكة والأنبياء وغيرهم ، لكن ذكر له أنه روى عن النبي ﷺ حديث في الإقسام به فقال : إن صح الحديث كان خاصاً به ، والحديث المذكور لا يدل على الإقسام به ، وقد قال النبي ﷺ : « من كان حالفاً فليحلف بالله وإلا فليصمت » ^(٢) ، وقال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » ^(٣) ، والدعاء عبادة ، والعبادة مبناها على التوقيف والاتباع ، لا على الهوى والابتداع . والله أعلم . / ١٤٢/١

(١) أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المروزي ، صاحب الإمام أحمد ، حدث عن أحمد بن حنبل ولازمه وعن هارون بن معروف ومحمد بن منهل وروى عنه أبو بكر الخلال وعبد الله الحرقى ، ولد في حدود المائتين ، وتوفي سنة خمس وسبعين ومائتين . [سير أعلام النبلاء ١٣/١٧٣-١٧٥] .

(٢ ، ٣) سبق تخريجهما ص ٦٣ .

وقال شيخ الإسلام - قدس الله روحه :-

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً ، أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله يأذنه وسراجاً منيراً ، فَهَدَىٰ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ ، وَبَصَّرَ بِهِ مِنَ الْعَمَى ، وَأَرشَدَ بِهِ مِنَ الْغَيِّ ، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَأَذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَعَبَدَ رَبَّهُ حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

ففرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغي ، وطريق أهل الجنة وطريق أهل النار ، وبين أوليائه وأعدائه . فالخلال ما حلله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله .

وقد أرسله الله إلى الثقلين الجن والإنس ، فعلى كل أحد أن يؤمن به وبما جاء به ويتبعه في باطنه وظاهره . والإيمان به ومتابعته هو سبيل الله ، وهو دين الله ، وهو عبادة الله ، وهو طاعة الله ، وهو طريق أولياء الله ، وهو الوسيلة التي أمر الله بها عباده في قوله تعالى : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة : ٣٥] . فابتغاء الوسيلة إلى الله إنما يكون لمن توسل إلى الله بالإيمان بمحمد وأتباعه .

وهذا التوسل بالإيمان به وطاعته فرض على كل أحد ، باطناً وظاهراً ، في حياة رسول الله وبعد موته ، في مشهده ومغيبه ، لا يسقط التوسل بالإيمان به وبطاعته عن أحد من الخلق في حال من الأحوال بعد قيام الحجة عليه ، ولا بعذر من الأعذار . ولا طريق إلى كرامة الله ورحمته والنجاة من هوانه وعذابه إلا التوسل بالإيمان به وبطاعته .

وهو صلى الله عليه وسلم شفيع الخلائق صاحب المقام المحمود الذي يغطه به الأولون والآخرون ، فهو أعظم الشفعاء قدراً وأعلاهم جاهاً عند الله ، وقد قال تعالى عن موسى : ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب : ٦٩] ، وقال عن المسيح : ﴿وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران : ٤٥] . ومحمد ﷺ أعظم جاهاً من جميع الأنبياء والمرسلين ، لكن شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع به من شفع له الرسول ودعا له ، فمن دعا له الرسول وشفع له

توسل إلى الله بشفاعته ودعائه، كما كان أصحابه يتوسلون إلى الله بدعائه وشفاعته، وكما يتوسل الناس يوم القيامة إلى الله - تبارك وتعالى - بدعائه وشفاعته، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

ولفظ التوسل في عرف الصحابة كانوا يستعملونه في هذا المعنى. والتوسل بدعائه وشفاعته ينفع مع الإيمان به، وأما بدون الإيمان به فالكفار والمنافقون لا تغني عنهم شفاعته الشافعين في الآخرة./

١٤٤/١

ولهذا نهى عن الاستغفار لعنه وأبيه وغيرهما من الكفار، ونهى عن الاستغفار للمنافقين وقيل له: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]، ولكن الكفار يتفاضلون في الكفر كما يتفاضل أهل الإيمان في الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا لِلَّيِّئُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧].

فإذا كان في الكفار من خَفَّ كفره بسبب نصرته ومعونته، فإنه تنفعه شفاعته في تخفيف العذاب عنه لا في إسقاط العذاب بالكلية، كما في صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: قلت: يا رسول الله، فهل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «نعم هو في ضَحْضَاحٍ»^(١) من نار، ولولا أنا لكان في الدَّرَكِ الأسفل من النار»^(٢)، وفي لفظ: «إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك فهل نفعه ذلك، قال: «نعم، وجدته في غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح»^(٣)، وفيه عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كَعْبِيَّه يغلي منهما دماغه»^(٤)، وقال: «إن أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو متعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه»^(٥).

وكذلك ينفع دعاؤه لهم بالألّا يُعَجَّلَ عليهم العذاب في الدنيا كما كان ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(٦). وروي أنه دعا بذلك أن اغفر لهم فلا تعجل عليهم العذاب في الدنيا؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظُهُرِهِمْ دَابَنٌ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

١٤٥/١

وأيضاً، فقد يدعو لبعض الكفار بأن يهديه الله أو يرزقه فيهديه أو يرزقه، كما دعا

(١) تقدم معناها.

(٢، ٣) سبق تخريجهما ص ٨٩. (٤، ٥) سبق تخريجهما ص ٩٠.

(٦) البخاري في الأنبياء (٣٤٧٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٢/١٠٥)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٥)، وأحمد ١/ ٣٨٠، ٤٢٧، كلهم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

لأم أبي هريرة حتى هداها الله^(١)، وكما دعا لدوس فقال: «اللهم اهد دوساً وائت بهم»^(٢)، فهداهم الله، وكما روى أبو داود أنه استسقى لبعض المشركين لما طلبوا منه أن يستسقى لهم، فاستسقى لهم^(٣)، وكان ذلك إحساناً منه إليهم يتألف به قلوبهم كما كان يتألفهم بغير ذلك.

وقد اتفق المسلمون على أنه ﷺ أعظم الخلق جاهاً عند الله، لا جاء لمخلوق عند الله أعظم من جاهه، ولا شفاعاة أعظم من شفاعته، لكن دعاء الأنبياء وشفاعتهم ليس بمنزلة الإيمان بهم وطاعتهم، فإن الإيمان بهم وطاعتهم يوجب سعادة الآخرة والنجاة من العذاب مطلقاً وعاماً، فكل من مات مؤمناً بالله ورسوله مطيعاً لله ورسوله كان من أهل السعادة قطعاً، ومن مات كافراً بما جاء به الرسول كان من أهل النار قطعاً.

وأما الشفاعاة والدعاء فانستفاد العباد به موقوف على شروط وله موانع، فالشفاعة للكفار بالنجاة من النار والاستغفار لهم مع موتهم على الكفر لا تنفعهم - ولو كان الشفيع أعظم الشفعاء جاهاً - فلا شفع أعظم من محمد ﷺ ثم الخليل إبراهيم، وقد دعا الخليل إبراهيم لأبيه واستغفر له، كما قال تعالى عنه: ﴿رَبِّنَا أَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقد كان ﷺ أراد أن يستغفر لأبي طالب اقتداءً بإبراهيم وأراد بعض المسلمين أن يستغفر لبعض أقاربه فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ١٤٦/١ [التوبة: ١١٣].

ثم ذكر الله عذر إبراهيم فقال: ﴿وَمَا كَانِ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ وَمَا كَانِ اللَّهُ يُلْقِي قَوْلًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٤، ١١٥]، وثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يَلْقَىٰ إِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ أَرْبَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَعَلَىٰ وَجْهِهِ آزِرٌ قَتَرَهُ وَغَبْرَةٌ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب، أنت وعدتني ألا تُخزني يوم يُعْتَوْن، وأي خِزْيٍ أَخْزَىٰ من أبي الأبعد؟ فيقول الله عز وجل: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: انظر

(١) مسلم في فضائل الصحابة (١٥٨/٢٤٩١)، وأحمد ٣٢٠/٢ كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري في الدعوات (٦٣٩٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (١٩٧/٢٥٢٤)، وأحمد ٢٤٣/٢ كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أبو داود في الصلاة (١١٧٣) عن عائشة.

ما تحت رجلك ، فينظر فإذا هو بذيخ مُتَلَطِّخٌ ^(١) ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار ^(٢) ، فهذا لما مات مشركا لم ينفعه استغفار إبراهيم مع عظم جاهه وقدره ، وقد قال تعالى للمؤمنين : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ۚ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۚ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ [الممتحنة : ٤ ، ٥] . فقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يتأسوا بإبراهيم ومن اتبعه ، إلا في قول إبراهيم لأبيه : ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ۖ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ .

وكذلك سيد الشفعاء محمد ﷺ ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ؛ أن النبي ﷺ قال : « استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي » ^(٣) . وفي رواية : أن النبي ﷺ / أزار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال : « استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور ، فإنها تذكركم الموت » ^(٤) . وثبت عن أنس في الصحيح أن رجلا قال : يا رسول الله ، أين أبي؟ قال : « في النار » ، فلما قفى دعاه فقال : « إن أبي وأباك في النار » ^(٥) . وثبت أيضاً في الصحيح عن أبي هريرة : لما أنزلت هذه الآية ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعمَّ وخَصَّ فقال : « يا بني كعب ابن لؤي ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة ، أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سألها ببلالها ^(٦) » ^(٧) ، وفي رواية عنه : « يا

(١) الذَّيْخُ : ذكر الضَّبَاع ، وأراد بالتلطخ : التلطيخ برجيعة أو بالطين . انظر : النهاية في غريب الحديث ١٧٤ / ٢ .

(٢) البخاري في الأنبياء (٣٣٥٠) .

(٣) مسلم في الجنائز (١٠٥ / ٩٧٦) .

(٤) مسلم في الجنائز (١٠٥ / ٩٧٦ مكرر) ، وأبو داود في الجنائز (٣٢٣٤) ، والنسائي في الجنائز (٢٠٣٤) ، وابن ماجه في الجنائز (١٥٧٢) ، وأحمد ٤٤١ / ٢ كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) مسلم في الإيمان (٣٤٧ / ٢٠٣) .

(٦) أي أصلكم في الدنيا ، ولا أغني عنكم من الله شيئاً ، والبلال جمع بلل ، وقيل : هو كل ما بلَّ الخلق من ماء أو لبن أو غيره ، انظر : النهاية في غريب الحديث ١٥٣ / ١ .

(٧) مسلم في الإيمان (٣٤٨ / ٢٠٤) .

معشر قريش ، اشتروا أنفسكم من الله ، فإننى لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا بني عبد المطلب ، لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت رسول الله ، سليني من مالي ما شئت ، لا أغني عنك من الله شيئاً^(١) وعن عائشة لما نزلت : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٤] قام رسول الله ﷺ فقال : «يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية بنت عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً . سلوني من مالي ما شئتم»^(٢).

وعن أبي هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً ذات يوم فذكر الغُلُولَ فعظَّمه وعظَّم أمره ثم قال : « لا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ^(٣) يقول : يا رسول الله ، أغثنى . فأقول : لا أملك لك شيئاً/قد أبلغتك . لا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرس له حَمْحَمَةٌ^(٤) فيقول : يا رسول الله ، أغثنى . فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك . لا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شاة لها ثُغَاءٌ^(٥)، فيقول : يا رسول الله ، أغثنى . فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك . لا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفَقُ^(٦) فيقول : يا رسول الله ، أغثنى . فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك . لا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ^(٧) فيقول : يا رسول الله ، أغثنى . فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك » أخرجاه في الصحيحين^(٨) وزاد مسلم «لا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نفس لها صياح . فيقول : يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك»^(٩) وفي البخاري عنه أن النبي ﷺ قال : «ولا يأتي أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يُعَارٌ^(١٠) فيقول : يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد بلغت . ولا يأتي

(١) مسلم في الإيمان (٢٠٦/٣٥١)، عن أبي هريرة .

(٢) مسلم في الإيمان (٢٠٥/٣٥٠) ، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٨٣) وقال : «هذا حديث حسن صحيح» .

(٣) الرُّغَاءُ : صوت الإبل . انظر : النهاية في غريب الحديث ٢/٢٤٠ .

(٤) الحمحمة : صوت الفرس دون الصهيل . انظر : النهاية في غريب الحديث ١/٤٣٦ .

(٥) الثُّغَاءُ : صياح الغنم . انظر : النهاية في غريب الحديث ١/٢١٤ .

(٦) أراد بالرقاع : ما عليه من الحقوق المكتوبة في الرقاع ، وخفوقها : حركتها . انظر النهاية في غريب الحديث ٢/٢٥١ .

(٧) صامت : يعني الذهب والفضة ، خلاف الناطق وهو الحيوان . انظر : النهاية في غريب الحديث ٣/٥٢ .

(٨) البخاري في الجهاد (٣٠٧٣) ، ومسلم في الإمارة (١٨٣١/٢٤) .

(٩) مسلم في الإمارة (١٨٣١/٢٤) .

(١٠) اليعار : صياح الشاة . انظر : النهاية في غريب الحديث ٥/٢٩٧ .

أحدكم بغير يحمل له رقبته له رُغَاء فيقول : يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد بلغت» (١) . وقوله هنا ﷺ : «لا أملك لك من الله شيئا» كقول إبراهيم لأبيه : ﴿لَا سَتْفِيرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [المتحنة : ٤] .

وأما شفاعته ودعاؤه للمؤمنين فهي نافعة في الدنيا والدين باتفاق المسلمين ، وكذلك شفاعته للمؤمنين يوم القيامة في زيادة الثواب ورفع الدرجات متفق عليها بين المسلمين وقد قيل : إن بعض أهل البدعة ينكرها .

وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم ، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية ، وقال هؤلاء : من يدخل النار لا يخرج منها/ لا بشفاعة ولا غيرها ، وعند هؤلاء ١٤٩/١ ما ثم إلا من يدخل الجنة فلا يدخل النار ، ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة ، ولا يجتمع عندهم في الشخص الواحد ثواب وعقاب . وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأئمة كالأربعة وغيرهم ، فيقولون بما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن الله يخرج من النار قوماً بعد أن يعذبهم الله ما شاء أن يعذبهم ، يخرجهم بشفاعة محمد ﷺ ، ويخرج آخرين بشفاعة غيره ، ويخرج قوماً بلا شفاعاة .

واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى : ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة : ٤٨] ، ويقولون : ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة : ١٢٣] ، ويقولون : ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة : ٢٥٤] ، ويقولون : ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَاسِبٍ وَلَا لَشَيْعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر : ١٨] ، ويقولون : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر : ٤٨] .

وجواب أهل السنة أن هذا يراد به شيان :

أحدهما : أنها لا تنفع المشركين ، كما قال تعالى في نعتهم : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنَ الْفَاضِلِينَ. وَلَوْ نَكُنْ نَاطِقِينَ. وَكُنَّا نَحْوُكُمْ مَعَ الْخَاطِئِينَ. وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ. حَتَّى أَتَيْنَا آلِيَيْنَ. فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر : ٤٢ - ٤٨] ، فهؤلاء نفى عنهم نفع شفاعاة الشافعين لأنهم كانوا كفاراً .

والثاني : أنه يراد بذلك نفى الشفاعاة التي يشبها أهل الشرك ، ومن شابههم من أهل البدع ؛ من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا

(١) البخاري في الزكاة (١٤٠٢) .

١٥٠/١ عنده بغير إذنه، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل/المشفوع إليه شفاعة شافع حاجته إليه رغبة ورهبة، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة.

فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين، ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون: هؤلاء خواص الله، فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا، كما يتوسل إلى الملوك بخواصهم لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم، فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك، وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبة ورهبة.

فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقال عن الملائكة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْتَفِئُونَ بِالْقَوْلِ هُمْ بِأَمْرِهِ يَقُولُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨]، وقال: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْفَالِ ذَرْوْا فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَمْ يَنْتَفِعْ مِنَ الشَّفَعَةِ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ﴾ [سبا: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَسْتَشِيرُوكُمْ أَمْ لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَقَوْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُنْسَبُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ

وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ زَعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ أَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَمْ يَمْلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٣-٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضَى

لَمْ قَوْلًا ﴿طه: ١٠٨، ١٠٩﴾، وقال صاحب يس: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى إِدَا لِي ضَلَالٍ مُّيِّنٍ إِنَّتِ ءَامَنَتْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ [يس: ٢ - ٢٥].

فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا : استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا : نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى الله، وصوروا تماثيلهم فعبدهم كذلك، وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله ودم المشركين عليها وكفرهم بها . قال الله تعالى عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤] قال ابن عباس وغيره: هؤلاء قوم صالحون كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدهم، وهذا مشهور في كتب التفسير والحديث| وغيرها كالبخاري وغيره^(١)، وهذه أبطلها النبي ﷺ وحسم مادتها وسد ١٥٢/١ ذريعتها ، حتى لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى فيها ، وإن كان المصلي فيها لا يستشفع بهم، ونهى عن الصلاة إلى القبور وأرسل علي بن أبي طالب فأمره ألا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه، ولا تماثلاً إلا طمسه ومحاه، ولعن المصورين . وعن أبي الهياج الأسدي؛ قال لي علي بن أبي طالب: لأبعثك على ما بعثني رسول الله ﷺ: ألا تدع تماثلاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته^(٢). وفي لفظ: ولا صورة إلا طمستها. أخرجه مسلم^(٣) .

١٥٣/١

فصل

ولفظ التوسل قد يراد به ثلاثة أمور. يراد به أمران متفق عليهما بين المسلمين:

أحدهما: هو أصل الإيمان والإسلام، وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته .

والثاني: دعاؤه وشفاعته، وهذا أيضاً نافع يتوسل به من دعا له وشفع فيه باتفاق المسلمين. ومن أنكر التوسل به بأحد هذين المعنيين فهو كافر مرتد يستتاب، فإن تاب وإلا

(١) البخاري في التفسير (٤٩٢٠) ، وابن جرير في التفسير ٦٢/٢٩ .

(٢) مسلم في الجنائز (٩٣/٩٦٩) ، وأبو داود في الجنائز (٣٢١٨) ، والترمذي في الجنائز (١٠٤٩) وقال :

«حسن» ، والنسائي في الجنائز (٢٠٣١) ، وأحمد ٩٦/١ ، ١٢٩ .

(٣) مسلم في الجنائز (٩٣/٩٦٩ مكرر).

قتل مرتدّاً. ولكن التوسل بالإيمان به وبطاعته هو أصل الدين، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام للخاصة والعامة، فمن أنكر هذا المعنى فكفره ظاهر للخاصة والعامة.

وأما دعاؤه وشفاعته وانتفاع المسلمين بذلك فمن أنكره فهو أيضاً كافر، لكن هذا أخفى من الأول، فمن أنكره عن جهل عُرِفَ ذلك، فإن أصر على إنكاره فهو مرتد.

أما دعاؤه وشفاعته في الدنيا فلم ينكره أحد من أهل القبلة.

وأما الشفاعة يوم القيامة فمذهب أهل السنة والجماعة - وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم - أن له شفاعات يوم القيامة خاصة وعامة، وأنه يشفع فيمن يأذن الله أن يشفع فيه من أمته من أهل الكبائر. ولا ينتفع بشفاعته إلا ١٥٤/١ أهل التوحيد المؤمنون، دون أهل الشرك، ولو كان المشرك محباً له معظماً له لم تنفذه شفاعته من النار، وإنما ينجيه من النار التوحيد والإيمان به، ولهذا لما كان أبو طالب وغيره يحبونه ولم يُقرُّوا بالتوحيد الذي جاء به لم يمكن أن يخرجوا من النار بشفاعته ولا غيرها.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»^(١). وعنه في صحيح مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإنني اختبأت دعوتي شفاعة يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»^(٢) وفي السنن عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني آت من عند ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً»^(٣) وفي لفظ قال: «ومن لقي الله لا يشرك به شيئاً فهو في شفاعتي»^(٤).

وهذا الأصل - وهو التوحيد - هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره، وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَسَلَّمَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ

(١) البخاري في العلم (٩٩).

(٢) مسلم في الإيمان (٣٣٨/١٩٩).

(٣) الترمذي في صفة القيامة (٢٤٤١)، وابن ماجه في الزهد (٤٣١٧)، وأحمد ٢٨/٦.

(٤) أحمد ٤٠٤/٤ عن أبي موسى رضي الله عنه.

وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴿[النحل: ٣٦]، وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢]. ١٥٥/١

وفي المسند عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»^(١).

والمشركون من قريش وغيرهم - الذين أخبر القرآن بشركهم واستحل النبي ﷺ دماءهم وأموالهم وسبى حريمهم وأوجب لهم النار- كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض كما قال: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِوُك. قُلْ مَنْ مِنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجَبِّرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ. بَلْ أَنشَأْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبِثَهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٩١].

وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرين بأن آلهتهم مخلوقة، ولكنهم كانوا يتخذونهم شفعاء ويتقربون بعبادتهم إليه كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْصُرُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنُؤْتِيهِمْ اللَّهُ بِمَا لَا يَسْأَلُونَ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ١ - ٣]، وكانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

(١) أحمد ٥٠/٢.

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ فَأَقْبَرَتْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُبِينٌ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿الرُّوم: ٢٨ - ٣٢﴾.

بين - سبحانه - بالمثل الذي ضربه لهم أنه لا ينبغي أن يجعل مملوكه شريكه فقال: ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ ﴿الرُّوم: ٢٨﴾ يخاف أحدكم مملوكه كما يخاف بعضكم بعضا ، فإذا كان أحدكم لا يرضى أن يكون مملوكه شريكه فكيف ترضونه لأنفسكم؟

وهذا كما كانوا يقولون: له بنات، فقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْقَى لَا جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢]، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهٖ أَيَسْكُمُ عَلَىٰ هُوٍ ۖ أَرَّ يَدْسُ فِي الزَّارِبِ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٥٨ - ٦٠]. ١٥٧/١

والمشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك أصلهم صنفان:

قوم نوح، وقوم إبراهيم . فتقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين. ثم صوروا تماثيلهم، ثم عبدوهم.

وقوم إبراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر. وكل من هؤلاء يعبدون الجن، فإن الشياطين قد تخاطبهم وتعينهم على أشياء، وقد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة وإن كانوا في الحقيقة إنما يعبدون الجن، فإن الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا: ٤٠، ٤١].

والملائكة لا تعينهم على الشرك لا في الحيا ولا في الممات ولا يرضون بذلك، ولكن الشياطين قد تعينهم وتتصور لهم في صور الآدميين فيرونهم بأعينهم ويقول أحدهم : أنا إبراهيم، أنا المسيح، أنا محمد ، أنا الخضر ، أنا أبو بكر ، أنا عمر ، أنا عثمان، أنا علي، أنا الشيخ فلان. وقد يقول بعضهم عن بعض : هذا هو النبي فلان أو هذا هو الخضر ويكون أولئك كلهم جنًا يشهد بعضهم لبعض. والجن كالإنس فمنهم الكافر ومنهم

الفاسق ومنهم العاصي وفيهم العابد الجاهل ، فمنهم من يحب شيخاً فيتزيا^(١) في صورته ويقول : أنا فلان . ويكون ذلك في بركة ومكان قفر^(٢) ، فيطعم ذلك الشخص طعاماً ويسقيه شرباً أو يدلّه على الطريق أو يخبره ببعض الأمور الواقعة الغائبة ، فيظن ذلك الرجل أن نفس الشيخ الميت أو الحي فعل ذلك ، وقد يقول : هذا سر الشيخ وهذه رقيقته وهذه حقيقته أو هذا ملك جاء على صورته ، وإنما يكون ذلك جنياً ، فإن الملائكة لا تعين على الشرك والإفك والإثم والعدوان .

وقد قال الله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٦ ، ٥٧] ، قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزيز والمسيح ، فيين الله تعالى أن الملائكة والأنبياء عباد الله ، كما أن الذين يعبدونهم عباد الله ، وبين أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه كما يفعل سائر عباده الصالحين .

والمشركون من هؤلاء قد يقولون : إنا نستشفع بهم أي نطلب من الملائكة والأنبياء أن يشفعوا ، فإذا أتينا قبر أحدهم طلبنا منه أن يشفع لنا ، فإذا صورنا تمثاله - والتماثيل إما مجسدة وإما تماثيل مصورة كما يصورها النصارى في كنائسهم - قالوا : فمقصودنا بهذه التماثيل تذكّر أصحابها وسيرهم ، ونحن نخاطب هذه التماثيل ومقصودنا خطاب أصحابها ليشفعوا لنا إلى الله . فيقول أحدهم : يا سيدي فلان ، أو يا سيدي جرجس ، أو بطرس ، أو ياستي الحنونة مريم ، أو يا سيدي الخليل ، أو موسى بن عمران أو غير ذلك ، اشفع لي إلى ربك .

وقد يخاطبون الميت عند قبره : سل لي ربك . أو يخاطبون الحي وهو غائب كما يخاطبونه لو كان حاضراً حياً ، وينشدون قصائد يقول أحدهم فيها : يا سيدي فلان ! أنا في حسبك ، أنا في جوارك ، اشفع لي إلى الله ، سل الله لنا أن ينصرنا / على عدونا ، سل الله أن يكشف عنا هذه الشدة ، أشكو إليك كذا ، وكذا ، فسل الله أن يكشف هذه الكربة . أو يقول أحدهم : سل الله أن يغفر لي .

ومنهم من يتأول قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ

(١) فيتزيا : يظهر في هيئته . انظر : القاموس المحيط ، مادة «زى» .

(٢) مكان قفر : الخلاء من الأرض ، لا نبات فيه ولا ماء . انظر : لسان العرب ، مادة «قفر» .

وَأَسْتَغْفِرَ لَهُمْ الرُّسُولُ لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا [النساء: ٦٤]، ويقولون: إذا طلبنا منه الاستغفار بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة، ويخالفون بذلك إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين، فإن أحداً منهم لم يطلب من النبي ﷺ بعد موته أن يشفع له ولا سألته شيئاً، ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين في كتبهم، وإنما ذكر ذلك من ذكره من متأخري الفقهاء، وحكوا حكاية مكذوبة على مالك - رضي الله عنه - سيأتي ذكرها وبسط الكلام عليها - إن شاء الله تعالى.

فهذه الأنواع من خطاب الملائكة، والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفي مغيبهم، وخطاب تماثيلهم، هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب، وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

فإن دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم، وفي مغيبهم وسؤالهم والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم في هذه الحال، ونصب تماثيلهم - بمعنى طلب الشفاعة منهم - هو من الدين الذي لم يشرعه الله، ولا ابتعث به رسولاً، ولا أنزل به كتاباً، وليس هو واجبا ولا مستحباً باتفاق المسلمين، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا أمر به إمام من أئمة المسلمين، وإن كان ذلك مما يفعله كثير من الناس ممن له عبادة وزهد، ويذكرون فيه حكايات ومنامات، فهذا كله من الشيطان.

وفيه من يُنظَّم القصائد في دعاء الميت، والاستشفاع به، والاستغاثة، أو يذكر ذلك في ضمن مديح الأنبياء والصالحين، فهذا كله ليس بمشروع، ولا واجب، ولا مستحب باتفاق أئمة المسلمين، ومن تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة، وهو يعتقدها واجبة أو مستحبة فهو ضال مبتدع، بدعة سيئة لا بدعة حسنة باتفاق أئمة الدين، فإن الله لا يُعبد إلا بما هو واجب أو مستحب.

وكثير من الناس يذكرون في هذه الأنواع من الشرك منافع ومصالح، ويحتجون عليها بحجج من جهة الرأي أو الذوق، أو من جهة التقليد والمنامات ونحو ذلك.

وجواب هؤلاء من طريقتين: أحدهما: الاحتجاج بالنص والإجماع.

والثاني: القياس والذوق والاعتبار ببيان ما في ذلك من الفساد، فإن فساد ذلك راجح على ما يُظن فيه من المصلحة.

أما الأول فيقال: قد علم بالاضطرار والتواتر من دين الإسلام وبإجماع سلف الأمة وأئمتها أن ذلك ليس بواجب ولا مستحب.

وعلم أنه لم يكن النبي ﷺ بل ولا أحد من الأنبياء قبله، شرعوا للناس أن يدعوا الملائكة والأنبياء والصالحين، ولا يستشفعوا بهم، لا بعد مماتهم ولا في مغيبهم، فلا يقول أحد: يا ملائكة الله، اشفعوا لي عند الله، سلوا الله لنا أن ينصرنا أو يرزقنا أو يهدينا / ١٦١/١ وكذلك لا يقول لمن مات من الأنبياء والصالحين: يا نبي الله، يا رسول الله، ادع الله لي، سل الله لي، استغفر الله لي، سل الله أن يغفر لي أو يهديني أو ينصرني أو يعافيني، ولا يقول: أشكو إليك ذنوبي أو نقص رزقي أو تسلط العدو علي، أو أشكو إليك فلانا الذي ظلمني، ولا يقول: أنا نزيلك، أنا ضيفك، أنا جارك، أو أنت تجير من يستجير، أو أنت خير معاذ يستعاذ به.

ولا يكتب أحد ورقة ويعلقها عند القبور، ولا يكتب أحد محضراً أنه استجار بفلان ويذهب بالمحضر إلى من يعمل بذلك المحضر، ونحو ذلك مما يفعله أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين، كما يفعله النصارى في كنائسهم، وكما يفعله المبتدعون من المسلمين عند قبور الأنبياء والصالحين أو في مغيبهم، فهذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام وبالنقل المتواتر وبإجماع المسلمين؛ أن النبي ﷺ لم يشرع هذا لأئمة.

وكذلك الأنبياء قبله لم يشرعوا شيئاً من ذلك، بل أهل الكتاب ليس عندهم عن الأنبياء نقل بذلك، كما أن المسلمين ليس عندهم عن نبيهم نقل بذلك، ولا فعل هذا أحد من أصحاب نبيهم والتابعين لهم بإحسان، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم، ولا ذكر أحد من الأئمة، لا في مناسك الحج ولا غيرها، أنه يستحب لأحد أن يسأل النبي ﷺ عند قبره أن يشفع له أو يدعو لأئمة أو يشكو إليه ما نزل بأئمة من مصائب الدنيا والدين.

وكان أصحابه يتلون بأنواع من البلاء بعد موته، فتارة بالجذب، وتارة بنقص الرزق، وتارة بالخوف وقوة العدو، وتارة بالذنوب والمعاصي، ولم يكن أحد منهم يأتي إلى قبر الرسول ﷺ ولا قبر الخليل ولا قبر أحد من الأنبياء فيقول: نشكو إليك جذب الزمان أو قوة العدو أو كثرة الذنوب، ولا يقول: سل الله لنا أو لأمتك أن يرزقهم أو ينصرهم أو يغفر لهم، بل هذا وما يشبهه من البدع المحدثه التي لم يستحبها أحد من أئمة المسلمين، فليست واجبة ولا مستحبة باتفاق أئمة المسلمين.

وكل بدعة ليست واجبة ولا مستحبة فهي بدعة سيئة، وهي ضلالة باتفاق المسلمين، ومن قال في بعض البدع: إنها بدعة حسنة، فلإنما ذلك إذا قام دليل شرعي أنها مستحبة ، فأما ما ليس بمستحب ولا واجب، فلا يقول أحد من المسلمين: إنها من الحسنات التي يتقرب بها إلى الله .

ومن تقرب إلى الله بما ليس من الحسنات المأمور بها أمرٌ إيجاب ولا استحباب فهو ضال متبع للشيطان، وسيله من سبيل الشيطان، كما قال عبد الله بن مسعود : خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا وَخَطَّ خَطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ : « هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ ، وَهَذِهِ سَبِيلُ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ » ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ ^(١) [الأنعام: ١٥٣] .

فهذا أصل جامع يجب على كل من آمن بالله ورسوله أن يتبعه، ولا يخالف السنة المعلومة ، وسبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، باتباع من خالف السنة والإجماع القديم، لا سيما وليس معه في بدعته إمام من أئمة المسلمين، ولا مجتهد يعتمد على قوله في الدين، ولا من/يعتبر قوله في مسائل الإجماع والنزاع، فلا ينخرم الإجماع بمخالفته، ولا يتوقف الإجماع على موافقته .

ولو قدر أنه نازع في ذلك عالم مجتهد لكان مخصصاً بما عليه السنة المتواترة وباتفاق الأئمة قبله، فكيف إذا كان المنازع ليس من المجتهدين ولا معه دليل شرعي، وإنما اتبع من تكلم في الدين بلا علم، و﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ يَغْيِرَ عَلَيْهِ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحج: ٨] . بل إن النبي ﷺ مع كونه لم يشرع هذا فليس هو واجباً ولا مستحباً، فإنه قد حرم ذلك وحرم ما يفضي إليه كما حرم اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد. ففي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله أن النبي ﷺ قال- قبل أن يموت بخمس- : «إن من كانوا قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك» ^(٢) . وفي الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ قال- قبل موته- : « لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ^(٣) يحذر ما فعلوا ، قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً .

(١) الدارمي في المقدمة ٦٧/١، وأحمد ٤٣٥/١، ٤٦٥ .

(٢) مسلم في المساجد (٢٣٢/٢٣) .

(٣) البخاري في الجنائز (١٣٣٠) ، (١٣٦٠) ، ومسلم في المساجد (١٩/٥٢٩) .

واتخاذ المكان مسجداً، هو أن يتخذ للصلوات الخمس، وغيرها كما تبنى المساجد لذلك، والمكان المتخذ مسجداً، إنما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لا دعاء المخلوقين.

فحرم ﷺ أن تتخذ قبورهم مساجد بقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد، وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده؛ لأن ذلك/ ذريعة إلا أن يقصدوا المسجد لأجل ١٦٤/١ صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده، فهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة إلى الشرك بالله.

والفعل إذا كان يفضي إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه، كما نهى عن الصلاة في الأوقات الثلاثة لما في ذلك من المفسدة الراجحة، وهو التشبه بالمشركين الذي يفضي إلى الشرك. وليس في قصد الصلاة في تلك الأوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع في غير ذلك من الأوقات.

ولهذا تنازع العلماء في ذوات الأسباب فسوغها كثير منهم في هذه الأوقات، وهو أظهر قولي العلماء؛ لأن النهي إذا كان لسد الذريعة أبيع للمصلحة الراجحة، وفعل ذوات الأسباب يحتاج إليه في هذه الأوقات، ويفوت إذا لم يفعل فيها فتفوت مصلحتها، فأبيحت لما فيها من المصلحة الراجحة، بخلاف ما لا سبب له فإنه يمكن فعله في غير هذا الوقت فلا تفوت بالنهي عنه مصلحة راجحة، وفيه مفسدة توجب النهي عنه.

فإذا كان نهيه عن الصلاة في هذه الأوقات لسد ذريعة الشرك لئلا يفضي ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها - كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها - كان معلوماً أن دعوة الشمس، والسجود لها هو محرم في نفسه، أعظم تحريماً من الصلاة التي نهى عنها لئلا يفضي إلى دعاء الكواكب.

كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد - فهى عن/ قصدتها للصلاة ١٦٥/١ عندها لئلا يفضي ذلك إلى دعائهم والسجود لهم - كان دعاؤهم والسجود لهم أعظم تحريماً من اتخاذ قبورهم مساجد.

ولهذا؛ كانت زيارة قبور المسلمين على وجهين: زيارة شرعية، وزيارة بدعية.

فالزيارة الشرعية أن يكون مقصود الزائر الدعاء للميت، كما يقصد بالصلاة على جنازته الدعاء له. فالقيام على قبره من جنس الصلاة عليه، قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّا تَأْتِيكَ بِهِمْ وَلَا تُقِمُ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]، فهى نبيه عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم كافرون. فلما نهى

عن هذا وهذا لأجل هذه العلة وهي الكفر، دل ذلك على انتفاء هذا النهي عند انتفاء هذه العلة.

ودل تخصيصهم بالنهي على أن غيرهم يُصلى عليه ويُقام على قبره، إذ لو كان هذا غير مشروع في حق أحد لم يخصصوا بالنهي ولم يعلل ذلك بكفرهم؛ ولهذا كانت الصلاة على الموتى من المؤمنين والقيام على قبورهم من السنة المتواترة، فكان النبي ﷺ يصلي على موتى المسلمين وشرع ذلك لأمته، وكان إذا دفن الرجل من أمته يقوم على قبره ويقول: «سلوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل» ورواه أبو داود وغيره^(١).

وكان يزور قبور أهل البقيع والشهداء بأحد، ويعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول أحدهم: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله تعالى بكم لاحقون»^(٢)، «ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين»^(٣)، «نسأل الله لنا ولكم العافية»^(٤)، «اللهم لا تحرمنّا أجرهم ولا تفتنّا بعدهم»^(٥). وفي صحيح/مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»^(٦). والأحاديث في ذلك صحيحة معروفة. فهذه الزيارة لقبور المؤمنين مقصودها الدعاء لهم.

وهذه غير الزيارة المشتركة التي تجوز في قبور الكفار كما ثبت في صحيح مسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة أنه قال: أتى رسول الله ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، ثم قال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي، فاستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور، فإنها تذكركم الآخرة»^(٧) فهذه الزيارة التي تنفع في تذكير الموت تشرع ولو كان المقبور كافراً، بخلاف الزيارة التي يقصد بها الدعاء للميت فتلك لا تشرع إلا في حق المؤمنين، وأما الزيارة البدعية فهي التي يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج، أو يطلب منه الدعاء والشفاعة، أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن

(١) أبو داود في الجنائز (٣٢٢١) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) مسلم في الجنائز (١٠٤/٩٧٥)، وأبو داود في الجنائز (٣٢٣٧)، وابن ماجه في الجنائز (١٥٤٧) وأحمد ٤٠٨، ٣٧٥، ٣٠٠/٢.

(٣) مسلم في الجنائز (١٠٣/٩٧٤)، والنسائي في الجنائز (٢٠٣٧)، وأحمد ٢٢١/٦.

(٤) مسلم في الجنائز (١٠٤/٩٧٥) والنسائي في الجنائز (٢٠٤٠)، وابن ماجه في الجنائز (١٥٤٧)، وأحمد ٣٦٠، ٣٥٣/٥.

(٥) ابن ماجه في الجنائز (١٥٤٦)، وأحمد ٧١/٦، ٧٦، ١١١.

(٦) مسلم في الطهارة (٣٩/٢٤٩)، وأحمد ٣٧٥/٢.

(٧) مسلم في الجنائز (١٠٨/٩٧٦).

ذلك أجوب للدعاء ، فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبي ﷺ ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي ﷺ ولا عند غيره ، وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك .

ولو قصد الصلاة عند قبور الأنبياء والصالحين من غير أن يقصد دعاءهم والدعاء عندهم ، مثل أن يتخذ قبورهم مساجد ، لكان ذلك محرماً منهيّاً عنه ، ولكن صاحبه متعرضاً لغضب الله ولعنته ، كما قال النبي ﷺ : «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (١) وقال : «قَاتِلَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» (٢) يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا . وقال : « إِنْ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فإني أنهاكم عن ذلك » (٣) .

فإذا كان هذا محرماً ، وهو سبب لسخط الرب ولعنته ، فكيف بمن يقصد دعاء الميت والدعاء عنده وبه ، واعتقد أن ذلك من أسباب إجابة الدعوات ، ونيل الطلبات وقضاء الحاجات؟! وهذا كان أول أسباب الشرك في قوم نوح -عليه السلام- وعبادة الأوثان في الناس ، قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، ثم ظهر الشرك بسبب تعظيم قبور صالحهم .

وقد استفاض عن ابن عباس وغيره في صحيح البخاري وفي كتب التفسير وقصص الأنبياء في قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح : ٢٣] أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدهم ، قال ابن عباس : ثم صارت هذه الأوثان في قبائل العرب .

وقد أحدث قوم من ملاحدة الفلاسفة الدهرية للشرك شيئاً آخر ذكروه في زيارة القبور كما ذكر ذلك ابن سينا ومن أخذ عنه كصاحب الكتب المضمون بها وغيره ، ذكروا معنى الشفاعة على أصلهم ، فإنهم لا يقرون بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ولا أنه يعلم الجزئيات ، ويسمع أصوات عباده ، ويجب دعاءهم .

فشفاعة الأنبياء والصالحين على أصلهم ليست كما يعرفه أهل الإيمان من أنها دعاء يدعوه به الرجل الصالح فيستجيب الله دعاءه ، كما أن ما يكون من إنزال المطر باستسقائهم

(١) مالك في قصر الصلاة في السفر ١/١٧٢ (٨٥) .

(٢) البخاري في الصلاة (٤٣٧) ، ومسلم في المساجد (٥٣٠/٢٠) ، وأبو داود في الجنائز (٣٢٢٧) ، والنسائي في الكبرى في الوفاة (٩٢/٥٠٧) ، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) مسلم في المساجد (٥٣٢/٢٣) .

ليس سببه عندهم إجابة دعائهم.

١٦٨/١ بل هم يزعمون أن المؤثر في حوادث العالم هو قوى النفس أو الحركات الفلكية أو القوى الطبيعية ، فيقولون : إن الإنسان إذا أحب رجلاً صالحاً قد مات ولا سيما إن زار قبره ، فإنه يحصل لروحه اتصال بروح ذلك الميت فيما يفيض على تلك الروح المفارقة من العقل الفعال عندهم أو النفس الفلكية ، يفيض على هذه الروح الزائرة المستشفعة من غير أن يعلم الله بشيء من ذلك - بل وقد لا تعلم الروح المستشفع بها بذلك - ومثلوا ذلك بالشمس إذا قابلها مرآة فإنه يفيض على المرآة من شعاع الشمس ، ثم إذا قابل المرآة مرآة أخرى فاض عليها من تلك المرآة ، وإن قابل تلك المرآة حائط أو ماء فاض عليه من شعاع تلك المرآة ، فهكذا الشفاعة عندهم ، وعلى هذا الوجه يتفجع الزائر عندهم . وفي هذا القول من أنواع الكفر ما لا يخفى على تدبره .

ولا ريب أن الأوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ما هو من أسباب ضلال بني آدم ، وجعل القبور أوثاناً هو أول الشرك ؛ ولهذا يحصل عند القبور لبعض الناس من خطاب يسمعه وشخص يراه وتصرف عجيب ؛ ما يظن أنه من الميت وقد يكون من الجن والشياطين ، مثل أن يرى القبر قد انشق وخرج منه الميت وكلمه وعانقه ، وهذا يرى عند قبور الأنبياء وغيرهم ، وإنما هو شيطان ، فإن الشيطان يتصور بصور الإنس ويدعي أحدهم أنه النبي فلان أو الشيخ فلان ويكون كاذباً في ذلك .

وفي هذا الباب من الوقائع ما يضيق هذا الموضع عن ذكره ، وهي كثيرة جداً ، والجاهل يظن أن ذلك الذي رآه قد خرج من القبر وعانقه أو كلمه هو المقبور أو النبي أو الصالح وغيرهما ، والمؤمن العظيم يعلم أنه شيطان ويتبين ذلك بأمور : / ١٦٩/١

أحدها : أن يقرأ آية الكرسي بصدق ، فإذا قرأها تغيب ذلك الشخص أو ساخ في الأرض أو احتجب ، ولو كان رجلاً صالحاً أو ملكاً أو جنياً مؤمناً لم تضره آية الكرسي وإنما تضر الشياطين ، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة لما قال له الجنى : اقرأ آية الكرسي إذا أويت إلى فراشك فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبي ﷺ : « صَدَقَ وهو كَذُوب » (١) .

(١) البخاري في الوكالة (٢٣١١) وفي بدء الخلق (٤٢٧٥) ، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (٤/١٠٧٩٥) .

ومنها: أن يستعِذ بالله من الشياطين.

ومنها: أن يستعِذ بالعوذ الشرعية، فإن الشياطين كانت تعرض للأنبياء في حياتهم وتريد أن تؤذيهم وتفسد عبادتهم، كما جاءت الجن إلى النبي ﷺ بشعلة من النار، تريد أن تحرقه، فأناه جبريل بالعوذة المعروفة التي تضمنها الحديث المروي عن أبي التَّيَّاح أنه قال: سأَل رجل عبد الرحمن بن حُبَيْش، وكان شيخاً كبيراً قد أدرك النبي ﷺ: كيف صنع رسول الله ﷺ حين كادته الشياطين؟ قال: تحدّثت عليه من الشُّعَاب والأوْذِيَةِ، وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله ﷺ، قال: فرعب رسول الله ﷺ فأناه جبريل عليه السلام فقال: «يا محمد، قل ما أقول؟» قال: قل: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما خلق وذراً وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما يخرج من الأرض ومن شر ما ينزل فيها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق يطرق، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن»^(١) قال: فطفئت نارهم وهزمهم الله عز وجل.

١٧٠/١

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن عفريتاً من الجن جاء يفتك بي البارحة ليقطع على صلاتي، فأمكنني الله - عز وجل - منه فدعته»^(٢) فأردت أن آخذه فأربطه إلى سارية من المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه، ثم ذكرت قول سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّي بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، فردّه الله تعالى خاسئاً»^(٣).

وعن عائشة: أن النبي ﷺ كان يصلي، فأناه الشيطان فأخذه ﷺ فصرعه فخنقه، قال رسول الله ﷺ: «حتى وجدت بردَ لسانه على يدي، ولولا دعوة سليمان لأصبح موثقاً حتى يراه الناس» أخرجه النسائي^(٤)، وإسناده على شرط البخاري كما ذكر ذلك أبو عبد الله المقدسي في مختاره الذي هو خير من صحيح الحاكم. وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ كان يصلي صلاة الصبح وهو خلفه، فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس، فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لُعَابِهِ

(١) أحمد ٤١٩/٣.

(٢) أي خنقه. انظر: النهاية في غريب الحديث ١٦٠/٢.

(٣) البخاري في الصلاة (٤٦١)، ومسلم في المساجد (٣٩/٥٤١).

(٤) النسائي في الكبرى في السهو (١/٥٥٠، ٢/٥٥١) بلفظ مختلف عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بين إصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل» رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه^(١).

وفي صحيح مسلم عن أبي الدرداء أنه قال : قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: « أعوذ بالله منك » ثم قال: « ألعنك بلعنة الله » ثلاثاً وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من صلاته قلنا: يا رسول الله، سمعناك تقول شيئاً في الصلاة لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك. قال: «إن عدو الله/إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة، فاستأخر، ثم أردت أن آخذه ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان المدينة»^(٢).

فإذا كانت الشياطين تأتي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتؤذيهم وتفسد عبادتهم، فيدفعهم الله تعالى بما يؤيد به الأنبياء من الدعاء والذكر والعبادة ومن الجهاد باليد، فكيف من هو دون الأنبياء؟

فالنبي ﷺ قمعَ شياطين الإنس والجن بما أيده الله تعالى من أنواع العلوم والأعمال، ومن أعظمها الصلاة والجهاد. وأكثر أحاديث النبي ﷺ في الصلاة والجهاد، فمن كان متبعاً للأنبياء نصره الله - سبحانه - بما نصر به الأنبياء.

وأما من ابتدع ديناً لم يشرعه، فترك ما أمروا به من عبادة الله وحده لا شريك له واتباع نبيه فيما شرعه لأمته، وابتدع الغلو في الأنبياء والصالحين والشرك بهم، فإن هذا تتلعب به الشياطين، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

ومنها: أن يدعو الرائي بذلك ربه تبارك وتعالى ليبين له الحال.

ومنها: أن يقول لذلك الشخص ، أأنت فلان؟ ويقسم عليه بالأقسام المعظمة،

(١) أحمد ٨٢/٣، ٨٣، وأبو داود في الصلاة (٦٩٩).

(٢) مسلم في المساجد (٥٤٢/٤٠).

ويقرأ عليه قوارع القرآن إلى غير ذلك من الأسباب التي تضر الشياطين.

وهذا كما أن كثيراً من العباد يرى الكعبة تطوف به، ويرى عرشاً عظيماً^١ وعليه صورة ١٧٢/١ عظيمة، ويرى أشخاصاً تصعد وتنزل فيظنها الملائكة ويظن أن تلك الصورة هي الله - تعالى وتقدس - ويكون ذلك شيطاناً.

وقد جرت هذه القصة لغير واحد من الناس، فمنهم من عصمه الله وعرف أنه الشيطان كالشيخ عبد القادر في حكايته المشهورة حيث قال: كنت مرة في العبادة فرأيت عرشاً عظيماً وعليه نور، فقال لي: يا عبد القادر، أنا ربك وقد حللت لك ما حرمت على غيرك. قال: فقلت له: أنت الله الذي لا إله إلا هو؟ أخساً يا عدو الله. قال: فتمزق ذلك النور وصار ظلمة، وقال: يا عبد القادر، نجوت مني بفقهك في دينك وعلمك وبمنازلاتك في أحوالك. لقد فتنت بهذه القصة سبعين رجلاً. فقلت له: كيف علمت أنه الشيطان؟ قال: بقوله لي: «حللت لك ما حرمت على غيرك»، وقد علمت أن شريعة محمد ﷺ لا تنسخ ولا تبدل، ولأنه قال: أنا ربك، ولم يقدر أن يقول: أنا الله الذي لا إله إلا أنا.

ومن هؤلاء من اعتقد أن المرئى هو الله، وصار هو وأصحابه يعتقدون أنهم يرون الله تعالى في اليقظة ومستندهم ما شاهدوه، وهم صادقون فيما يخبرون به، ولكن لم يعلموا أن ذلك هو الشيطان.

وهذا قد وقع كثيراً لطوائف من جهال العباد، يظن أحدهم أنه يرى الله تعالى بعينه في الدنيا؛ لأن كثيراً منهم رأى ما ظن أنه الله وإنما هو شيطان. وكثير منهم رأى من ظن أنه نبي أو رجل صالح أو الخضر وكان شيطاناً. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من رأى في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي»^(١). فهذا في ١٧٣/١ رؤية المنام؛ لأن الرؤية في المنام تكون حقاً وتكون من الشيطان فمنعه الله أن يتمثل به في المنام، وأما في اليقظة فلا يراه أحد بعينه في الدنيا.

فمن ظن أن المرئى هو الميت فإنما أتى من جهله، ولهذا لم يقع مثل هذا لأحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

(١) البخاري في العلم (١١٠)، ومسلم في الرؤيا (٢٢٦٦/١٠)، والترمذي في الرؤيا (٢٢٧٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٩٠١)، وأحمد ٢/٢٣٢، ٤١١ كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وبعض من رأى هذا - أو صدق من قال: إنه رآه - اعتقد أن الشخص الواحد يكون
بمكانين في حالة واحدة فخالف صريح المعقول.

ومنهم من يقول: هذه رقيقة ذلك المرئي أو هذه روحانيته أو هذا معناه تشكل ، ولا
يعرفون أنه جنى تصور بصورته .

ومنهم من يظن أنه ملك ، والملك يتميز عن الجنى بأمور كثيرة ، والجن فيهم الكفار
والفساق والجهال ، وفيهم المؤمنون المتبعون لمحمد ﷺ ، فكثير ممن لم يعرف أن هؤلاء جن
وشياطين يعتقدهم ملائكة . وكذلك الذين يدعون الكواكب وغيرها من الأوثان تنزل على
أحدهم روح يقول: هي روحانية الكواكب ، ويظن بعضهم أنه من الملائكة وإنما هو من
الجن والشياطين يغوون المشركين .

والشياطين يوالون من يفعل ما يحبونه من الشرك والفسوق والعصيان . فتارة يخبرونه
ببعض الأمور الغائبة ليكشف بها . وتارة يؤذون من يريد أذاه بقتل وتمريض ونحو ذلك . / ١٧٤/١
وتارة يجلبون له من يريده من الإنس .

وتارة يسرقون له ما يسرقونه من أموال الناس من نقد وطعام وثياب وغير ذلك ،
فيعتقد أنه من كرامات الأولياء وإنما يكون مسروقاً .

وتارة يحملونه في الهواء فيذهبون به إلى مكان بعيد . فممنهم من يذهبون به إلى مكة
عَشِيَّة عرفة ويعودون به فيعتقد هذا كرامة ، مع أنه لم يحج حج المسلمين: لا أحرم ولا
لَبِيَّ ، ولا طاف بالبيت ولا بين الصفا والمروة ، ومعلوم أن هذا من أعظم الضلال .

ومنهم من يذهب إلى مكة ليطوف بالبيت من غير عمرة شرعية ، فلا يحرم إذا حاذى
الميقات . ومعلوم أن من أراد نسكاً بمكة لم يكن له أن يجاوز الميقات إلا محرماً ، ولو
قصدها لتجارة أو لزيارة قريب له أو طلب علم كان مأموراً أيضاً بالإحرام من الميقات ،
وهل ذلك واجب أو مستحب؟ فيه قولان مشهوران للعلماء . وهذا باب واسع .

ومنه السحر والكهانة ، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع . وعند المشركين
عباد الأوثان ومن ضاهاهم من النصارى ومبتدعة هذه الأمة في ذلك من الحكايات ما
يطول وصفه ، فإنه ما من أحد يعتاد دعاء الميت والاستغاثة به نبياً كان أو غير نبى إلا وقد
بلغه من ذلك ما كان من أسباب ضلاله ؛ كما أن الذين يدعونهم في مغيبهم ويستغيثون
بهم فيرون من يكون في صورتهم ، أو يظنون أنه في صورتهم ويقول: أنا فلان ويكلمهم
ويقضى بعض حوائجهم ، فإنهم يظنون أن الميت المستغاث به هو الذي كلمهم وقضى
مطلوبهم ، وإنما هو من الجن والشياطين . / ١٧٥/١

ومنهم من يقول: هو ملك من الملائكة، والملائكة لا تعين المشركين وإنما هم شياطين أضلّوهم عن سبيل الله.

وفي مواضع الشرك من الوقائع والحكايات التي يعرفها من هنالك ومن وقعت له ما يطول وصفه.

وأهل الجاهلية فيها نوعان: نوع يكذب بذلك كله، ونوع يعتقد ذلك كرامات لأولياء الله.

فالأول يقول: إنما هذا خيال في أنفسهم لا حقيقة له في الخارج، فإذا قالوا ذلك جماعة بعد جماعة، فمن رأى ذلك وعايينه موجوداً أو تواتر عنده ذلك عمن رآه موجوداً في الخارج وأخبره به من لا يرتاب في صدقه، كان هذا من أعظم أسباب ثبات هؤلاء المشركين المبتدعين المشاهدين لذلك، والعارفين به بالأخبار الصادقة.

ثم هؤلاء المكذبون لذلك متى عاينوا بعض ذلك، خضعوا لمن حصل له ذلك وانقادوا له واعتقدوا أنه من أولياء الله، مع كونهم يعلمون أنه لا يؤدي فرائض الله حتى ولا الصلوات الخمس، ولا يجتنب محارم الله؛ لا الفواحش ولا الظلم، بل يكون من أبعد الناس عن الإيمان والتقوى التي وصف الله بها أوليائه في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

فيرون من هو من أبعد الناس عن الإيمان والتقوى له من المكاشفات/والتصرفات ١٧٦/١ الخارقات ما يعتقدون أنه من كرامات أولياء الله المتقين.

فمنهم من يرتد عن الإسلام وينقلب على عقبيه، ويعتقد فيمن لا يصلي، بل ولا يؤمن بالرسول، بل يسب الرسل، ويتنقص بهم أنه من أعظم أولياء الله المتقين. ومنهم من يبقى حائراً متردداً شاكاً مرتاباً يقدم إلى الكفر رجلاً وإلى الإسلام أخرى، وربما كان إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان.

وسبب ذلك: أنهم استدلوا على الولاية بما لا يدل عليها، فإن الكفار والمشركين والسحرة والكهان معهم من الشياطين من يفعل بهم أضعاف أضعاف ذلك. قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].

وهؤلاء لابد أن يكون فيهم كذب وفيهم مخالفة للشرع، ففيهم من الإثم والإفك بحسب ما فارقوا أمر الله ونهيه الذي بعث به نبيه ﷺ. وتلك الأحوال الشيطانية نتيجة ضلالهم وشركهم وبدعتهم وجهلهم وكفرهم، وهي دلالة وعلامة على ذلك.

والجاهل الضال يظن أنها نتيجة إيمانهم وولايتهم لله تعالى ، وأنها علامة ودلالة على إيمانهم وولايتهم لله سبحانه ، وذلك أنه لم يكن عنده فرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان كما قد تكلمنا على ذلك في مسألة (الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) ، ولم يعلم أن هذه الأحوال التي جعلها دليلاً على الولاية تكون للكفار - من المشركين وأهل الكتاب - أعظم مما تكون للمنتسبين إلى الإسلام ، والدليل مستلزم للمدلول مختص به لا يوجد بدون مدلوله ، فإذا وجدت للكفار والمشركين وأهل الكتاب لم تكن مستلزمة للإيمان فضلاً عن الولاية ، ولا كانت مختصة بذلك ، فامتنع أن تكون دليلاً عليه .

وأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، وكراماتهم ثمرة إيمانهم وتقواهم ، لا ثمرة الشرك والبدعة والفسق .

وأكابر الأولياء إنما يستعملون هذه الكرامات بحجة للدين أو حاجة للمسلمين .
والمقتصدون قد يستعملونها في المباحات .

وأما من استعان بها في المعاصي فهو ظالم لنفسه ، مُتَعَدِّ حد ربه ، وإن كان سببها الإيمان والتقوى . فمن جاهد العدو فغنم غنيمة فأنفقها في طاعة الشيطان ، فهذا المال ، وإن ناله بسبب عمل صالح ، فإذا أنفق في طاعة الشيطان كان وبالاً عليه ، فكيف إذا كان سبب الخوارق الكفر والفسوق والعصيان وهي تدعو إلى كفر آخر وفسوق وعصيان؟!
ولهذا كان أئمة هؤلاء معترفين بأن أكثرهم يموتون على غير الإسلام . ولبسطة هذه الأمور موضع آخر .

والمقصود هنا أن من أعظم أسباب ضلال المشركين ما يرونه أو يسمعون عند الأوثان كإخبار عن غائب أو أمر يتضمن قضاء حاجة ونحو ذلك ، فإذا شاهد أحدهم القبر انشق وخرج منه شيخ بهي عانقه أو كلمه ، ظن أن ذلك هو النبي المقبور ، أو الشيخ المقبور ، والقبر لم ينشق ، وإنما الشيطان مثل له ذلك ، كما يمثل لأحدهم أن الحائط انشق وأنه خرج منه صورة إنسان ويكون هو الشيطان تمثل له في صورة إنسان وأراه أنه خرج من الحائط .

ومن هؤلاء من يقول لذلك الشخص الذي رآه قد خرج من القبر : نحن لا نبقي في قبورنا ، بل من حين يقبر أحدنا يخرج من قبره ويمشي بين الناس . ومنهم من يرى ذلك الميت في الجنائز ويمشي ويأخذ بيده ، إلى أنواع أخرى معروفة عند من يعرفها .

وأهل الضلال إما أن يكذبوا بها وإما أن يظنوها من كرامات أولياء الله ، ويظنون أن

ذلك الشخص هو نفس النبي أو الرجل الصالح أو ملك على صورته، وربما قالوا : هذه روحانيته أو رقيقته أو سره أو مثاله أو روحه تجسدت، حتى قد يكون من يرى ذلك الشخص في مكانين فيظن أن الجسم الواحد يكون في الساعة الواحدة في مكانين، ولا يعلم أن ذلك حين تصور بصورته ليس هو ذلك الإنسي .

وهذا ونحوه مما يبين أن الذين يدعون الأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وغير قبورهم ، هم من المشركين الذين يدعون غير الله ، كالذين يدعون الكواكب والذين اتخذوا الملائكة والنبیین أرباباً، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوَفِّيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّصُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُكَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ. وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ۚ ١٧٩/١

وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٦ ، ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْقَالِ ذَرْوْا فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ. وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : ٢٢ ، ٢٣] . ومثل هذا كثير في القرآن : ينهى أن يدعى غير الله لا من الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم، فإن هذا شرك أو ذريعة إلى الشرك ، بخلاف ما يطلب من أحدهم في حياته من الدعاء والشفاعة فإنه لا يفضي إلى ذلك، فإن أحداً من الأنبياء والصالحين لم يعبد في حياته بحضرته، فإنه ينهى من يفعل ذلك، بخلاف دعائهم بعد موتهم، فإن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم، وكذلك دعاؤهم في مغيبهم هو ذريعة إلى الشرك .

فمن رأى نبياً أو ملكاً من الملائكة وقال له : « ادع لي » لم يفض ذلك إلى الشرك به، بخلاف من دعاه في مغيبه، فإن ذلك يفضي إلى الشرك به كما قد وقع، فإن الغائب والميت لا ينهى من يشرك ، بل إذا تعلق القلوب بدعائه وشفاعته أفضى ذلك إلى الشرك به فدعى وقصد مكان قبره أو تمثاله أو غير ذلك، كما قد وقع فيه المشركون ومن ضاهاهم من أهل الكتاب ومبتدعة المسلمين .

ومعلوم أن الملائكة تدعو للمؤمنين وتستغفر لهم كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ. وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي

وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَبَى السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿[غافر: ٧-٩]، وقال تعالى: ﴿تَكَاذُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطَرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ سَاجِدُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَسَتَعْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْفَقِيرُ الرَّحِيمُ. وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٥، ٦].

فالملائكة يستغفرون للمؤمنين من غير أن يسألهم أحد، وكذلك ما روي أن النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء والصالحين يدعو ويشفع للأخيار من أمته هو من هذا الجنس، هم يفعلون ما أذن الله لهم فيه بدون سؤال أحد.

وإذ لم يشرع دعاء الملائكة لم يشرع دعاء من مات من الأنبياء والصالحين، ولا أن نطلب منهم الدعاء والشفاعة وإن كانوا يدعون ويشفعون، لوجهين:

أحدهما: أن ما أمرهم الله به من ذلك هم يفعلونه وإن لم يطلب منهم، وما لم يؤمروا به لا يفعلونه ولو طلب منهم فلا فائدة في الطلب منهم.

الثاني: أن دعاءهم وطلب الشفاعة منهم في هذه الحال يفضي إلى الشرك بهم فيه هذه المفسدة. فلو قدر أن فيه مصلحة لكانت هذه المفسدة راجحة، فكيف ولا مصلحة فيه، بخلاف الطلب منهم في حياتهم وحضورهم فإنه لا مفسدة فيه، فإنهم ينهون عن الشرك بهم، بل فيه منفعة، وهو أنهم يثابون ويؤجرون على ما يفعلونه حيثئذ من نفع الخلق كلهم، فإنهم في دار العمل والتكليف، وشفاعتهم في الآخرة فيها إظهار كرامة الله لهم يوم القيامة.

وأصل سؤال الخلق الحاجات الدنيوية التي لا يجب عليهم فعلها ليس واجباً على السائل ولا مستحباً، بل المأمور به سؤال الله تعالى والرغبة إليه والتوكل عليه. وسؤال الخلق في الأصل محرم، لكنه أبيع للضرورة، وتركه توكلأً على الله أفضل، قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨] أي ارجب إلى الله لا إلى غيره، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَىٰ اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩] فجعل الإيتاء لله والرسول لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، فأمرهم بإرضاء الله ورسوله.

وأما في الحسب فأمرهم أن يقولوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ لا يقولوا: حسبنا الله ورسوله.

ويقولوا: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩] لم يأمرهم أن يقولوا: إن لله ورسوله راغبون، فالرغبة إلى الله وحده كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، فجعل الطاعة لله والرسول، وجعل الخشية والتقوى لله وحده.

وقد قال النبي ﷺ لابن عباس: «يا غلام، إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، جفّ القلم بما أنت لاق، فلو جهدت الخليفة على أن ١٨٢/١ يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً»^(١)، وهذا الحديث معروف مشهور، ولكن قد يروى مختصراً.

وقوله: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» هو من أصح ما روي عنه. وفي المسند لأحمد: أن أبا بكر الصديق كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد: ناولني إياه، ويقول: إن خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً^(٢). وفي صحيح مسلم عن عوف ابن مالك أن النبي ﷺ بايع طائفة من أصحابه وأسر إليهم كلمة خفية: «ألا تسألوا الناس شيئاً». قال عوف: فقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد: ناولني إياه^(٣).

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب»، وقال: «هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتُونُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وعلى ربهم يتوكلون»^(٤) فمدح هؤلاء بأنهم لا يسترقون، أي لا يطلبون من أحد أن يرقيه. والرقية من جنس الدعاء فلا يطلبون من أحد ذلك.

وقد روي فيه: «ولا يرقون» وهو غلط، فإن رقيهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة، وكان النبي ﷺ يرقى نفسه وغيره ولم يكن يسترقى، فإن رقيته نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره، وهذا مأمور به، فإن الأنبياء كلهم سألوا الله ودعوه كما ذكر الله ذلك في قصة آدم وإبراهيم وموسى وغيرهم.

١٨٣/١

(١) أحمد ٣٠٧/١.

(٢) أحمد ١١/١.

(٣) مسلم في الزكاة (١٠٤٣/١٠٨).

(٤) سبق تخريجه ص ٦١.

وما يروى أن الخليل لما ألقى في المنجنيق قال له جبريل: سل، قال: «حسبي من سؤالي علمه بحالي» ليس له إسناد معروف وهو باطل، بل الذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» قال ابن عباس: قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد حين: ﴿قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقد روى أن جبريل قال: هل لك من حاجة؟ قال: «أما إليك فلا» وقد ذكر هذا الإمام أحمد وغيره^(١).

وأما سؤال الخليل لربه - عز وجل - فهذا مذكور في القرآن في غير موضع، فكيف يقول: حسبي من سؤالي علمه بحالي، والله بكل شيء عليم، وقد أمر العباد بأن يعبدوه ويتوكلوا عليه ويسألوه؛ لأنه سبحانه جعل هذه الأمور أسباباً لما يرتبه عليها من إثابة العابدين، وإجابة السائلين. وهو سبحانه يعلم الأشياء على ما هي عليه، فعلمه بأن هذا محتاج أو هذا مذنب لا ينافي أن يأمر هذا بالتوبة والاستغفار، ويأمر هذا بالدعاء وغيره من الأسباب التي تقضى بها حاجته، كما يأمر هذا بالعبادة والطاعة التي بها ينال كرامته.

ولكن العبد قد يكون مأموراً في بعض الأوقات بما هو أفضل من الدعاء كما روي في الحديث: «من شَغَلَهُ ذكري عن مسألتني أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»^(٢)، وفي الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «من شَغَلَهُ قراءة القرآن عن ذكري ومسألتني أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» قال الترمذي: حديث حسن غريب^(٣).

١٨٤/١ وأفضل العبادات البدنية الصلاة، وفيها القراءة والذكر والدعاء، وكل واحد في موطنه مأمور به، ففي القيام بعد الاستفتاح يقرأ القرآن، وفي الركوع والسجود ينهي عن قراءة القرآن ويؤمر بالتسبيح والذكر، وفي آخرها يؤمر بالدعاء، كما كان النبي ﷺ يدعو في آخر الصلاة ويأمر بذلك. والدعاء في السجود حسن مأمور به، ويجوز الدعاء في القيام أيضاً وفي الركوع، وإن كان جنس القراءة والذكر أفضل، فالمقصود أن سؤال العبد لربه السؤال المشروع حسن مأمور به.

وقد سأل الخليل وغيره، قال تعالى عنه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ

(١) ابن جرير في التفسير ٣٤/١٧، ولم أعثر عليه في أحمد.

(٢) البيهقي في الشعب (٥٦٧) وقال: هكذا رواه البخاري عن ضرار عن صفوان في التاريخ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ١٦٥/٣ وقال: قال ابن حبان: هذا موضوع ما رواه إلا صفوان بهذا الإسناد عن عطية عن أبي سعيد. قال: فأما صفوان فيروي عن الأثبات ما لا أصل له من حديث الثقات، ولا يجوز الاحتجاج بما انفرد به. قال: وأما عطية فلا يحل كتب حديثه إلا على التعجب.

(٣) الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٢٦)، والدارمي في فضائل القرآن ٤٤١/٢.

عند بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدَّلِيلُ. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿[إبراهيم: ٣٧ - ٤١]﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتِبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

وكذلك دعاء المسلم لأخيه حسن مأمور به، وقد ثبت في الصحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا وكل الله به ملكاً كلما ١٨٥/١ دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثله»^(١) أي بمثل ما دعوت لأخيك به.

وأما سؤال المخلوق المخلوق أن يقضي حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر به، بخلاف سؤال العلم، فإن الله أمر بسؤال العلم كما قوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، والأنبياء: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وهذا لأن العلم يجب بذله، فمن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة. وهو يزكو على التعليم، لا ينقص بالتعليم كما تنقص الأموال بالبذل، ولهذا يُشَبَّه بالمصباح.

وكذلك من له عند غيره حق من عين أو دين كالأمانات مثل الوديعة والمضاربة، لصاحبها أن يسألها ممن هي عنده، وكذلك مال الفء وغيره من الأموال المشتركة التي يتولى قسمتها ولي الأمر، للرجل أن يطلب حقه منه كما يطلب حقه من الوقف والميراث والوصية؛ لأن المستولي يجب عليه أداء الحق إلى مستحقه.

ومن هذا الباب سؤال النفقة لمن تجب عليه، وسؤال المسافر الضيافة لمن تجب عليه، كما استطعم موسى والخضر أهل القرية. وكذلك الغريم له أن يطلب دينه ممن هو عليه. وكل واحد من المتعاقدين له أن يسأل الآخر أداء حقه إليه؛/فالبائع يسأل الثمن، والمشتري ١٨٦/١

(١) سبق تخريجه ص ١٠١.

يسأل المبيع . ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿وَأَقْرَأُوا اللَّهَ الَّذِي سَأَلُونَهُ بِهِ وَلَا تَزِمُوا﴾ [النساء : ١] .
[النساء : ١] .

ومن السؤال ما لا يكون مأمورا به ، والمسؤول مأمور بإجابة السائل ، قال تعالى : ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى مَعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَلِتُخَوِّرَهُمُ﴾ [المعارج : ٢٤ ، ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَهُمُ وَالْمُعْتَصِرِ﴾ [الحج : ٣٦] ، ومنه الحديث : «إن أحدكم ليسألني المسألة فيخرج بها يتأبطها نارا»^(١) ، وقوله : « اقطعوا عني لسان هذا »^(٢) .

وقد يكون السؤال منهياً عنه نهى تحريم أو تنزيه ، وإن كان المسؤول مأمورا بإجابة سؤاله ، فالنبي ﷺ كان من كماله أن يعطي السائل ، وهذا في حقه من فضائله ومناقبه ، وهو واجب أو مستحب ، وإن كان نفس سؤال السائل منهياً عنه . ولهذا لم يعرف قط أن الصديق ونحوه من أكابر الصحابة سألوه شيئاً من ذلك ، ولا سألوه أن يدعو لهم وإن كانوا يطلبون منه أن يدعو للمسلمين ، كما أشار عليه عمر في بعض مغازيه لما استأذنه في نحر بعض ظهرهم فقال عمر : يا رسول الله ، كيف بنا إذا لقينا العدو غداً رجلاً جاعاً ولكن إن رأيت أن تدعو الناس ببقايا أزوادهم فتجمعها ، ثم تدعو الله بالبركة ، فإن الله يبارك لنا في دعوتك . وفي رواية : فإن الله سيغيثنا بدعائك . وإنما كان سأل ذلك بعض المسلمين كما سأل الأعمى أن يدعو الله له ليرد عليه بصره^(٣) ، وكما سأله أم سليم أن يدعو الله لخدمته أنس^(٤) ، وكما سأل أبو هريرة أن يدعو الله أن يحبيه وأمه إلى عباده المؤمنين ، ونحو ذلك .

وأما الصديق فقد قال الله فيه وفي مثله : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِّعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا إِتْيَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل : ١٧ - ٢١] ، وقد ثبت في الصحاح عنه أنه قال ﷺ : «إن أمن الناس علينا في صحبتته

(١) أحمد ١٦/٣ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) ذكره العراقي في تخريج إحياء علوم الدين ١٣٦/٣ وقال : « ليس في شيء من الكتب المشهورة » ، والعجلوني في كشف الخفاء (٤٨٤) .

(٣) الطبراني في الكبير ٨/١٩ ، وأبو يعلى (١٥٤٩) وذكره الهيثمي في المجمع ٨/ ٣٠٠ وقال : « رواه الطبراني وأبو يعلى وفي إسناده الطبراني من لم أعرفهم » ، وفي إسناده أبي يعلى يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف ، وأبو نعيم في الدلائل ص ٤١٨ .

(٤) البخاري في الدعوات (٦٣٣٤) ، (٦٣٧٩) ، (٦٣٨١) ومسلم في فضائل الصحابة (١٤١/٢٤٨٠) ، (٢٤٨١) .

وذات يده أبو بكر، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»^(١) فلم يكن في الصحابة أعظم منه من الصديق في نفسه وماله.

وكان أبو بكر يعمل هذا ابتغاء وجه ربه الأعلى، لا يطلب جزاء من مخلوق، فقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى. الَّذِي يُوَفَّى مَالَهُ يَتَزَكَّى. وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى. إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى. وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٧ - ٢١]، فلم يكن لأحد عند الصديق نعمة تجزى، فإنه كان مستغنيا بكسبه وماله عن كل أحد، والنبي ﷺ كان له على الصديق وغيره نعمة الإيمان والعلم، وتلك النعمة لا تجزى، فإن أجر الرسول فيها على الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

وأما على وزيد وغيرهما، فإن النبي ﷺ كان له عندهم نعمة تجزى، فإن زيدا كان مولاه فأعتقه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وعلي كان في عيال النبي ﷺ لجذب أصاب أهل مكة، فأراد النبي ﷺ والعباس التخفيف عن أبي طالب من عياله، فأخذ النبي ﷺ علياً إلى عياله، وأخذ العباس جعفرأ إلى عياله، وهذا مبسوط في موضع آخر.

والمقصود هنا أن الصديق كان أمن الناس في صحبته وذات يده لأفضل/الخلق رسول ١٨٨/١ الله ﷺ؛ لكونه كان ينفق ماله في سبيل الله كاشترائه المعذنين. ولم يكن النبي ﷺ محتاجاً في خاصة نفسه لا إلى أبي بكر ولا غيره، بل لما قال له في سفر الهجرة: إن عندي راحلتين فخذ إحداهما، فقال النبي ﷺ: «بالتن»^(٢) فهو أفضل صديق لأفضل نبي، وكان من كماله أنه لا يعمل ما يعمل به إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، لا يطلب جزاء من أحد من الخلق، لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم.

ومن الجزاء أن يطلب الدعاء، قال تعالى عمن أثنى عليهم: ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لِرَبِّهِ اللَّهِ لَا تُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩]، والدعاء جزاء كما في الحديث: «من أسدى

(١) البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٥٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٢) كلاهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) الطبراني في الكبير ١٠٦/٢٤ (٢٨٤)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٥٦/٦ وقال: «رواه الطبراني وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه أبو حاتم وغيره، وبقي رجاله رجال الصحيح».

إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه^(١). وكانت عائشة إذا أرسلت إلى قوم بصدقة تقول للرسول: اسمع ما يدعون به لنا حتى ندعو لهم بمثل ما دعوا لنا ويبقى أجرنا على الله.

وقال بعض السلف : إذا قال لك السائل: بارك الله فيك، فقل : وفيك بارك الله، فمن عمل خيراً مع المخلوقين سواء كان المخلوق نبياً أو رجلاً صالحاً أو ملكاً من الملوك أو غنياً من الأغنياء، فهذا العامل للخير مأمور بأن يفعل ذلك خالصاً لله يبتغي به وجه الله، لا يطلب به من المخلوق جزاءً ولا دعاءً ولا غيره، لا من نبي ولا رجل صالح ولا من الملائكة، فإن الله أمر العباد كلهم أن يعبدوه مخلصين له الدين.

وهذا هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، فلا يقبل من ١٨٩/١

أحد ديناً غيره، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وكان نوح وإبراهيم وموسى والمسيح وسائر أتباع الأنبياء عليهم السلام - على الإسلام، قال نوح: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، وقال عن إبراهيم: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَى إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]، وقال موسى: ﴿يَقَوْمُ إِن كُنْتُمْ مَأْمَنُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وَقَالَتِ السَّحَرَةُ: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِئَرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّلَاحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال عن الحواريين: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ مَأْمِنُوا بِ وَرَسُولِي قَالُوا مَأْمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

ودين الإسلام مبني على أصليين : أن نعبد الله وحده لا شريك له ، وأن نعبد بهما شرعه من الدين وهو ما أمرت به الرسل، أمر بإيجاب أو أمر باستحباب، فيعبد في كل زمان بما أمر به في ذلك الزمان. فلما كانت شريعة التوراة محكمة كان العاملون بها مسلمين ، وكذلك شريعة الإنجيل.

(١) أبو داود في الزكاة (١٦٧٢) ، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٧) ، وأحمد ٦٨/٢ ، ٩٦ ، ٩٩ كلهم عن عبد الله ابن عمر، رضي الله عنه.

وكذلك في أول الإسلام لما كان النبي ﷺ يصلي إلى بيت المقدس كانت صلاته إليه من الإسلام، ولما أمر بالتوجه إلى الكعبة كانت الصلاة إليها من الإسلام، والعدول عنها إلى الصخرة خروجاً عن دين الإسلام . فكل من لم يعبد الله بعد مبعث محمد ﷺ بما ١٩٠/١ شرعه الله، من واجب ومستحب، فليس بمسلم.

ولابد في جميع الواجبات والمستحبات أن تكون خالصة لله رب العالمين ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ. وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٤، ٥]، وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ١ - ٣].

فكل ما يفعله المسلم من القرب الواجبة والمستحبة ، كالإيمان بالله ورسوله والعبادات البدنية والمالية ومحبة الله ورسوله والإحسان إلى عباد الله بالنفع والمال، هو مأمور بأن يفعله خالصاً لله رب العالمين، لا يطلب من مخلوق عليه جزاء : لا دعاء ولا غير دعاء ، فهذا مما لا يسوغ أن يطلب عليه جزاء، لا دعاء ولا غيره.

وأما سؤال المخلوق غير هذا فلا يجب بل ولا يستحب إلا في بعض المواضع، ويكون المسؤول مأموراً بالإعطاء قبل السؤال، وإذا كان المؤمنون ليسوا مأمورين بسؤال المخلوقين فالرسول أولى بذلك ﷺ، فإنه أجل قدراً وأغنى بالله عن غيره، فإن سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفسدات:

مفسدة الافتقار إلى غير الله، وهي من نوع الشرك.

١٩١/١

ومفسدة إيذاء المسؤول وهي من نوع ظلم الخلق .

وفيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس . فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة، وقد نزه الله رسوله عن ذلك كله .

وحيث أمر الأمة بالدعاء له فذاك من باب أمرهم بما يستفعلون به، كما يأمرهم بسائر الواجبات والمستحبات، وإن كان هو يتنفع بدعائهم له فهو أيضاً يتنفع بما يأمرهم به من العبادات والأعمال الصالحة، فإنه ثبت عنه في الصحيح أنه قال: « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء »^(١)، ومحمد ﷺ هو

(١) مسلم في العلم (٢٦٧٤/١٦)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٩)، والترمذي في العلم (٢٦٧٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» ، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٦) وأحمد ٢/ ٣٨٠ كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الداعي إلى ما تفعله أمته من الخيرات، فما يفعلونه له فيه من الأجر مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

ولهذا لم تجر عادة السلف بأن يهدوا إليه ثواب الأعمال؛ لأن له مثل ثواب أعمالهم بدون الإهداء من غير أن ينقص من ثوابهم شيء. وليس كذلك الأبوان، فإنه ليس كل ما يفعله الولد يكون للوالد مثل أجره، وإنما ينتفع الوالد بدعاء الولد ونحوه مما يعود نفعه إلى الأب، كما قال في الحديث الصحيح: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»^(١). فالنبي ﷺ - فيما يطلبه من أمته من الدعاء - طلبه طلب أمر وترغيب، ليس بطلب سؤال. فمن ذلك أمره لنا بالصلاة والسلام عليه، فهذا أمر الله به في القرآن بقوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

١٩٢/١ والأحاديث عنه في الصلاة والسلام معروفة / ومن ذلك أمره بطلب الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ مرة صلى الله عليه عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة»^(٢)، وفي صحيح البخاري عن جابر، عن النبي ﷺ: «أنه قال: من قال حين سمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وابعته مقاماً محموداً الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد. حلت له شفاعتي يوم القيامة»^(٣)، فقد رغب المسلمين في أن يسألوا الله له الوسيلة، وبين أن من سألها له حلت له شفاعته يوم القيامة، كما أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرًا، فإن الجزاء من جنس العمل.

ومن هذا الباب الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه أن عمر بن الخطاب استأذن النبي ﷺ في العمرة فأذن له ثم قال: «لا تنسنا يا أخي من دعائك»^(٤)، فطلب النبي ﷺ من عمر أن يدعو له كطلبه أن يصلي عليه، ويسلم عليه، وأن يسأل الله له الوسيلة والدرجة الرفيعة، وهو كطلبه أن يعمل سائر الصالحات،

(١) مسلم في الوصية (١٤/١٦٣١)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٨٠)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الوصايا (٣٦٥١)، وأحمد ٣٧٢/٢، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسلم في الصلاة (١١/٣٨٤).

(٣) البخاري في الأذان (٦١٤).

(٤) سبق تخريجه ص ٦٢.

فمقصوده نفع المطلوب منه والإحسان إليه . وهو ﷺ أيضاً ينتفع بتعليمهم الخير وأمرهم به ، وينتفع أيضاً بالخير الذي يفعلونه من الأعمال الصالحة ومن دعائهم له .

ومن هذا الباب قول القائل : إني أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال : « ما شئت » قال : الربع؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك » قال : النصف؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك » قال : الثلثين؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك » قال : أجعل لك صلاتي كلها؟ قال : « إذا تكفى همك ويغفر لك ذنبك » رواه أحمد في مسنده والترمذي وغيرهما^(١).

وقد بسط الكلام عليه في (جواب المسائل البغدادية) . فإن هذا كان له دعاء يدعو به ، فإذا جعل مكان دعائه الصلاة على النبي ﷺ كفاه الله ما أهمه من أمر دنياه وآخرته ، فإنه كلما صلى عليه مرة صلى الله عليه عشراً ، وهو لو دعا لآحاد المؤمنين لقالت الملائكة : « آمين ، ولك بمثل » فدعاؤه للنبي ﷺ أولى بذلك .

ومن قال لغيره من الناس : ادع لي - أو لنا - وقصده أن ينتفع ذلك المأمور بالدعاء وينتفع هو أيضاً بأمره ، ويفعل ذلك المأمور به كما يأمره بسائر فعل الخير ، فهو مقتد بالنبي ﷺ ، مؤتم به ، ليس هذا من السؤال المرجوح .

وأما إن لم يكن مقصوده إلا طلب حاجته لم يقصد نفع ذلك والإحسان إليه ، فهذا ليس من المقتدين بالرسول المؤمنين به في ذلك ، بل هذا هو من السؤال المرجوح الذي تركه إلى الرغبة إلى الله ورسوله أفضل من الرغبة إلى المخلوق وسؤاله . وهذا كله من سؤال الأحياء السؤال الجائز المشروع .

وأما سؤال الميت فليس بمشروع ، لا واجب ولا مستحب ، بل ولا مباح ، ولم يفعل هذا قط أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحب ذلك أحد من سلف الأمة ؛ لأن ذلك فيه مفسدة راجحة وليس فيه مصلحة راجحة ، والشرعية إنما تأمر بالمصالح الخالصة أو الراجحة ، وهذا ليس فيه مصلحة راجحة ، بل إما أن يكون مفسدة محضة أو مفسدة راجحة ، وكلاهما غير مشروع .

فقد تبين أن ما فعله النبي ﷺ من طلب الدعاء من غيره ، هو من باب الإحسان إلى الناس ، الذي هو واجب أو مستحب .

(١) الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » . وأحمد ١٣٦/٥ ، وذكره الهيثمي في المجمع ١٦٣/١ وقال : « رواه أحمد وإسناده جيد » .

وكذلك ما أمر به من الصلاة على الجنائز، ومن زيارة قبور المؤمنين والسلام عليهم والدعاء لهم، هو من باب الإحسان إلى الموتى الذي هو واجب أو مستحب، فإن الله تعالى أمر المسلمين بالصلاة والزكاة، فالصلاة حق الحق في الدنيا والآخرة، والزكاة حق الخلق، فالرسول أمر الناس بالقيام بحقوق الله وحقوق عباده، بأن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئاً.

ومن عبادته الإحسان إلى الناس، حيث أمرهم الله سبحانه به، كالصلاة على الجنائز وكزيارة قبور المؤمنين، فاستحوذ الشيطان على أتباعه، فجعل قصدهم بذلك الشرك بالخالق وإيذاء المخلوق، فإنهم إذا كانوا إنما يقصدون بزيارة قبور الأنبياء والصالحين سؤالهم أو السؤال عندهم أو أنهم لا يقصدون السلام عليهم ولا الدعاء لهم كما يقصد بالصلاة على الجنائز كانوا بذلك مشركين، مؤذنين ظالمين لمن يسألونه، وكانوا ظالمين لأنفسهم. فجمعوا بين أنواع الظلم الثلاثة.

فالذي شرعه الله ورسوله توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد في المعاش والمعاد، وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد العباد في المعاش والمعاد.

فإن الله - تعالى - أمر المؤمنين بعبادته والإحسان إلى عباده كما قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦] وهذا أمر بمعالي الأخلاق، وهو - سبحانه - يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها.

وقد روى عنه ﷺ أنه قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» رواه الحاكم في صحيحه^(١)، وقد ثبت عنه في الصحيح ﷺ أنه قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى»^(٢)، وقال: «اليد العليا هي المعطية، واليد السفلى السائلة»^(٣)، وهذا ثابت عنه في الصحيح.

فأين الإحسان إلى عباد الله من إيذائهم بالسؤال والشحاذة لهم؟ وأين التوحيد للخالق بالرغبة إليه والرجاء له والتوكل عليه والحب له، من الإشراك به بالرغبة إلى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه، وأن يحب كما يحب الله؟ وأين صلاح العبد في عبودية الله

(١) الحاكم ٦١٣/٢ بلفظ: «بعثت لأتمم صالح الأخلاق» وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

(٢) البخاري في الزكاة (١٤٧٢) وفي الوصايا (٢٧٥٠)، ومسلم في الزكاة (٩٦/١٠٣٥).

(٣) أحمد ٢٢٦/٤، رواه البخاري في الزكاة (١٤٢٩)، ومسلم في الزكاة (٩٤/١٠٣٣) كلاهما بلفظ «المنفعة بدل المعطية».

والذل له والافتقار إليه من فساده في عبودية المخلوق والذل له والافتقار إليه؟.

فالرسول ﷺ أمر بتلك الأنواع الثلاثة الفاضلة المحمودة التي تصلح أمور أصحابها في الدنيا والآخرة، ونهى عن الأنواع الثلاثة التي تفسد أمور أصحابها. / ١٩٦/١

ولكن الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول، قال تعالى: ﴿لَنْ أَعْهَدَ إِلَيْكُمْ بَنِيَّ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ. وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَلَمْتُ أَنْ تَكُونُوا تَعْبُدُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٦].

وذكر الرحمن هو الذكر الذي أنزل الله على رسوله الذي قال فيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَوَّلَنْتَنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيكَ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦]، وقد قال تعالى: ﴿الْقَصَصُ. كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. أَتَسْمِعُونَ مَا أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١ - ٣]، وقد قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنِ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

فالصراط المستقيم هو ما بعث الله به رسوله محمداً ﷺ بفعل ما أمر، وترك ما حظر، وتصديقه فيما أخبر، ولا طريق إلى الله إلا ذلك، وهذا سبيل أولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وجند الله الغالبين.

وكل ما خالف ذلك فهو من طرق أهل الغي والضلال، وقد نزه الله تعالى نبيه عن هذا وهذا، فقال تعالى: ﴿وَالنَّجَرِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ. وَمَا يَبْطِئُ عَنِ الْمَوْتِ. إِنَّا هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١-٤]، وقد أمرنا الله سبحانه أن نقول في صلاتنا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

وقد روى الترمذي وغيره عن عدي بن حاتم، عن النبي ﷺ أنه قال: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون» قال الترمذي: حديث صحيح^(١). وقال سفيان بن عيينة: كانوا يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى.

وكان غير واحد من السلف يقول: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون.

فمن عرف الحق ولم يعمل أشبه اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿أَنَامُوا نَاسًا يَٰلَيْلٍ وَتَنَسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. ومن عبد الله بغير علم، بل بالغلو والشرك أشبه النصارى الذين قال الله فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

فالأول من الغاوين، والثاني من الضالين.

فإن الغي اتباع الهوى، والضلال عدم الهدى. قال تعالى: ﴿وَأَنذِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، وقال تعالى: ﴿سَاصِرُونَ عَنِ ءَايَتِي الَّذِينَ يَكْذِبُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

(١) الترمذي في التفسير (٢٩٥٤) وسكت عنه، وأحمد ٣٨٧/٤.

ومن جمع الضلال والغي فيه شبه من هؤلاء وهؤلاء. نسأل الله أن يهدينا - وسائر إخواننا - صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. /

١٩٩/١

فصل

إذا عرف هذا فقد تبين أن لفظ «الوسيلة» و«التوسل» فيه إجمال واشتباه يجب أن نعرف معانيه، ويعطى كل ذي حق حقه. فيعرف ما ورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه. وما كان يتكلم به الصحابة يفعلونه ومعنى ذلك. ويعرف ما أحدثه المحدثون في هذا اللفظ ومعناه.

فإن كثيراً من اضطراب الناس في هذا الباب هو بسبب ما وقع من الإجمال والاشتراك في الألفاظ ومعانيها، حتى تجد أكثرهم لا يعرف في هذا الباب فصل الخطاب.

فلفظ الوسيلة مذكور في القرآن في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِي، فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، فالوسيلة التي أمر الله أن تبتغى إليه، وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه، هي ما يتقرب إليه من الواجبات والمستحبات. فهذه الوسيلة التي أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول ٢٠٠/١ كل واجب ومستحب، وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك سواء كان محرماً أو مكروهاً أو مباحاً.

فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول فأمر به أمر إيجاب أو استحباب وأصل ذلك الإيمان بما جاء به الرسول. فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول، لا وسيلة لأحد إلى الله إلا ذلك.

والثاني لفظ الوسيلة في الأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ: «سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعباد الله، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة»^(١)، وقوله: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعته مقاماً محموداً الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد، حلت له الشفاعة»^(٢).

فهذه الوسيلة للنبي ﷺ خاصة. وقد أمرنا أن نسأل الله له هذه الوسيلة، وأخبر أنها

(٢) سبق تخريجه ص ١٤٢.

(١) سبق تخريجه ص ١٠٠.

لا تكون إلا لعبد من عباد الله، وهو يرجو أن يكون ذلك العبد، وهذه الوسيلة أمرنا أن نسألها للرسول، وأخبر أن من سأل له هذه الوسيلة فقد حلت عليه الشفاعة يوم القيامة؛ لأن الجزء من جنس العمل، فلما دعوا للنبي ﷺ استحقوا أن يدعوا هو لهم، فإن الشفاعة نوع من الدعاء، كما قال: إنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا^(١).

وأما التوسل بالنبي ﷺ والتوجه به في كلام الصحابة فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته. والتوسل به في عرف كثير من المتأخرين يراد به الإقسام به والسؤال به، كما يقسمون بغيره من الأنبياء والصالحين ومن يعتقدون فيه الصلاح. وحينئذ فلفظ التوسل به يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين، ويراد به معنى ثالث لم ترد به سنة.

فأما المعنيان الأولان - الصحيحان باتفاق العلماء -:

فأحدهما: هو أصل الإيمان والإسلام وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته.

والثاني: دعاؤه وشفاعته كما تقدم.

فهذان جائزان بإجماع المسلمين، ومن هذا قول عمر بن الخطاب: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فاسقنا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا^(٢)، أي: بدعائه وشفاعته، وقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، أي القربة إليه بطاعته. وطاعة رسوله طاعته، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. فهذا التوسل الأول هو أصل الدين، وهذا لا ينكره أحد من المسلمين. وأما التوسل بدعائه وشفاعته - كما قال عمر - فإنه توسل بدعائه لا بذاته؛ ولهذا عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بعمه العباس، ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس، فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بالعباس، علم أن ما يفعل في حياته قد تعذر بموته، بخلاف التوسل الذي هو الإيمان به والطاعة له، فإنه مشروع دائما.

فلفظ التوسل يراد به ثلاثة معان:

أحدها: التوسل بطاعته، فهذا فرض لا يتم الإيمان إلا به.

والثاني: التوسل بدعائه وشفاعته، وهذا كان في حياته، ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته.

والثالث: التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته، والسؤال بذاته، فهذا هو الذي لم

(٢) سبق تخريجه ص ٨٠.

(١) سبق تخريجه ص ٦٢.

تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه، لا في حياته ولا بعد مماته، لا عند قبره ولا غير قبره، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة، أو عمن ليس قوله حجة، كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

وهذا هو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه: إنه لا يجوز، ونهوا عنه، حيث قالوا: لا يسأل بمخلوق، ولا يقول أحد: أسألك بحق أنبيائك. قال أبو الحسين القدوري^(١)، في كتابه الكبير في الفقه المسمي بشرح الكرخي في باب الكراهة: وقد ذكر هذا غير واحد من أصحاب أبي حنيفة. قال بشر بن الوليد: حدثنا أبو يوسف قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به. وأكره أن يقول: «بمعاهد العز من عرشك» أو «بحق/خلقك». وهو قول ٢٠٣/١ أبي يوسف، قال أبو يوسف: بمعقد العز من عرشه هو الله فلا أكره هذا، وأكره أن يقول: بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام.

قال القدوري: المسألة بخلقه لا تجوز؛ لأنه لا حق للخلق على الخالق فلا تجوز وفاقاً. وهذا الذي قاله أبو حنيفة وأصحابه - من أن الله لا يسأل بمخلوق - له معنيان:

أحدهما: هو موافق لسائر الأئمة الذين يمنعون أن يقسم أحد بالمخلوق، فإنه إذا منع أن يقسم على مخلوق بمخلوق، فلأن يمنع أن يقسم على الخالق بمخلوق أولى وأحرى. وهذا بخلاف إقسامه سبحانه بمخلوقاته كـ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ، وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١، ٢]، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ [النازعات: ١]، ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١]، فإن إقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه، بخلاف المخلوق، فإن إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها، كما في السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»، وقد صححه الترمذي وغيره^(٢)، وفي لفظ: «فقد كفر» وقد صححه الحاكم^(٣). وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»^(٤)، وقال:

(١) أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان المعروف بأبي الحسين القدوري، فقيه حنفي وانتهت إليه رئاسة الحنفية في العراق، ولد سنة ٣٦٢هـ، وتوفي سنة ٤٢٨هـ. [تاريخ بغداد ٣٧٧/٤، وفيات الأعيان ٧٨/١].

(٢) سبق تخريجه ص ٦٣.

(٣) الحاكم ١٨/١ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

(٤) البخاري في الشهادات (٢٦٧٩)، ومسلم في الإيمان (٣/١٦٤٦) كلاهما عن عبد الله بن مسعود.

« لا تحلفوا بآبائكم ، فإن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم » (١) ، وفي الصحيحين عنه أنه ٢٠٤/١ قال : « من حلف باللات والعزى فليقل : لا إله إلا الله » (٢) . وقد اتفق المسلمون على أنه من حلف بالمخلوقات المحترمة ، أو بما يعتقد هو حرمة كالعرش ، والكرسي ، والكعبة ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجد النبي ﷺ ، والملائكة ، والصالحين ، والملوك ، وسيوف المجاهدين ، وترب الأنبياء والصالحين ، وأيمان البندق ، وسراويل الفتوة ، وغير ذلك لا ينعقد يمينه ، ولا كفارة في الحلف بذلك .

والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور ، وهو مذهب أبى حنيفة وأحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد ، وقد حكى إجماع الصحابة على ذلك . وقيل : هي مكروهة كراهة تنزيه ، والأول أصح ، حتى قال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر : لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغير الله صادقا . وذلك لأن الحلف بغير الله شرك ، والشرك أعظم من الكذب . إنما نعرف النزاع في الحلف بالأنبياء ، فعن أحمد في الحلف بالنبي ﷺ روايتان :

إحدهما : لا ينعقد اليمين به كقول الجمهور : مالك وأبى حنيفة والشافعي .

والثانية : ينعقد اليمين به ، واختار ذلك طائفة من أصحابه كالقاضي وأتباعه ، وابن المنذر وافق هؤلاء . وقصر أكثر هؤلاء النزاع في ذلك على النبي ﷺ خاصة ، وعدى ابن عقيل هذا الحكم إلى سائر الأنبياء . وإيجاب الكفارة بالحلف بمخلوق - وإن كان نبيا - قول ضعيف في الغاية ، مخالف للأصول والنصوص/، فالإقسام به على الله - والسؤال به بمعنى الإقسام - هو من هذا الجنس .

وأما السؤال بالمخلوق إذا كانت فيه باء السبب ليست باء القسم - وبينهما فرق - فإن النبي ﷺ أمر بإبرار القسم ، وثبت عنه في الصحيحين أنه قال : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » قال ذلك لما قال أنس بن النضر : أتكسر ثنية الربيع ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق لا تكسر سننها . فقال : « يا أنس ، كتاب الله القصاص » ، فرضي القوم وعفوا ، فقال ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » (٣) ، وقال : « رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » رواه مسلم وغيره (٤) ، وقال : « ألا أخبركم بأهل

(١) البخاري في الأيمان (٦٦٤٧) ، ومسلم في الأيمان (١/١٦٤٦) ، كلاهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) البخاري في الأيمان (٦٦٥٠) ، ومسلم في الأيمان (٥/١٦٥٧) ، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) البخاري في الصلح (٢٧٠٣) ، ومسلم في القسامة (٢٤/١٦٧٥) ، كلاهما عن أنس رضي الله عنه .

(٤) مسلم في البر والصلة (١٣٨/٢٦٢٢) ، وفي الجنة وصفة نعيمها (٤٨/٢٨٥٤) وابن حبان في المعجزات

(٦٤٤٩) ، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ^(١) مستكبر» وهذا في الصحيحين^(٢).

وكذلك حديث أنس بن النضر والآخر من أفراد مسلم. وقد روى في قوله: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» أنه قال: «منهم البراء بن مالك» وكان البراء إذا اشتدت الحرب بين المسلمين والكفار يقولون: يا براء أقسم على ربك. فيقسم على الله فتنهزم الكفار. فلما كانوا على قنطرة بالسوس قالوا: يا براء، أقسم على ربك. فقال: يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم، وجعلتني أول شهيد. فأبر الله قسمه فانهمز العدو واستشهد البراء بن مالك يومئذ. وهذا هو أخو أنس بن مالك، قتل مائة رجل مبارزة غير من شرك في دمه، وحمل يوم مسيلمة على ترس ورمى به إلى الحديقة حتى فتح الباب. ٢٠٦/١

والإقسام به على الغير أن يحلف المقسم على غيره ليفعلن كذا، فإن حشه ولم يبر قسمه فالكفارة على الخالف لا على المحلوف عليه عند عامة الفقهاء، كما لو حلف على عبده أو ولده أو صديقه ليفعلن شيئاً ولم يفعله، فالكفارة على الخالف الحادث.

وأما قوله: «سألتك بالله أن تفعل كذا» فهذا سؤال وليس بقسم، وفي الحديث: «من سألكم بالله فأعطوه»^(٣) ولا كفارة على هذا إذا لم يجب سؤاله. والخلق كلهم يسألون الله، مؤمنهم وكافرهم، وقد يجيب الله دعاء الكفار، فإن الكفار يسألون الله الرزق فيرزقهم ويسقيهم، وإذا مسهم الضر في البحر ضل من يدعون إلا إياه، فلما نجاهم إلى البر أعرضوا وكان الإنسان كفوراً وأما الذين يقسمون على الله فيبر قسمهم فإنهم ناس مخصوصون. فالسؤال كقول السائل لله: أسألك بأن لك الحمد، أنت الله المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام. وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وأسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك.

فهذا سؤال الله تعالى بأسمائه وصفاته، وليس ذلك إقساماً عليه؛ فإن أفعاله هي مقتضى أسمائه وصفاته، فمغفرته ورحمته من مقتضى اسمه الغفور الرحيم، وعفوه من

(١) العتل: الشديد الجافي والفظ الغليظ من الناس. والجواظ: الكثير اللحم المختال في مشيته، انظر: النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٨٠، ٣١٦/١.

(٢) البخاري في الأدب (٦٠٧١)، ومسلم في الجنة (٤٦/٢٨٥٣) كلاهما عن حارثة بن وهب.

(٣) أبو داود في الزكاة (١٦٧٢)، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٧)، وأحمد ٢/ ٦٨، ٩٦، ٩٩ كلهم عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنه.

٢٠٧/١ مقتضى اسمه العفو؛ ولهذا لما قالت عائشة للنبي ﷺ: إن وافقت ليلة القدر ماذا أقول؟ قال: «قولى: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»^(١).

وهدايته ودلالته من مقتضى اسمه الهادى ، وفى الأثر المنقول عن أحمد بن حنبل أنه أمر رجلاً أن يقول: يا دليل الحيارى ، دلنى على طريق الصادقين ، واجعلنى من عبادك الصالحين .

وجميع ما يفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب ؛ ولهذا يقال فى الدعاء: يا رب، يا رب، كما قال آدم: ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] وقال إبراهيم: ﴿رَبِّنَا إِنِّي أَشْكُنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي يَوَادِّ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وكذلك سائر الأنبياء . وقد كره مالك وابن أبي عمران من أصحاب أبى حنيفة وغيرهما أن يقول الداعى: يا سيدى، يا سيدى، ياسيدى . وقالوا: قل كما قالت الأنبياء: رب، رب، واسمه «الحى القيوم» يجمع أصل معانى الأسماء والصفات، كما قد بسط هذا فى غير هذا الموضع؛ ولهذا كان النبى ﷺ يقول إذا اجتهد فى الدعاء .

فإذا سئل المسؤول بشىء - والباء للسبب - سئل بسبب يقتضى وجود المسؤول .

فإذا قال: أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان، بديع السموات والأرض، كان كونه محموداً مثناً، بديع السموات والأرض يقتضى أن يمين على عبده السائل، وكونه محموداً هو يوجب أن يفعل ما يحمد عليه، وحمد العبد له سبب إجابة دعائه؛ ولهذا أمر المصلى أن يقول: «سمع الله لمن حمده» أى استجاب الله دعاء من حمده ، فالسماع هنا بمعنى الإجابة والقبول كقوله ﷺ: «أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشيع ، ومن دعاء لا يسمع»^(٢) أى لا يستجاب .

ومنه قول الخليل فى آخر دعائه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ومنه قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] وقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾

(١) الترمذى فى الدعوات (٣٥١٣) وقال: «هذا حديث صحيح» ، وابن ماجه فى الدعاء (٣٨٥٠) ، وأحمد ١٧١/٦ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٨ .

(٢) مسلم فى الذكر (٢٧٢٢/٧٣) ، وأبو داود فى الصلاة (١٥٤٨) ، والترمذى فى الدعوات (٣٤٨٢) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب» ، والنسائى فى الاستعاذة (٥٤٥٩) ، (٥٤٦٧) ، وابن ماجه فى المقدمة (٢٥٠) ، وأحمد ١٦٧/٢ ، ١٩٨ ، ٣٤٠ .

سَكَتُونُ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ ﴿٤١﴾ [المائدة: ٤١] أي: يقبلون الكذب، ويقبلون من قوم آخرين لم يأتوك ؛ ولهذا أمر المصلي أن يدعو بعد حمد الله بعد التشهد المتضمن الثناء على الله - سبحانه.

وقال النبي ﷺ لمن رآه يصلي ويدعو، ولم يحمد ربه ولم يصل على نبيه فقال: «عَجَلْ هَذَا»، ثم دعاه فقال: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَلْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَلْيَدْعُ بَعْدَ مَا شَاءَ»، أخرجه أبو داود والترمذي وصححه (١).

وقال عبد الله بن مسعود: كنت أصلي والنبي ﷺ وأبو بكر وعمر معه، فلما جلست بدأت بالثناء على الله ثم بالصلاة على نبيه، ثم دعوت لنفسي فقال النبي ﷺ: «سَلْ تَعْطَهُ». رواه الترمذي وحسنه (٢).

فلفظ السمع يراد به إدراك الصوت، ويراد به معرفة المعنى مع ذلك، ويراد به القبول ٢٠٩/١ والاستجابة مع الفهم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ على هذه الحال التي هم عليها لم يقبلوا الحق ثم ﴿لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فذمهم بأنهم لا يفهمون القرآن ولو فهموه لم يعملوا به. وإذا قال السائل لغيره: أسأل بالله، فإنما سأله بإيمانه بالله، وذلك سبب لإعطاء من سأله به، فإنه سبحانه يحب الإحسان إلى الخلق، لا سيما إن كان المطلوب كف الظلم، فإنه يأمر بالعدل وينهى عن الظلم، وأمره أعظم الأسباب في حض الفاعل، فلا سبب أولى من أن يكون مقتضيا لمسببه من أمر الله تعالى.

وقد جاء في حديث رواه أحمد في مسنده وابن ماجه، عن عطية العوفى عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه عَلَّمَ الخارج إلى الصلاة أن يقول في دعائه: «وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ وَبِحَقِّ مِمَّا شِئْتَ هَذَا، فَإِنِّي لَمْ أَخْرَجْ أَشْرًا وَلَا بَطْرًا وَلَا رِيَاءً وَلَا سَمْعَةً، وَلَكِنْ خَرَجْتُ اتِّقَاءَ سَخَطِكَ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ» (٣).

فإن كان هذا صحيحاً فحق السائلين عليه أن يجيبهم، وحق العابدين له أن يشيهم،

(١) أبو داود في الصلاة (١٤٨١)، والترمذي في الدعوات (٣٤٧٧) وقال: «حديث حسن صحيح»، كلاهما عن فضالة بن عبيد.

(٢) الترمذي في الصلاة (٥٩٣) وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) ابن ماجه في المساجد (٧٧٨) وقال البوصيري في الزوائد: «هذا إسناد مسلسل بالضعفاء. لكن رواه ابن خزيمة في صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق، فهو صحيح عنده»، وأحمد ٢١/٣. والأشهر: البطر، وقيل: أشد البطر. انظر: النهاية في غريب الحديث ٥١/١.

وهو حق أوجه على نفسه لهم، كما يسأل بالإيمان والعمل الصالح الذى جعله سبباً لإجابة الدعاء كما في قوله تعالى: ﴿وَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَبَزِيْدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ [الشورى: ٢٦].

٢١٠/١ وكما يسأل بوعده؛ لأن وعده يقتضى إنجاز ما وعده، ومنه قول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيْمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيْمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوسَىٰ سَخِرَاءً حَتَّىٰ ائْتَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ [المؤمنون: ١٠٩، ١١٠].

ويشبه هذا مناشدة النبي ﷺ يوم بدر حيث يقول: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى» (١) وكذلك ما فى التوراة: أن الله تعالى غضب على بنى إسرائيل، فجعل موسى يسأل ربه ويذكر ما وعد به إبراهيم، فإنه سأل به سابق وعده لإبراهيم.

ومن السؤال بالأعمال الصالحة: سؤال الثلاثة الذين أووا إلى غار، فسأل كل واحد منهم بعمل عظيم أخلص فيه لله؛ لأن ذلك العمل مما يحبه الله ويرضاه، محبة تقتضى إجابة صاحبه. هذا سأل بربه لوالديه، وهذا سأل بعفته التامة، وهذا سأل بأمانته وإحسانه (٢).

وكذلك كان ابن مسعود يقول وقت السحر: «اللهم أمرتنى فأطعتك، ودعوتنى فأجبتك، وهذا سحر فاغفر لى»، ومنه حديث ابن عمر: أنه كان يقول على الصفا: «اللهم إنيك قلت - وقولك الحق -: ﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وإنك لا تخلف الميعاد» (٣)، ثم ذكر الدعاء المعروف عن ابن عمر أنه كان يقوله على الصفا.

٢١١/١ فقد تبين أن قول القائل: «أسألك بكذا» نوعان: فإن الباء قد تكون/للقسم، وقد تكون للسبب، فقد تكون قسماً به على الله، وقد تكون سؤالاً بسببه.

فأما الأول: فالقسم بال مخلوقات لا يجوز على المخلوق فكيف على الخالق؟

وأما الثانى - وهو السؤال بالمعظم -: كالسؤال بحق الأنبياء فهذا فيه نزاع، وقد تقدم عن

(١) مسلم فى الجهاد والسير (٥٨/١٧٦٣)، والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٨١) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب» وأحمد ١/٣٠، ٣٢. كلهم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

(٢) البخارى فى الأنبياء (٣٤٦٤)، ومسلم فى الزهد (١٠/٢٩٦٤).

(٣) مالك فى الحج ١/٣٧٢ (١٢٨).

أبي حنيفة وأصحابه أنه لا يجوز ذلك. ومن الناس من يجوز ذلك، فنقول : قول السائل لله تعالى : « أسألك بحق فلان وفلان من الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ، أو بجاه فلان أو بحرمة فلان » يقتضى أن هؤلاء لهم عند الله جاه، وهذا صحيح.

فإن هؤلاء لهم عند الله منزلة وجاه وحرمة يقتضي أن يرفع الله درجاتهم ويعظم أقدارهم ويقبل شفاعتهم إذا شفّعوا، مع أنه سبحانه قال : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ويقتضي أيضاً أن من اتبعهم اقتدى بهم فيما سن له الاقتداء بهم فيه، كان سعيداً، ومن أطاع أمرهم الذي بلغوه عن الله كان سعيداً، ولكن ليس نفس مجرد قدرهم وجاههم مما يقتضي إجابة دعائه إذا سأل الله بهم حتى يسأل الله بذلك، بل جاههم ينفعه أيضاً إذا اتبعهم وأطاعهم فيما أمروا به عن الله، أو تأسى بهم فيما سنوه للمؤمنين، وينفعه أيضاً إذا دعوا له وشفّعوا فيه.

فأما إذا لم يكن منهم دعاء ولا شفاعاة، ولا منه سبب يقتضي الإجابة، لم يكن متشفّعاً بجاههم، ولم يكن سؤاله بجاههم نافعاً له عند الله، بل يكون قد سأل بأمر أجنبي ٢١٢/١ عنه ليس سبباً لنفعه، ولو قال الرجل لمطاع كبير : «أسألك بطاعة فلان لك، وبحبك له على طاعتك، وبجاهه عندك الذي أوجبه طاعته لك، لكان قد سأل به بأمر أجنبي لا تعلق له به، فكذلك إحسان الله إلى هؤلاء المقربين ومحبة لهم وتعظيمه لأقدارهم مع عبادتهم له وطاعتهم إياه ليس في ذلك ما يوجب إجابة دعاء من يسأل بهم، وإنما يوجب إجابة دعائه بسبب منه لطاعته لهم، أو سبب منهم لشفاعتهم له، فإذا انتفى هذا وهذا فلا سبب.

نعم، لو سأل الله بإيمانه بمحمد ﷺ ومحبة له وطاعته له واتباعه، لكان قد سأل به سبب عظيم يقتضي إجابة الدعاء، بل هذا أعظم الأسباب والوسائل، والنبى ﷺ بين أن شفاعته في الآخرة تنفع أهل التوحيد لا أهل الشرك، وهي مستحقة لمن دعا له بالوسيلة كما في الصحيح أنه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغى إلا لعباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة »^(١)، وفي الصحيح أن أبا هريرة قال له : أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة؟ قال : « من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه »^(٢).

(١) سبق تخريجه ص ١٠٠ .

(٢) البخاري في العلم (٩٩) .

فبين ﷺ أن أحق الناس بشفاعته يوم القيامة من كان أعظم توحيداً وإخلاصاً؛ لأن التوحيد جماع الدين، والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فهو سبحانه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فإذا شفع محمداً ﷺ حدَّ له ربه حدّاً فيدخلهم الجنة، ٢١٣/١ وذلك بحسب ما يقوم بقلوبهم من التوحيد والإيمان. وذكر ﷺ أنه من سأل الله له الوسيلة حلت عليه شفاعته يوم القيامة، فبين أن شفاعته تنال باتباعه بما جاء به من التوحيد والإيمان. وبالدعاء الذي سن لنا أن ندعو له به.

وأما السؤال بحق فلان فهو مبني على أصليين:

أحدهما: ما له من الحق عند الله. والثاني: هل نسأل الله بذلك كما نسأل بالجاه والحرمة؟

أما الأول فمن الناس من يقول: للمخلوق على الخالق حق يعلم بالعقل، وقاس المخلوق على الخالق، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة وغيرهم. ومن الناس من يقول: لا حق للمخلوق على الخالق بحال، لكن يعلم ما يفعله بحكم وعده وخبره، كما يقول ذلك من يقوله من أتباع جهم والأشعري وغيرهما، ممن ينتسب إلى السنة.

ومنهم من يقول: بل كتب الله على نفسه الرحمة، وأوجب على نفسه حقاً لعباده المؤمنين كما حرم الظلم على نفسه، لم يوجب ذلك مخلوق عليه ولا يقاس بمخلوقاته، بل هو بحكم رحمته وحكمته وعدله كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم، كما قال في الحديث الصحيح الإلهي: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»^(١). وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وفي الصحيحين عن معاذ، عن النبي ﷺ ٢١٤/١ أنه قال: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على عباده؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. يا معاذ، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حقهم عليه ألا يعذبهم»^(٢). فعلى هذا القول لأنبيائه وعباده الصالحين عليه سبحانه حق أوجبه على نفسه مع إخباره، وعلى الثاني يستحقون ما أخبر بوقوعه، وإن لم يكن ثم سبب يقتضيه.

فمن قال: ليس للمخلوق على الخالق حق يسأل به - كما روى أن الله تعالى قال

(١) مسلم في البر والصلة والآداب (٥٥/٢٥٧٧)، وأحمد ٥/١٦٠، كلاهما عن أبي ذر رضي الله عنه.
(٢) البخاري في التوحيد (٧٣٧٣)، ومسلم في الإيمان (٤٨/٣٠)، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في الزهد (٤٢٩٦).

لداود : « وأي حق لأبائك عليّ ؟ » (١) - فهو صحيح إذا أريد بذلك أنه ليس للمخلوق عليه حق بالقياس والاعتبار على خلقه كما يجب للمخلوق على المخلوق ، وهذا كما يظنه جهال العباد من أن لهم على الله سبحانه حقاً بعبادتهم .

وذلك أن النفوس الجاهلية تتخيل أن الإنسان بعبادته وعلمه بصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق ، كالذين يخدمون ملوكهم وملاكهم ، فيجلبون لهم منفعة ، ويدفعون عنهم مضرة ويبقى أحدهم يتقاضى العوض والمجازاة على ذلك ، ويقول له عند جفاء أو إعراض يراه منه : ألم أفعل كذا ؟ يمين عليه بما يفعله معه ، وإن لم يقله بلسانه كان ذلك في نفسه .

وتخيّل مثل هذا في حق الله تعالى من جهل الإنسان وظلمه ، ولهذا بيّن سبحانه أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه ، وأن الله غني عن الخلق ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِن أَحْسَنُكُمْ أَحْسَنُ لَأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : ٧] ، وقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] ، وقوله تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ ٢١٥/١

عَنِ عَنكُم وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴿[الزمر: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رُبِّي عَنِّي كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال تعالى في قصة موسى - عليه السلام -: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ. وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنَبَصُرُوا اللَّهَ شَبَعًا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقد بين - سبحانه - أنه المأبى بالعمل فقال تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَيْكَ أَنْ هَدَيْتَهُمْ لِلْإِيمَانِ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنْ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ طَبِغَكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمَرَاءِ لَعَنَتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانِ وَزَنَنْتُمْ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهْتُمْ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضَلَا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

(١) الهشمي في مجمع الزوائد ٨ / ٢٠٥ وقال : « رواه البزار من رواية أبي سعيد عن علي بن زيد وأبو سعيد لم أعرفه ، وعلى بن زيد ضعيف وقد وثق » .

وفي الحديث الصحيح الإلهي : «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني». يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أباي، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم/مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»^(١).

وبين الخالق تعالى والمخلوق من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى بصيرة.

منها: أن الرب تعالى غني بنفسه عما سواه، ويمتنع أن يكون مفتقراً إلى غيره بوجه من الوجوه. والملوك وسادة العبيد محتاجون إلى غيرهم حاجة ضرورية.

ومنها: أن الرب تعالى وإن كان يحب الأعمال الصالحة ويرضى ويفرح بتوبة التائبين فهو الذي يخلق ذلك ويسره فلم يحصل ما يحبه ويرضاه إلا بقدرته ومشئته. وهذا ظاهر على مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقرون بأن الله هو المنعم على عباده بالإيمان بخلاف القدريّة. والمخلوق قد يحصل له ما يحبه بفعل غيره.

ومنها: أن الرب تعالى أمر العباد بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم، كما قال قتادة: إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم، ولا ينهاهم عما نهاهم عنه بخلا عليهم، بل أمرهم بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم. بخلاف المخلوق الذي يأمر غيره بما يحتاج إليه وينهاه عما ينهاه بخلا عليه. وهذا أيضاً ظاهر على مذهب السلف وأهل السنة الذين يثبتون حكمته ورحمته، ويقولون: إنه لم يأمر العباد إلا بخير ينفعهم، ولم ينههم إلا عن شر يضرهم، بخلاف المجبرة الذين يقولون: إنه قد يأمرهم بما يضرهم وينهاهم عما ينفعهم.

ومنها: أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وهو المنعم بالقدرة والحواس وغير ذلك مما به يحصل العلم والعمل الصالح، وهو الهادي لعباده، فلا حول ولا قوة إلا به؛ ولهذا قال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣] وليس يقدر المخلوق على شيء من ذلك.

(١) مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧/٥٥)، وأحمد ١٦٠/٥ كلاهما عن أبي ذر رضى الله عنه.

ومنها : أن نعمه على عباده أعظم من أن تحصى ، فلو قدر أن العبادة جزاء النعمة لم
لم تقم العبادة بشكر قليل منها ، فكيف والعبادة من نعمته أيضاً ؟

ومنها أن العباد لا يزالون مقصرين محتاجين إلى عفوه ومغفرته ، فلن يدخل أحد

الجنة بعمله ، وما من أحد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة الله لها ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ
النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبَةٍ ﴾ [فاطر : ٤٥] ، وقوله ﷺ : « لن يدخل
أحد منكم الجنة بعمله »^(١) ، لا يناقض قوله تعالى : ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف :
١٤ ، الواقعة : ٢٤] .

فإن المنفي نفى بقاء المقابلة والمعاوضة ، كما يقال : بعت هذا بهذا ، وما أثبت أثبت
ببغاء السبب ، فالعمل لا يقابل الجزاء وإن كان سبباً للجزاء ؛ ولهذا من ظن أنه قام بما
يجب عليه وأنه لا يحتاج إلى مغفرة الرب تعالى وعفوه ، فهو ضال ، كما ثبت في
الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « لن يدخل أحد الجنة بعمله » ، قالوا : ولا أنت
يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل »^(٢) وروى
« بمغفرته »^(٣) ، ومن هذا أيضاً : الحديث الذي في السنن عن النبي ﷺ أنه قال : « إن
الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت
رحمته لهم خيراً من أعمالهم » الحديث^(٤) .

ومن قال : بل للمخلوق على الله حق ، فهو صحيح إذا أراد به الحق الذي أخبر الله ٢١٨/١
بوقوعه ، فإن الله صادق لا يخلف الميعاد ، وهو الذي أوجبه على نفسه بحكمته وفضله
ورحمته ، وهذا المستحق لهذا الحق إذا سأل الله تعالى به يسأل الله تعالى إنجاز وعده ، أو
يسأله بالأسباب التي علق الله بها المسببات كالأعمال الصالحة ، فهذا مناسب ، وأما غير
المستحق لهذا الحق إذا سأل به بحق ذلك الشخص فهو كما لو سأل به بجاه ذلك الشخص ،
وذلك سؤال بأمر أجنبي عن هذا السائل لم يسأله بسبب يناسب إجابة دعائه .

وأما سؤال الله بأسمائه وصفاته التي تقتضي ما يفعله بالعباد من الهدى والرزق
والنصر ، فهذا أعظم ما يسأل الله تعالى به . فقول المنازع : لا يسأل بحق الأنبياء ، فإنه لاحق
للمخلوق على الخالق : ممنوع فإنه قد ثبت في الصحيحين حديث معاذ الذي تقدم إيراده ،

(١) البخاري في المرضى (٥٦٧٣) ، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨١٦ / ٧٥) ، وأحمد ٢ / ٣٥٦ ، ٤٧٣ ،
والطبراني في الكبير ٧ / ٣٠٨ (٧٢١٨) ، وذكره الهيثمي في المجمع ١٠ / ٣٦٠ وقال : « رواه الطبراني
بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح » .

(٢) انظر : تخريج الحديث السابق . (٣) مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٦ / ٧٣) .

(٤) أبو داود في السنة (٤٦٩٩) ، وابن ماجه في المقدمة (٧٧) ، وأحمد ٥ / ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٩ .

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

فيقال للمنازع: الكلام في هذا في مقامين:

أحدهما: في حق العباد على الله.

والثاني: في سؤاله بذلك الحق.

أما الأول: فلا ريب أن الله تعالى وعد المطيعين بأن يثيبهم، ووعد السائلين بأن يجيبهم، وهو الصادق الذي لا يخلف الميعاد، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعِدَّهُ رَسُولُهُ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، فهذا مما يجب

٢١٩/١ وقوعه/بحكم الوعد باتفاق المسلمين. وتنازعوا: هل عليه واجب بدون ذلك؟ على ثلاثة أقوال، كما تقدم.

قيل: لا يجب لأحد عليه حق بدون ذلك.

وقيل: بل يجب عليه واجبات ويحرم عليه محرمات بالقياس على عبادته.

وقيل: هو أوجب على نفسه وحرم على نفسه، فيجب عليه ما أوجبه على نفسه، ويحرم عليه ما حرمه على نفسه، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي ذر، كما تقدم.

والظلم ممتنع منه باتفاق المسلمين، لكن تنازعوا في الظلم الذي لا يقع، فقيل: هو الممتنع وكل ممكن يمكن أن يفعله لا يكون ظلماً؛ لأن الظلم إما التصرف في ملك الغير، وإما مخالفة الأمر الذي يجب عليه طاعته، وكلاهما ممتنع منه.

وقيل: الظلم وضع الشيء في غير موضعه، فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئاً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِرٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]. قال المفسرون: هو أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه، والهضم أن يهضم من حسناته، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]

٢٢٠/١ وأما المقام الثاني: فإنه يقال: ما بين الله ورسوله أنه حق للعباد على الله فهو/حق، لكن الكلام في السؤال بذلك، فيقال: إن كان الحق الذي سأل به سبباً لإجابة السؤال حسن السؤال به، كالحق الذي يجب لعباده وسائليه.

وأما إذا قال السائل: بحق فلان وفلان، فأولئك إذا كان لهم عند الله حق ألا يعذبهم وأن يكرمهم بثوابه ويرفع درجاتهم - كما وعدهم بذلك وأوجبه على نفسه - فليس في استحقاق أولئك ما استحقوه من كرامة الله ما يكون سبباً لمطلوب هذا السائل، فإن ذلك استحق ما استحقه بما يسره الله له من الإيمان والطاعة . وهذا لا يستحق ما استحقه ذلك . فليس في إكرام الله لذلك سبب يقتضي إجابة هذا .

وإن قال : السبب هو شفاعته ودعاؤه فهذا حق، إذا كان قد شفع له ودعا له، وإن لم يشفع له ولم يدع له لم يكن هناك سب

وإن قال : السبب هو محبتي له وإيماني به وموالاتي له، فهذا سبب شرعي، وهو سؤال الله وتوسل إليه بإيمان هذا السائل ومحبته لله ورسوله، وطاعته لله ورسوله، لكن يجب الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله : فمن أحب مخلوقاً كما يحب الخالق فقد جعله نداً لله ، وهذه المحبة تضره ولا تنفعه ، وأما من كان الله تعالى أحب إليه مما سواه ، وأحب أنبياءه وعباده الصالحين له ، فحبه لله تعالى هو أنفع الأشياء ، والفرق بين هذين من اعظم الأمور .

فإن قيل : إذا كان التوسل بالإيمان به ومحبته وطاعته على وجهين - تارة يتوسل بذلك إلى ثوابه وجنته، وهذا أعظم الوسائل، وتارة يتوسل بذلك في الدعاء كما ذكرتم ٢٢١/١ نظائره - فيحمل قول القائل: أسألك بنبيك محمد ، على أنه أراد : إني أسألك بإيماني به وبمحبته، وأتوسل إليك بإيماني به ومحبته، ونحو ذلك، وقد ذكرتم أن هذا جائز بلا نزاع . قيل : من أراد هذا المعنى فهو مصيب في ذلك بلا نزاع، وإذا حمل على هذا المعنى كلام من توسل بالنبي ﷺ بعد مماته من السلف - كما نقل عن بعض الصحابة والتابعين وعن الإمام أحمد وغيره - كان هذا حسناً، وحيث فلا يكون في المسألة نزاع . ولكن كثير من العوام يطلقون هذا اللفظ ولا يريدون هذا المعنى، فهؤلاء الذين أنكروا عليهم من أنكروا .

وهذا كما أن الصحابة كانوا يريدون بالتوسل به التوسل بدعائه وشفاعته ، وهذا جائز بلا نزاع، ثم إن أكثر الناس في زماننا لا يريدون هذا المعنى بهذا اللفظ .

فإن قيل : فقد يقول الرجل لغيره: بحق الرحم، قيل : الرحم توجب على صاحبها حقاً لذي الرحم، كما قال الله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء : ١] وقال النبي ﷺ : «الرحم شَجَنَةٌ» (١) من الرحم، من وصلها وصله الله ومن قطعها

(١) شَجَنَةٌ: أي قرابة مُشْتَبِكَةٌ كاشتباك العروق. انظر: النهاية في غريب الحديث ٤٤٧/٢.

قطعه الله» (١) وقال : « لما خلق الله الرحم تعلق بحق الرحمن (٢) وقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى قد رضيت » (٣) ، وقال ﷺ : « يقول الله تعالى : أنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بته » (٤) . ٢٢٢/١

وقد روى عن علي أنه كان إذا سأله ابن أخيه بحق جعفر أبيه ، أعطاه لحق جعفر على علي . وحق ذي الرحم باق بعد موته ، كما في الحديث : أن رجلا قال : يا رسول الله ، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : « نعم ، الدعاء لهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عدهما من بعدهما ، وصلة رحمك التي لا رحم لك إلا من قبلهما » (٥) ، وفي الحديث الآخر - حديث ابن عمر - : « من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي » (٦) . فصلة أقارب الميت وأصدقائه بعد موته هو من تمام بره .

والذي قاله أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم من العلماء - من أنه لا يجوز أن يسأل الله تعالى بمخلوق : لا بحق الأنبياء ولا غير ذلك - يتضمن شيئين - كما تقدم - :

أحدهما : الإقسام على الله - سبحانه وتعالى - به ، وهذا منهي عنه عند جماهير العلماء كما تقدم ، كما نهى أن يقسم على الله بالكعبة والمشاعر باتفاق العلماء .

والثاني : السؤال به ، فهذا يجوز طائفة من الناس ، ونقل في ذلك آثار عن بعض السلف ، وهو موجود في دعاء كثير من الناس ، لكن ما روى عن النبي ﷺ في ذلك كله ضعيف بل موضوع . وليس عنه حديث ثابت قد يظن أن لهم فيه حجة ، إلا حديث الأعمى الذي علمه أن يقول : « أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة » (٧) ، وحديث الأعمى لا حجة لهم فيه ، فإنه صريح في أنه إنما توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته ، وهو طلب من النبي ﷺ الدعاء ، وقد أمره النبي ﷺ أن يقول : « اللهم شفعه في » (٨) . ٢٢٣/١

(١) البخارى في الأدب (٥٩٨٨) ، والترمذى في البر والصلة (١٩٢٤) وقال : « حديث حسن صحيح » ، وأحمد ٢ / ١٦٠ ، ٣٨٣ .

(٢) أي استمسكت واعتصمت به . أي لما جعل الرحم شجنة من الرحمن استعار لها الاستمسك به . انظر : النهاية في غريب الحديث ١ / ٤١٧ .

(٣) أحمد ٢ / ٣٣٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أحمد ١ / ١٩٤ عن عبد الرحمن بن عوف .

(٥) أبو داود في الأدب (٥١٤٢) ، وأحمد ٣ / ٤٩٨ عن أبي أسيد رضي الله عنه .

(٦) مسلم في البر والصلة (٢٥٥٢ / ١٣) ، وأبو داود في الأدب (٥١٤٣) ، والترمذى في البر والصلة (١٩٠٣) وقال : « هذا إسناد صحيح » وأحمد ٢ / ٨٨ ، ٩١ .

(٧ ، ٨) سبق تخريجهما ص ٨٠ .

ولهذا رد الله عليه بصره لما دعا له النبي ﷺ، وكان ذلك مما يعد من آيات النبي ﷺ. ولو توسل غيره من العميان، الذين لم يدع لهم النبي ﷺ بالسؤال به، لم تكن حالهم كحاله.

ودعاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الاستسقاء المشهور بين المهاجرين والأنصار، وقوله: «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا»^(١) يدل على أن التوسل المشروع عندهم هو التوسل بدعائه وشفاعته لا السؤال بذاته؛ إذ لو كان هذا مشروعاً لم يعدل عمر والمهاجرون والأنصار عن السؤال بالرسول إلى السؤال بالعباس.

وشاع النزاع في السؤال بالأنبياء والصالحين، دون الإقسام بهم؛ لأن بين السؤال والإقسام فرقاً، فإن السائل متضرع ذليل يسأل بسبب يناسب الإجابة، والمقسم أعلى من هذا، فإنه طالب مؤكد طلبه بالقسم، والمقسم لا يقسم إلا على من يرى أنه يبر قسمه، فإبرار القسم خاص ببعض العباد.

وأما إجابة السائلين فعام؛ فإن الله يجيب دعوة المضطر ودعوة المظلوم وإن كان كافراً، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من داع يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له من الخير مثلاً، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلاً» قالوا: يا رسول الله، إذا ٢٢٤/١ نكث. قال: «الله أكثر»^(٢). وهذا التوسل بالأنبياء بمعنى السؤال بهم - وهو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم أنه لا يجوز - ليس في المعروف من مذهب مالك ما يناقض ذلك، فضلاً أن يجعل هذا من مسائل السب، فمن نقل عن مذهب مالك أنه جوز التوسل به، بمعنى الإقسام به أو السؤال به، فليس معه في ذلك نقل عن مالك وأصحابه، فضلاً عن أن يقول مالك: إن هذا سب للرسول أو تنقص له، بل المعروف عن مالك أنه كره للداعي أن يقول: يا سيدي، سيدي، وقال: قل كما قالت الأنبياء: يا رب، يا رب، يا كريم. وكره أيضاً أن يقول: يا حنان يا منان. فإنه ليس بمأثور عنه.

فإذا كان مالك يكره مثل هذا الدعاء، إذ لم يكن مشروعاً عنده، فكيف يجوز عنده أن يسأل الله بمخلوق نبياً كان أو غيره، وهو يعلم أن الصحابة لما أجدبوا عام الرمادة لم يسألوا الله بمخلوق، لا نبي ولا غيره، بل قال عمر: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك

(١) سبق تخريجه ص ٨٠.

(٢) الترمذی فی الدعوات (٣٥٧٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وأحمد ٥ /

٣٢٩، كلاهما من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

بنينا فتسقيننا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. فيسقون^(١).

وكذلك ثبت في صحيح مسلم عن ابن عمر وأنس وغيرهما أنهم كانوا إذا أجدبوا إنما يتوسلون بدعاء النبي ﷺ واستسقائه^(٢)، لم ينقل عن أحد منهم أنه كان في حياته ﷺ ٢٢٥/١ سأل الله تعالى بمخلوق، لا به ولا بغيره، لا في الاستسقاء ولا غيره، وحديث الأعمى ستكلم عليه إن شاء الله تعالى، فلو كان السؤال به معروفاً عند الصحابة لقالوا لعمر: إن السؤال والتوسل به أولى من السؤال والتوسل بالعباس، فلم نعدل عن الأمر المشروع الذي كنا نفعله في حياته وهو التوسل بأفضل الخلق إلى أن نتوسل ببعض أقاربه، وفي ذلك ترك السنة المشروعة وعدول عن الأفضل، وسؤال الله تعالى بأضعف السببين مع القدرة على أعلاهما - ونحن مضطرون غاية الاضطرار في عام الرمادة الذي يضرب به المثل في الجذب.

والذي فعله عمر فعل مثله معاوية بحضرة من معه من الصحابة والتابعين، فتوسلوا بيزيد بن الأسود الجُرشي كما توسل عمر بالعباس، وكذلك ذكر الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهم أنه يتوسل في الاستسقاء بدعاء أهل الخير والصلاح، قالوا: وإن كانوا من أقارب رسول الله ﷺ فهو أفضل، اقتداء بعمر، ولم يقل أحد من أهل العلم: إنه يسأل الله تعالى في ذلك لا بنبي ولا بغير نبي.

وكذلك من نقل عن مالك أنه جوز سؤال الرسول أو غيره بعد موتهم أو نقل ذلك عن إمام من أئمة المسلمين - غير مالك - كالشافعي وأحمد وغيرهما فقد كذب عليهم، ولكن بعض الجهال ينقل هذا عن مالك ويستند إلى حكاية مكذوبة عن مالك، ولو كانت صحيحة لم يكن التوسل الذي فيها هو هذا، بل هو التوسل بشفاعته يوم القيامة، ولكن ٢٢٦/١ من الناس من يحرف نقلها، وأصلها ضعيف كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

والقاضي عياض لم يذكرها في كتابه في باب زيارة قبره، بل ذكر هناك ما هو المعروف عن مالك وأصحابه، وإنما ذكرها في سياق أن حرمة النبي ﷺ بعد موته، وتوقيره وتعظيمه لازم، كما كان حال حياته، وكذلك عند ذكره وذكر حديثه، وستته، وسماع اسمه. وذكر عن مالك أنه سئل عن أيوب السخيتاني فقال: ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه. قال: وحج حجتين، فكنت أرمقه فلا أسمع منه غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه.

وقال مصعب بن عبد الله: كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني، حتى

(١) سبق تخريجه ص ٨٠.

(٢) مسلم في صلاة الاستسقاء (٨٩٧ / ٨ - ١٠).

يصعب ذلك على جلسائه. فقليل له يوماً في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيتم لما أنكرتم عليّ ما ترون، لقد كنت أرى محمد بن المُتَكَدِّر - وكان سيد القراء - لا نكاد نسأله عن حديث أبداً إلا يبكي حتى نرحمه. ولقد كنت أرى جعفر بن محمد - وكان كثير الدعابة والتبسم - فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفر لونه، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة. ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صامتا، وإما يقرأ القرآن. ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله. ٢٢٧/١

ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نرف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله ﷺ. ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله ابن الزبير، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع. ولقد رأيت الزهري - وكلن لَمِنْ أهنأ الناس وأقربهم - فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته.

ولقد كنت آتي صفوان بن سليم وكان من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذكر النبي ﷺ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه.

فهذا كله نقله القاضي عياض من كتب أصحاب مالك المعروفة، ثم ذكر حكاية بإسناد غريب منقطع رواها عن غير واحد إجازة، قالوا: حدثنا أبو العباس أحمد بن عمر بن دلهات، قال: حدثنا أبو الحسن علي بن فهر، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرخ، حدثنا أبو الحسن عبد الله بن المتاب، حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا ابن حميد قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله أدب قوماً فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية [الحجرات: ٢]، ومدح قوماً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ الآية [الحجرات: ٣]، وذم قوماً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ الآية [الحجرات: ٤]، وإن حرمة ميتاً كحرمة حياً. فاستكان لها أبو جعفر، فقال: يا أبا عبد الله، أستقبل القبلة وأدعو؟ أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]^(١)، قلت وهذه الحكاية منقطعة؛ فإن محمد بن حميد الرازي لم يدرك مالكا، لاسيما في زمن أبي جعفر المنصور، فإن أباجعفر توفي بمكة سنة ثمان وخمسين ومائة،

(١) انظر: القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٤١/٢-٤٣.

وتوفي مالك سنة تسع وسبعين ومائة وتوفي محمد بن حميد الرازي سنة ثمان وأربعين ومائتين، ولم يخرج من بلده حين رحل في طلب العلم إلا وهو كبير مع أبيه، وهو مع هذا ضعيف عند أكثر أهل الحديث، كذبه أبو زرعة، وابن وارة، وقال صالح بن محمد الأسدي: ما رأيت أحداً أجراً على الله منه وأحذق بالكذب منه. وقال يعقوب بن شيبة: كثير المناكير. وقال النسائي: ليس بثقة. وقال ابن حبان: ينفرد عن الثقات بالمقلوبات. وآخر من روى الموطأ عن مالك هو أبو مصعب وتوفي سنة اثنتين وأربعين ومائتين. وآخر من روى عن مالك على الإطلاق هو أبو حذيفة أحمد بن إسماعيل السهمي توفي سنة تسع وخمسين ومائتين. وفي الإسناد أيضاً من لا تعرف حاله.

وهذه الحكاية لم يذكرها أحد من أصحاب مالك المعروفين بالأخذ عنه، ومحمد بن حميد ضعيف عند أهل الحديث إذا أسند، فكيف إذا أرسل حكاية لا تعرف إلا من جهته؟! هذا إن ثبت عنه، وأصحاب مالك متفقون على أنه بمثل هذا النقل لا يثبت عن مالك قول له في مسألة في الفقه، بل إذا روى عنه الشاميون كالوليد بن مسلم، ومروان ابن محمد الطاطري ضعفوا رواية هؤلاء، وإنما يعتمدون على رواية المدنيين والمصريين، فكيف بحكاية تناقض مذهبه المعروف عنه من وجوه رواها واحد من الخراسانيين لم يدركه وهو ضعيف عند أهل الحديث؟

مع أن قوله: «وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة» إنما يدل على توسل آدم وذريته به يوم القيامة، وهذا هو التوسل بشفاعته يوم القيامة، وهذا حق، كما جاءت به الأحاديث الصحيحة حين تأتي الناس يوم القيامة آدم ليشفع لهم، فيردهم آدم إلى نوح، ثم يردهم نوح إلى إبراهيم، وإبراهيم إلى موسى، وموسى إلى عيسى، ويردهم عيسى إلى محمد ﷺ، فإنه كما قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر»^(١) ولكنها مناقضة لمذهب مالك المعروف من وجوه:

أحدها: قوله: «أستقبل القبله وأدعو، أم أستقبل رسول الله وأدعو؟» فقال: «ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم». فإن المعروف عن مالك وغيره من الأئمة وسائر السلف من الصحابة والتابعين، أن الداعي إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد أن يدعو لنفسه فإنه يستقبل القبله ويدعو في مسجده، ولا يستقبل القبر ويدعو لنفسه، بل إنما يستقبل القبر عند السلام على النبي ﷺ والدعاء له. هذا قول أكثر العلماء كمالك في

(١) الترمذي في تفسير القرآن (٣١٤٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨)، وأحمد ٢/٣ كلهم عن أبي سعيد رضي الله عنه.

إحدى الروایتین والشافعی وأحمد وغيرهم .

وعند أصحاب أبي حنيفة لا يستقبل القبر وقت السلام عليه أيضاً .

ثم منهم من قال : يجعل الحجرة على يساره - وقد رواه ابن وهب عن مالك -
ويسلم عليه .

ومنهم من قال : بل يستدبر الحجرة ويسلم عليه ، وهذا هو المشهور عندهم ، ومع
هذا فكَرَهُ مالك أن يطيل القيام عند القبر لذلك . قال القاضي عياض في المبسوط عن مالك
قال : « لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ يدعو ، ولكن يسلم ويمضي » قال : وقال نافع :
كان ابن عمر يسلم على القبر ، رأته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول : السلام على
النبي ﷺ ، السلام على أبي بكر ، السلام على أبي (١) . ثم ينصرف . ورؤي واضعاً يده
على مقعد النبي من المنبر ثم وضعها على وجهه . قال : وعن ابن أبي قُسيط والقَعْنَبِي كان
أصحاب النبي ﷺ إذا خلا المسجد جسوا برمانة المنبر التي تلقاء القبر بيمانهم ، ثم استقبلوا
القبلة يدعون . قال : وفي الموطأ من رواية يحيى بن يحيى الليثي أنه كان - يعني ابن عمر -
يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي على النبي ﷺ وعلى أبي بكر وعمر ، وعند ابن القاسم
والقَعْنَبِي : ويدعو لأبي بكر وعمر . قال مالك في رواية ابن وهب : يقول : السلام عليك
أيها النبي ورحمة الله وبركاته . وقال في المبسوط : ويسلم على أبي بكر وعمر . / ٢٣١/١

قال أبو الوليد الباجي : وعندي أن يدعو للنبي ﷺ بلفظ الصلاة ولأبي بكر وعمر
بلفظ السلام لما في حديث ابن عمر من الخلاف . وهذا الدعاء يفسر الدعاء المذكور في
رواية ابن وهب ، قال مالك في رواية ابن وهب : إذا سلم على النبي ﷺ ودعا يقف
ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدنو ويسلم ولا يمس القبر . فهذا هو السلام عليه والدعاء
له بالصلاة عليه - كما تقدم تفسيره .

وكذلك كل دعاء ذكره أصحابه كما ذكر ابن حبيب في الواضحة وغيره قال : وقال
مالك في المبسوط : وليس يلزم من دخل المسجد وخرج من أهل المدينة الوقوف بالقبر ،
وإنما ذلك للغرباء . وقال فيه أيضاً : ولا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر ، أن
يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر . قيل له : فإن ناساً من
أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر ، وربما
وقفوا في الجمعة أو الأيام المرة والمرة أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة . فقال
مالك : لم يبلغني هذا عن أهل الفقه ببلدنا ، وتركه واسع ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا

(١) مالك في قصر الصلاة في السفر ١٦٦/١ (٦٨) .

ما أصلح أولها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصديها أنهم كانوا يفعلون ذلك ، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده .

قال ابن القاسم : ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها ، أو دخلوا أتوا القبر فسلموا ، ٢٣٢/١ قال : ولذلك رأى... / (١) .

قال أبو الوليد الباجي : ففرق بين أهل المدينة والغرباء ؛ لأن الغرباء قصدوا لذلك ، وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم .

قال : وقال رسول الله ﷺ : «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (٢) قال : وقال النبي ﷺ «لا تجعلوا قبري عيداً» (٣) . قال : ومن كتاب أحمد بن شعبة فيمن وقف بالقبر لا يلتصق به ولا يمسه ولا يقف عنده طويلاً ، وفي (العتبة) يعني عن مالك : يبدأ بالركوع قبل السلام في مسجد النبي ﷺ (٤) ، وأحب مواضع التنفل فيه مصلى النبي ﷺ حيث العمود المخلوق ، وأما في الفريضة فالتقدم إلى الصفوف . قال : والتنفل فيه للغرباء أحب إلي من التنفل في البيوت .

فهذا - قول مالك وأصحابه وما نقلوه عن الصحابة - يبين أنهم لم يقصدوا القبر إلا للسلام على النبي ﷺ والدعاء له . وقد كره مالك إطالة القيام لذلك ، وكره أن يفعله أهل المدينة كلما دخلوا المسجد وخرجوا منه ، وإنما يفعل ذلك الغرباء ومن قدم من سفر أو خرج له ، فإنه تحية للنبي ﷺ .

فأما إذا قصد الرجل الدعاء لنفسه فإنما يدعو في مسجده مستقبل القبلة ، كما ذكروا ذلك عن أصحاب النبي ﷺ ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة أنه فعل ذلك عند القبر ، بل ٢٣٣/١ ولا أطال الوقوف عند القبر للدعاء للنبي ﷺ ، فكيف بدعائه لنفسه . /

وأما دعاء الرسول وطلب الحوائج منه وطلب شفاعته عند قبره أو بعد موته ، فهذا لم يفعله أحد من السلف ، ومعلوم أنه لو كان قصد الدعاء عند القبر مشروعاً لفعله الصحابة والتابعون ، وكذلك السؤال به ، فكيف بدعائه وسؤاله بعد موته ؟

فدل ذلك على أن ما في الحكاية المنقطعة من قوله : «استقبله واستشفع به» كذب على مالك ، مخالف لأقواله وأقوال الصحابة والتابعين وأفعالهم التي يفعلها مالك وأصحابه ونقلها سائر العلماء ؛ إذ كان أحد منهم لم يستقبل القبر للدعاء لنفسه ، فضلاً عن أن

(١) بياض بالأصل .

(٢) (٣ ، ٢) سبق تخريجهما ص ٥٢ .

(٤) أي يقدم صلاة تحية المسجد على السلام على الرسول ﷺ .

يستقبله ويستشفع به يقول له: يا رسول الله، اشفع لي أو ادع لي، أو يشتكي إليه مصائب الدين والدنيا، أو يطلب منه أو من غيره من الموتى من الأنبياء والصالحين أو من الملائكة الذين لا يراهم أن يشفعوا له، أو يشتكي إليهم المصائب، فإن هذا كله من فعل النصارى وغيرهم من المشركين ومن ضاهاهم من مبتدعة هذه الأمة، ليس هذا من فعل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ولا مما أمر به أحد من أئمة المسلمين، وإن كانوا يسلمون عليه، إذ كان يسمع السلام عليه من القريب ويبلغ سلام البعيد.

وقد احتج أحمد وغيره بالحديث الذي رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد من حديث حيوة بن شريح المصري: حدثنا أبو صخر، عن يزيد بن قسيط، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من أحد يسلم علىّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام»^(١). وعلى هذا الحديث اعتمد الأئمة في السلام عليه عند قبره صلوات الله وسلامه عليه، فإن أحاديث زيارة قبره كلها ضعيفة لا يعتمد على شيء ٢٣٤/١ منها في الدين. ولهذا لم يرو أهل الصحاح والسنن شيئاً منها، وإنما يرونها من يروي الضعاف كالدارقطني والبخاري وغيرهما.

وأجود حديث فيها ما رواه عبد الله بن عمر العمري - وهو ضعيف والكذب ظاهر عليه - مثل قوله: «من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي»^(٢)، فإن هذا كذبه ظاهر مخالف لدين المسلمين، فإن من زاره في حياته وكان مؤمناً به كان من أصحابه، لا سيما إن كان من المهاجرين إليه المجاهدين معه، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدكم ولا تصيفه» أخرجاه في الصحيحين^(٣).

والواحد من بعد الصحابة لا يكون مثل الصحابة بأعمال مأمور بها واجبة كالحج والجهاد والصلوات الخمس والصلاة عليه، فكيف بعمل ليس بواجب باتفاق المسلمين؟ بل ولا شرع السفر إليه، بل هو منهي عنه.

(١) أبو داود في المناسك (٢٠٤١)، وأحمد ٥٢٧/٢.

(٢) الطبراني في الكبير ٤٠٦/١٢ (١٣٤٩٧)، والدارقطني في سننه في ٢/٢٧٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٢٤٦/٥ وذكره الهيثمي في المجمع ٥/٤ وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه حفص بن أبي داود القارئ وثقه أحمد وضعفه جماعة من الأئمة».

(٣) البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٧٣) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٠/٢٢١).

وأما السفر إلى مسجده للصلاة فيه والسفر إلى المسجد الأقصى للصلاة فيه فهو مستحب، والسفر إلى الكعبة للحج فواجب . فلو سافر أحد السفر الواجب والمستحب لم يكن مثل واحد من الصحابة الذين سافروا إليه في حياته، فكيف بالسفر المنهي عنه؟ وقد اتفق الأئمة على أنه لو نذر أن يسافر إلى قبره صلوات الله وسلامه عليه، أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين، لم يكن عليه أن يوفي بنذره ، بل ينهى عن ذلك . ولو نذر السفر إلى مسجده أو المسجد الأقصى للصلاة فيه قولان للشافعي:

أظهرهما عنه: يجب ذلك وهو مذهب مالك وأحمد.

والثاني: لا يجب وهو مذهب أبي حنيفة؛ لأن من أصله أنه لا يجب من النذر إلا ما كان واجبا بالشرع، وإتيان هذين المسجدين ليس واجبا بالشرع فلا يجب بالنذر عنده.

وأما الأكثرون فيقولون: هو طاعة لله، وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه »^(١).

وأما السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين فلا يجب بالنذر عند أحد منهم لأنه ليس بطاعة ، فكيف يكون من فعل هذا كواحد من أصحابه؟ وهذا مالك كره أن يقول الرجل: زرت قبر رسول الله ﷺ ، واستعظمه . وقد قيل: إن ذلك ككراهية زيارة القبور، وقيل: لأن الزائر أفضل من المزور ، وكلاهما ضعيف عند أصحاب مالك.

والصحيح أن لفظ زيارة القبر مجمل يدخل فيها الزيارة البدعية التي هي من جنس الشرك ، فإن زيارة قبور الأنبياء وسائر المؤمنين على وجهين - كما تقدم ذكره - : زيارة شرعية ، وزيارة بدعية .

فالزيارة الشرعية يقصد بها السلام عليهم والدعاء لهم، كما يقصد الصلاة على أحدهم إذا مات فيصلى عليه صلاة الجنازة ، فهذه الزيارة الشرعية .

والثاني: أن يزورها كزيارة المشركين وأهل البدع لدعاء الموتى وطلب الحاجات منهم، أو لاعتقاده أن الدعاء عند قبر أحدهم أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت، أو أن الإقسام بهم على الله وسؤاله سبحانه بهم أمر مشروع يقتضي إجابة الدعاء، فمثل هذه الزيارة بدعة منهي عنها.

فإذا كان لفظ «الزيارة» مجملاً يحتمل حقاً وباطلاً، عدل عنه إلى لفظ لا لبس فيه كلفظ «السلام» عليه، ولم يكن لأحد أن يحتج على مالك بما روى في زيارة قبره أو زيارته

(١) البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٩٦)، (٦٧٠٠) عن عائشة رضي الله عنها.

بعد موته، فإن هذه كلها أحاديث ضعيفة بل موضوعة، لا يحتج بشيء منها في أحكام الشريعة.

والثابت عنه ﷺ أنه قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»^(١) هذا هو الثابت في الصحيح، ولكن بعضهم رواه بالمعنى فقال: قبري. وهو ﷺ حين قال هذا القول لم يكن قد قبر بعد - صلوات الله وسلامه عليه - ولهذا لم يحتج بهذا أحد من الصحابة، لما تنازعوا في موضع دفنه، ولو كان هذا عندهم لكان نصاً في محل النزاع. ولكن دفن في حجرة عائشة في الموضع الذي مات فيه، بأبي هو وأمي - صلوات الله عليه وسلامه.

ثم لما وسع المسجد في خلافة الوليد بن عبد الملك، وكان نائبه على المدينة/عمر بن ٢٣٧/١ عبد العزيز أمره أن يشتري الحجر ويزيدها في المسجد، وكانت الحجر من جهة المشرق والقبلة فزيدت في المسجد ودخلت حجرة عائشة في المسجد من حيثئذ، وبنوا الحائط البراني مُسَمَّاً محرّفاً، فإنه ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي مرثد الغنوي أنه قال ﷺ: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها»^(٢) لأن ذلك يشبه السجود لها، وإن كان المصلي إنما يقصد الصلاة لله تعالى. وكما نهى عن اتخاذها مساجد ونهى عن قصد الصلاة عندها، وإن كان المصلي إنما يقصد الصلاة لله سبحانه والدعاء له. فمن قصد قبور الأنبياء والصالحين لأجل الصلاة والدعاء عندها، فقد قصد نفس المحرم الذي سد الله ورسوله ذريعته، وهذا بخلاف السلام المشروع، حسبما تقدم.

وقد روى سفيان الثوري عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام» رواه النسائي وأبو حاتم في صحيحه^(٣)، وروي نحوه عن أبي هريرة. فهذا فيه أن سلام البعيد تبلغه الملائكة.

وفي الحديث المشهور الذي رواه أبو الأشعث الصنعاني عن أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثرُوا علي من الصلاة في كل يوم جمعة، فإن صلاة أمتي تعرض

(١) البخاري في فضائل المدينة (١٨٨٨)، ومسلم في الحج (٥٠٢/١٣٩١)، والترمذي في المناقب (٣٩١٥)، وأحمد ٢٣٦/٢، ٣٧٦ كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسلم في الجنائز (٩٧/٩٧٢).

(٣) النسائي في السهو (١٢٨٢)، وابن حبان في صحيحه (٩١٠).

علي يومئذ، فمن كان أكثرهم علي صلاة كان أقربهم مني منزلة»^(١).

٢٣٨/١ وفي مسند الإمام أحمد : حدثنا شُرَيْح، حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن أبي/ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تتخذوا قبوري عيداً ، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علي حينما كنتم ، فإن صلاتكم تبلغني »^(٢) ورواه أبو داود . قال القاضي عياض : وروي أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى علي عند قبوري سمعته . ومن صلى علي نائياً أبلغته »^(٣) . وهذا قد رواه محمد بن مروان السدي عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ، وهذا هو السدي الصغير وليس بثقة ، وليس هذا من حديث الأعمش .

وروى أبو يعلى الموصلي في مسنده ، عن موسى بن محمد بن حبان ، عن أبي بكر الحنفي : حدثنا عبد الله بن نافع ، حدثنا العلاء بن عبد الرحمن ، سمعت الحسن بن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً ، ولا تتخذوا بيتي عيداً . صلوا علي وسلموا فإن صلاتكم وسلامكم يبلغني »^(٤) .

وروى سعيد بن منصور في سننه أن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رأى رجلاً يكثر الاختلاف إلى قبر النبي ﷺ قال له : يا هذا ، إن رسول الله ﷺ قال : « لا تتخذوا قبوري عيداً ، وصلوا علي حينما كنتم ، فإن صلاتكم تبلغني » فما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء .

وروي هذا المعنى عن علي بن الحسين زين العابدين عن أبيه عن علي بن أبي طالب ، ذكره أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ في مختاره الذي/هو أصح من صحيح الحاكم . وذكر القاضي عياض عن الحسن بن علي قال : إذا دخلت فلسم على النبي ﷺ ، فإن رسول الله ﷺ قال : « لا تتخذوا بيتي عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علي حيث كنتم ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم »^(٥) .

ومما يوهن هذه الحكاية أنه قال فيها : « ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة

(١) أبو داود في الصلاة (١٠٤٧) ، (١٥٣١) والنسائي في الجمعة (١٣٧٤) ، والبيهقي في الكبرى في الجمعة ٢٤٨/٣ ، ٢٤٩ .

(٢) سبق تخريجه ص ٥٢ .

(٣) القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٧٩/٢ ، وابن الجوزي في الموضوعات ٣٠٣/١ وقال : « هذا حديث لا يصح ، فيه محمد بن مروان ليس بثقة ، وقيل : كذاب ، وقيل : متروك » .

(٤) أبو يعلى في مسنده ١٣١/١٢ (٦٧٦١) ، وذكره الهيثمي في المجمع ٢٥٠/٢ وقال : « رواه أبو يعلى وفيه عبد الله بن نافع وهو ضعيف » .

(٥) القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٧٩/٢ ، ٨٠ .

أبيك آدم إلى الله يوم القيامة» إنما يدل على أنه يوم القيامة تتوسل الناس بشفاعته، وهذا حق كما تواترت به الأحاديث، لكن إذا كان الناس يتوسلون بدعائه وشفاعته يوم القيامة كما كان أصحابه يتوسلون بدعائه وشفاعته في حياته، فإنما ذاك طلب لدعائه وشفاعته، فنظير هذا - لو كانت الحكاية صحيحة - أن يطلب منه الدعاء والشفاعة في الدنيا عند قبره.

ومعلوم أن هذا لم يأمر به النبي ﷺ ولا سنه لأمته، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا استجبه أحد من أئمة المسلمين لا مالك ولا غيره من الأئمة، فكيف يجوز أن ينسب إلى مالك مثل هذا الكلام الذي لا يقوله إلا جاهل لا يعرف الأدلة الشرعية ولا الأحكام المعلومة أدلتها الشرعية، مع علو قدر مالك وعظم فضيلته وإمامته، وتعام رغبته في اتباع السنة وذم البدع وأهلها؟ وهل يأمر بهذا أو يشعه إلا مبتدع؟ فلو لم يكن عن مالك قول يناقض هذا، لعلم أنه لا يقول مثل هذا.

ثم قال في الحكاية: «استقبله واستشفع به فيشفعك الله» والاستشفاع به/معناه في ٢٤٠/١ اللغة: أن يطلب منه الشفاعة كما يستشفع الناس به يوم القيامة، وكما كان أصحابه يستشفعون به. ومنه الحديث الذي في السنن أن أعرابياً قال: يا رسول الله، جهدت الأنفس وجاع العيال، وهلك المال، فادع الله لنا، فإننا نستشفع بالله عليك، ونستشفع بك على الله. فسبح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه وقال: «ويحك أتدري ما تقول؟ شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع به على أحد من خلقه»^(١)، وذكر تمام الحديث.

فأنكر قوله: «نستشفع بالله عليك» ومعلوم أنه لا ينكر أن يسأل المخلوق بالله أو يقسم عليه بالله، وإنما أنكر أن يكون الله شافعاً إلى المخلوق؛ ولهذا لم ينكر قوله: «نستشفع بك على الله» فإنه هو الشافع المشفع.

وهم - لو كانت الحكاية صحيحة - إنما يجيئون إليه لأجل طلب شفاعته ﷺ؛ ولهذا قال في تمام الحكاية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ الآية [النساء: ٦٤]، وهؤلاء إذا شرع لهم أن يطلبوا منه الشفاعة والاستغفار بعد موته، فإذا أجابهم فإنه يستغفر لهم، واستغفاره لهم دعاء منه وشفاعة أن يغفر الله لهم.

وإذا كان الاستشفاع منه طلب شفاعته فإنما يقال في ذلك: «استشفع به فيشفعه الله

(١) أبو داود في السنة (٤٧٢٦).

٢٤١/١ فيك» لا يقال : فيشفعك الله فيه . وهذا معروف الكلام ، ولغة النبي ﷺ وسائر العلماء يقال: شفّع فلان في فلان فشفع فيه . فالمشفّع الذي يشفعه المشفّع إليه هو الشفيع المستشفّع به، لا السائل الطالب من غيره أن يشفع له، فإن هذا ليس هو الذي شفّع، فمحمّد ﷺ هو الشفيع المشفع ، ليس المشفع الذي يستشفّع به . ولهذا يقول في دعائه : يا رب شفّعني ، فيشفعه الله ، فيطلب من الله سبحانه أن يشفعه لا أن يشفع طالبي شفاعته، فكيف يقول : واستشفّع به فيشفعك الله؟ وأيضا: فإن طلب شفاعته ودعائه واستغفاره بعد موته وعند قبره، ليس مشروعا عند أحد من أئمة المسلمين، ولا ذكر هذا أحد من الأئمة الأربعة وأصحابهم القدماء ، وإنما ذكر هذا بعض المتأخرين ؛ ذكروا حكاية عن العتيبي أنه رأى أعرابيا أتى قبره وقرأ هذه الآية، وأنه رأى في المنام أن الله غفر له . وهذا لم يذكره أحد من المجتهدين من أهل المذاهب المتبوعين، الذين يفتى الناس بأقوالهم، ومن ذكرها لم يذكر عليها دليلاً شرعياً .

ومعلوم أنه لو كان طلب دعائه وشفاعته واستغفاره عند قبره مشروعا، لكان الصحابة والتابعون لهم بإحسان أعلم بذلك وأسبق إليه من غيرهم، ولكان أئمة المسلمين يذكرون ذلك، وما أحسن ما قال مالك : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » قال: ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك .

فمثل هذا الإمام كيف يشرع ديناً لم ينقل عن أحد السلف، ويأمر الأمة أن يطلبوا الدعاء والشفاعة والاستغفار - بعد موت الأنبياء والصالحين- منهم عند قبورهم ، وهو أمر لم يفعلهُ أحد من سلف الأمة ؟/ ٢٤٢/١

ولكن هذا اللفظ الذي في الحكاية يشبه لفظ كثير من العامة الذين يستعملون لفظ الشفاعة في معنى التوسل ، فيقول أحدهم : اللهم إنا نستشفّع إليك بفلان وفلان أي نتوسل به . ويقولون لمن توسل في دعائه بنبي أو غيره: « قد تشفع به » من غير أن يكون المستشفّع به شفّع له ولا دعا له، بل وقد يكون غائباً لم يسمع كلامه ولا شفّع له، وهذا ليس هو لغة النبي ﷺ وأصحابه وعلماء الأمة، بل ولا هو لغة العرب ، فإن الاستشفاع طلب الشفاعة . والشافع هو الذي يشفع السائل فيطلب له ما يطلب من المسؤول المدعو المشفّع إليه .

وأما الاستشفاع بمن لم يشفع للسائل ولا طلب له حاجة بل وقد لا يعلم بسؤاله، فليس هذا استشفاعاً لا في اللغة ولا في كلام من يدري ما يقول : نعم هذا سؤال به، ودعاؤه ليس هو استشفاعاً به . ولكن هؤلاء لما غيروا اللغة- كما غيروا الشريعة - وسموا هذا استشفاعاً أي سؤالاً بالشافع صاروا يقولون : « استشفّع به فيشفعك » أي يجيب

سؤالك به، وهذا مما يبين أن هذه الحكاية وضعها جاهل بالشرع واللغة وليس لفظها من ألفاظ مالك.

نعم، قد يكون أصلها صحيحا، ويكون مالك قد نهى عن رفع الصوت في مسجد الرسول اتباعاً للسنّة، كما كان عمر ينهى عن رفع الصوت في مسجده، ويكون مالك أمر بما أمر الله به من تعزيره وتوقيره ونحو ذلك مما يليق بمالك أن يأمر به. / ٢٤٣/١

ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبي ﷺ، وعاداتهم في الكلام، وإلا حرف الكلم عن مواضعه، فإن كثيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قومه وعاداتهم في الألفاظ، ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابة، فيظن أن مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهل عاداته واصطلاحه، ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك.

وهذا واقع لطوائف من الناس من أهل الكلام والفقه والنحو والعامّة وغيرهم، وآخرون يتعمدون وضع ألفاظ الأنبياء وأتباعهم على معانٍ آخر مخالفة لمعانيهم، ثم ينطقون بتلك الألفاظ مريدين بها ما يعنونه هم، ويقولون: إنا موافقون للأنبياء! وهذا موجود في كلام كثير من الملاحدة المتفلسفة والإسماعيلية ومن ضاهاهم من ملاحدة المتكلمة والمتصوفة، مثل من وضع «المحدث» و«المخلوق» و«المصنوع» على ما هو معلول وإن كان عنده قديماً أزلياً، ويسمي ذلك «الحدث الذاتي» ثم يقول: نحن نقول: إن العالم محدث، وهو مراده. ومعلوم أن لفظ المحدث بهذا الاعتبار ليس لغة أحد من الأمم، وإنما المحدث عندهم ما كان بعد أن لم يكن.

وكذلك يضعون لفظ «الملائكة» على ما يثبتونه من العقول والنفوس وقوى النفس. ولفظ «الجن» و«الشياطين» على بعض قوى النفس، ثم يقولون: نحن ثبت ما أخبرت به الأنبياء وأقر به جمهور الناس من الملائكة والجن والشياطين. / ومن عرف مراد الأنبياء ٢٤٤/١ ومرادهم علم بالاضطرار أن هذا ليس هو ذاك، مثل أن يعلم مرادهم بالعقل الأول، وأنه مقارن عندهم لرب العالمين أزلاً وأبداً، وأنه مبدع لكل ما سواه، أو بتوسطه حصل كل ما سواه. والعقل الفعال عندهم عنه يصدر كل ما تحت فلك القمر، ويعلم بالاضطرار من دين الأنبياء أنه ليس من الملائكة عندهم من هو رب كل ما سوى الله، ولا رب كل ما تحت فلك القمر، ولا من هو قديم أزلي أبدي لم يزل ولا يزال.

ويعلم أن الحديث الذي يروى «أول ما خلق الله العقل» حديث باطل عن النبي ﷺ مع أنه لو كان حقا لكان حجة عليهم، فإن لفظه «أول ما خلق الله العقل» بنصب الأول

على الظرفية» فقال له : أقبل ، فأقبل . ثم قال له : أدبر ، فأدبر . فقال : وعزتي ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك ، فبك آخذ ، وبك أعطي ، وبك الثواب ، وبك العقاب»^(١) وروى «لما خلق الله العقل» فالحديث لو كان ثابتاً كان معناه أنه خاطب العقل في أول أوقات خلقه ، وأنه خلق قبل غيره ، وأنه تحصل به هذه الأمور الأربعة لا كل المصنوعات .

و«العقل» في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلاً ، يراد به القوة التي بها يعقل ، وعلوم وأعمال تحصل بذلك ، لا يراد بها قط في لغة : جوهر قائم بنفسه ، فلا يمكن أن يراد هذا المعنى بلفظ العقل . مع أنا قد بينا في مواضع آخر فساد ما ذكروه من جهة العقل الصريح ، وأن ما ذكروه من المجردات والمفارقات ينتهي أمرهم فيه إلى إثبات النفس التي تفارق البدن بالموت ، وإلى إثبات ما تجرده النفس من المعقولات القائمة بها ؛ فهذا منتهى ما يثبتونه من الحق في هذا الباب . / ٢٤٥/١

والمقصود هنا : أن كثيراً من كلام الله ورسوله يتكلم به من يسلك مسلكهم ، ويريد مرادهم لا مراد الله ورسوله ، كما يوجد في كلام صاحب (الكتب المصنونة بها) وغيره ، مثل ما ذكره في «اللوح المحفوظ» حيث جعله النفس الفلكية ، ولفظ «القلم» حيث جعله العقل الأول ، ولفظ «الملوك» و «الجبروت» و «الملك» حيث جعل ذلك عبارة عن النفس والعقل ، ولفظ «الشفاعة» حيث جعل ذلك فيضاً يفيض من الشفيع على المستشفع وإن كان الشفيع قد لا يدري ، وسلك في هذه الأمور ونحوها مسالك ابن سينا ، كما قد بسط في موضع آخر .

والمقصود هنا ذكر من يقع ذلك منه من غير تدبر منه للغة الرسول ﷺ كلفظ القديم ، فإنه في لغة الرسول التي جاء بها القرآن خلاف الحديث وإن كان مسبوقة بغيره ، كقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ [يس : ٣٩] وقال تعالى عن إخوة يوسف : ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ [يوسف : ٩٥] وقوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَأَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء : ٧٥ ، ٧٦] وهو عند أهل الكلام عبارة عما لم يزل أو عما لم يسبقه وجود غيره إن لم يكن مسبوقة بعدم نفسه ، ويجعلونه - إذا أريد به هذا - من باب المجاز ، ولفظ «المحدث» في لغة القرآن يقابل للفظ «القديم» في القرآن .

وكذلك لفظ «الكلمة» في القرآن والحديث وسائر لغة العرب ، إنما يراد به الجملة ٢٤٦/١ التامة ، كقوله ﷺ : «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في

(١) انظر : المقاصد الحسنة ١١٨ ، وكشف الخفا ٢٣٦/١ ، وعلق عليه العراقي في إحياء علوم الدين ٩٩/١ بقوله : «أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين» .

الميزان: سبحانه الله وبحمده، سبحانه الله العظيم^(١)، وقوله: «إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(٢)، ومنه قوله تعالى: ﴿كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ نَعَالُوا إِلَٰهَ كَلِمَةٍ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا الْآيَةَ [آل عمران: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَالِيَةُ﴾ [التوبة: ٤٠]، وأمثال ذلك، ولا يوجد لفظ الكلام في لغة العرب إلا بهذا المعنى

والنحاة اصطلاحوا على أن يسموا (الاسم) وحده ، و(الفعل) و(الحرف) كلمة ، ثم يقول بعضهم : وقد يراد بالكلمة الكلام ، فيظن من اعتاد هذا أن هذا هو لغة العرب ، وكذلك لفظ «ذوي الأرحام» في الكتاب والسنة يراد به الأقارب من جهة الأبوين فيدخل فيهم العصبية وذوو الفروض ، وإن شمل ذلك من لا يرث بفرض ولا تعصيب، ثم صار ذلك في اصطلاح الفقهاء اسما لهؤلاء دون غيرهم ، فيظن من لا يعرف إلا ذلك أن هذا هو المراد بهذا اللفظ في كلام الله ورسوله وكلام الصحابة ، ونظائر هذا كثيرة.

ولفظ «التوسل» و«الاستشفاع» ونحوهما دخل فيها من تغيير لغة الرسول وأصحابه، ما أوجب غلط من غلط عليهم في دينهم ولغتهم.

والعلم يحتاج إلى نقل مصدق ونظر محقق.

والمثقول عن السلف والعلماء يحتاج إلى معرفة بثبوت لفظه ومعرفة دلالاته، كما يحتاج

٢٤٧/١

إلى ذلك المثقول عن الله ورسوله. فهذا ما يتعلق بهذه الحكاية.

ونصوص الكتاب والسنة متظاهرة بأن الله أمرنا أن نصلي على النبي ونسلم عليه في كل مكان، فهذا مما اتفق عليه المسلمون، وكذلك رغبنا وحضنا في الحديث الصحيح على أن نسأل الله له الوسيلة والفضيلة، وأن يبعثه مقاماً محموداً الذي وعده^(٣).

فهذه الوسيلة التي شرع لنا أن نسألها الله تعالى - كما شرع لنا أن نصلي عليه ونسلم عليه - هي حق له، كما أن الصلاة عليه والسلام حق له ﷺ.

(١) البخاري في الدعوات (٦٤٠٦) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٣١/٢٦٩٤) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٦٧) ، وابن ماجه في الأدب (٣٨٠٦) ، وأحمد ٢/٢٣٢ ، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري في الرقاق (٦٤٨٩) ، ومسلم في الشعر (٢٢٥٦) ، والترمذي في الأدب (٢٨٤٩) وابن ماجه في الأدب (٣٧٥٧) ، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) سبق تخريجه ص ٦٢ .

والوسيلة التي أمرنا الله أن نبتغيها إليه هي التقرب إلى الله بطاعته ، وهذا يدخل فيه كل ما أمرنا الله به ورسوله .

وهذه الوسيلة لا طريق لنا إليها إلا باتباع النبي ﷺ بالإيمان به وطاعته ، وهذا التوسل به فرض على كل أحد .

وأما التوسل بدعائه وشفاعته - كما يسأله الناس يوم القيامة أن يشفع لهم ، وكما كان الصحابة يتوسلون بشفاعته في الاستسقاء وغيره ، مثل توسل الأعمى بدعائه حتى رد الله عليه بصره بدعائه وشفاعته - فهذا نوع ثالث هو من باب قبول الله دعاءه وشفاعته لكرامته عليه ، فمن شفع له الرسول ﷺ ودعا له فهو بخلاف من لم يدع له ولم يشفع له .

ولكن بعض الناس ظن أن توسل الصحابة به كان بمعنى أنهم يقسمون به ويسألون به ، ٢٤٨/١ فظن هذا مشروعاً مطلقاً لكل أحد في حياته ومماته ، وظنوا أن هذا مشروع في حق الأنبياء والملائكة ، بل وفي الصالحين وفيمن يظن فيهم الصلاح ، وإن لم يكن صالحاً في نفس الأمر .

وليس في الأحاديث المرفوعة في ذلك حديث في شيء من دواوين المسلمين التي يعتمد عليها في الأحاديث - لا في الصحيحين ولا كتب السنن ولا المسانيد المعتمدة كمسند الإمام أحمد وغيره - وإنما يوجد في الكتب التي عرف أن فيها كثيراً من الأحاديث الموضوعية المكذوبة التي يختلقها الكذابون ، بخلاف من قد يغلط في الحديث ولا يعتمد الكذب ، فإن هؤلاء توجد الرواية عنهم في السنن ومسند الإمام أحمد ونحوه ، بخلاف من يتعمد الكذب فإن أحمد لم يرو في مسنده عن أحد من هؤلاء .

ولهذا تنازع الحافظ أبو العلاء الهمداني والشيخ أبو الفرج ابن الجوزي : هل في المسند حديث موضوع ؟ فأنكر الحافظ أبو العلاء أن يكون في المسند حديث موضوع ، وأثبت ذلك أبو الفرج وبين أن فيه أحاديث قد علم أنها باطلة ، ولا منافاة بين القولين .

فإن الموضوع في اصطلاح أبي الفرج ، هو الذي قام دليل على أنه باطل ، وإن كان المحدث به لم يتعمد الكذب بل غلط فيه ؛ ولهذا روى في كتابه في الموضوعات أحاديث كثيرة من هذا النوع ، وقد نازعه طائفة من العلماء في كثير مما ذكره وقالوا : إنه ليس مما يقوم دليل على أنه باطل ، بل بينوا ثبوت بعض ذلك ، لكن الغالب على ما ذكره في الموضوعات أنه باطل باتفاق العلماء . / ٢٤٩/١

وأما الحافظ أبو العلاء وأمثاله فإنما يريدون بالموضوع المخلوق المصنوع الذي تعمد صاحبه الكذب ، والكذب كان قليلاً في السلف .

أما الصحابة فلم يعرف فيهم - ولله الحمد - من تعمد الكذب على النبي ﷺ ، كما لم يعرف فيهم من كان من أهل البدع المعروفة كبَدع الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة ، فلم يعرف فيهم أحد من هؤلاء الفرق .

ولا كان فيهم من قال : إنه أتاه الخضر ، فإن خضر موسى مات كما بيّن هذا في غير هذا الموضع ، والخضر الذي يأتي كثيراً من الناس إنما هو جنّيٌ تصور بصورة إنسي أو إنسي كذاب ، ولا يجوز أن يكون ملكاً مع قوله : أنا الخضر ، فإن الملك لا يكذب وإنما يكذب الجنّي والإنسي . وأنا أعرف ممن أتاه الخضر وكان جنياً مما يطول ذكره في هذا الموضع . وكان الصحابة أعلم من أن يروج عليهم هذا التلبيس .

وكذلك لم يكن فيهم من حملته الجن إلى مكة وذهبت به إلى عرفات ليقف بها ، كما فعلت ذلك بكثير من الجهال والعباد وغيرهم ، ولا كان فيهم من تسرق الجن أموال الناس وطعامهم وتأتيه به ، فيظن أن هذا من باب الكرامات ، كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع .

وأما التابعون فلم يعرف تعمد الكذب في التابعين من أهل مكة والمدينة والشام والبصرة ، بخلاف الشيعة ، فإن الكذب معروف فيهم ، وقد عرف الكذب بعد هؤلاء في طوائف . /

٢٥٠ / ١

وأما الغلط فلا يسلم منه أكثر الناس ، بل في الصحابة من قد يغلط أحياناً وفيمن بعدهم .

ولهذا كان فيما صنف في الصحيح أحاديث يعلم أنها غلط ، وإن كان جمهور متون الصحيحين مما يعلم أنه حق .

فالحافظ أبو العلاء يعلم أنها غلط ، والإمام أحمد نفسه قد بين ذلك وبين أنه رواها لتعرف ، بخلاف ما تعمد صاحبه الكذب ؛ ولهذا نزه أحمد مسنده عن أحاديث جماعة يروى عنهم أهل السنن كأبي داود والترمذي ، مثل مشيخة كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده ، وإن كان أبو داود يروى في سننه منها ، فشرط أحمد في مسنده أجود من شرط أبي داود في سننه .

والمقصود أن هذه الأحاديث التي تروى في ذلك من جنس أمثالها من الأحاديث الغريبة المنكرة ، بل الموضوعة التي يرويها من يجمع في الفضائل والمناقب الغث والسمين ، كما يوجد مثل ذلك فيما يصنف في فضائل الأوقات ، وفضائل العبادات ، وفضائل الأنبياء والصحابة ، وفضائل البقاع ، ونحو ذلك ، فإن هذه الأبواب فيها أحاديث صحيحة

وأحاديث حسنة وأحاديث ضعيفة وأحاديث كذب موضوعة ، ولا يجوز أن يعتمد في الشريعة على الأحاديث الضعيفة التي ليست صحيحة ولا حسنة ، لكن أحمد بن حنبل وغيره من العلماء جوزوا أن يروى في فضائل الأعمال ما لم يعلم أنه ثابت إذا لم يعلم أنه كذب. / ٢٥١/١

وذلك أن العمل إذا علم أنه مشروع بدليل شرعي ، وروى في فضله حديث لا يعلم أنه كذب - جاز أن يكون الثواب حقاً ، ولم يقل أحد من الأئمة : إنه يجوز أن يجعل الشيء واجباً أو مستحباً بحديث ضعيف ، ومن قال هذا فقد خالف الإجماع .

وهذا كما أنه لا يجوز أن يحرم شيء إلا بدليل شرعي ، لكن إذا علم تحريمه ، وروى حديث في وعيد الفاعل له ، ولم يعلم أنه كذب - جاز أن يرويه ، فيجوز أن يروي في الترغيب والترهيب ما لم يعلم أنه كذب ، لكن فيما علم أن الله رغب فيه أو رهب منه بدليل آخر غير هذا الحديث المجهول حاله .

وهذا كالإسرائيليات ؛ يجوز أن يروي منها ما لم يعلم أنه كذب للترغيب والترهيب ، فيما علم أن الله تعالى أمر به في شرعنا ونهى عنه في شرعنا . فأما أن يثبت شرعاً لنا بمجرد الإسرائيليات التي لم تثبت فهذا لا يقوله عالم ، ولا كان أحمد بن حنبل ولا أمثاله من الأئمة يعتمدون على مثل هذه الأحاديث في الشريعة .

ومن نقل عن أحمد أنه كان يحتج بالحديث الضعيف الذي ليس بصحيح ولا حسن فقط غلط عليه ، ولكن كان في عرف أحمد بن حنبل ومن قبله من العلماء أن الحديث ينقسم إلى نوعين : صحيح ، وضعيف . والضعيف عندهم ينقسم إلى ضعيف متروك لا يحتج به ، وإلى ضعيف حسن ، كما أن ضعف الإنسان بالمرض ينقسم إلى مرض مخوف يمنع التبرع من رأس المال ، وإلى ضعيف خفيف لا يمنع من ذلك. / ٢٥٢/١

وأول من عرف أنه قسم الحديث ثلاثة أقسام - صحيح ، وحسن ، وضعيف - هو أبو عيسى الترمذي في جامعه . والحسن عنده ما تعددت طرقه ولم يكن في رواه متهم وليس بشاذ . فهذا الحديث وأمثاله يسميه أحمد ضعيفاً ويحتج به ؛ ولهذا مثل أحمد الحديث الضعيف الذي يحتج به بحديث عمرو بن شعيب وحديث إبراهيم الهجري ونحوهما . وهذا مبسوط في موضعه .

والأحاديث التي تروى في هذا الباب - وهو السؤال بنفس المخلوقين - هي من الأحاديث الضعيفة الواهية بل الموضوعة ، ولا يوجد في أئمة الإسلام من احتج بها ولا اعتمد عليها ، مثل الحديث الذي يروى عن عبد الملك بن هارون بن عترة ، عن أبيه ، عن

جده، أن أبا بكر الصديق أتى النبي ﷺ فقال: إني أتعلم القرآن ويتفكّلت مني . فقال له رسول الله ﷺ : « قل : اللهم إني أسألك بمحمد نبيك ، وبإبراهيم خليلك ، وبموسى نجّيك ، وعيسى روحك وكلمتك ، وبتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ، وزبور داود ، وفرقان محمد ، وبكل وحي أوحيتَه وقضاء قضيتَه » وذكر تمام الحديث .

وهذا الحديث ذكره رزين بن معاوية العبدي في جامعه ونقله ابن الأثير في جامع الأصول ولم يعزه لا هذا ولا هذا إلى كتاب من كتب المسلمين ، لكنه قد رواه من صنف في عمل (اليوم والليلة) كابن السني وأبى نعيم، وفي مثل هذه الكتب أحاديث كثيرة موضوعة لا يجوز الاعتماد عليها في الشريعة باتفاق العلماء .

وقد رواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب فضائل الأعمال، وفي هذا/الكتاب أحاديث ٢٥٣/١ كثيرة كذب موضوعة، ورواه أبو موسى المديني من حديث زيد بن الحباب عن عبد الملك ابن هارون بن عنترة وقال: هذا حديث حسن مع أنه ليس بالمتصل ، قال أبو موسى: ورواه محرز بن هشام عن عبد الملك عن أبيه عن جده عن الصديق - رضي الله عنه - وعبد الملك ليس بذلك القوى وكان بالرّيّ ، وأبوه وجده ثقتان .

قلت: عبد الملك بن هارون بن عنترة من المعروفين بالكذب . قال يحيى بن معين: هو كذاب . وقال السعدي: دجال كذاب، وقال أبو حاتم بن حبان: يضع الحديث . وقال النسائي: متروك . وقال البخاري: منكر الحديث . وقال أحمد بن حنبل: ضعيف . وقال ابن عدي: له أحاديث لا يتابعه عليها أحد . وقال الدارقطني: هو وأبوه ضعيفان . وقال الحاكم في (كتاب المدخل): عبد الملك بن هارون بن عنترة الشيباني روى عن أبيه أحاديث موضوعة . وأخرجه أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب (الموضوعات)^(١) وقول الحافظ أبي موسى: «هو منقطع» يريد: أنه لو كان رجاله ثقات فإن إسناده منقطع .

وقد روى عبد الملك هذه الأحاديث الأخرى المناسبة لهذا في استفتاح أهل الكتاب به - كما سيأتي ذكره - وخالف فيه عامة ما نقله المفسرون وأهل السير وما دل عليه القرآن، وهذا يدل على ما قاله العلماء فيه : من أنه متروك إما لتعمده الكذب وإما لسوء حفظه ، وتبين أنه لا حجة لا في هذا ولا في ذاك . ومثل ذلك الحديث الذي رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه،/عن جده، عن عمر بن الخطاب مرفوعاً وموقوفاً عليه: « أنه لما ٢٥٤/١ اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب، أسألك بحق محمد لما غفرت لي ، قال : وكيف عرفت

(١) ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ١٧٤ ، ١٧٥ .

محمدًا؟ قال: لأنك لما خلقتني بيدك، ونفخت فيَّ من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. قال: صدقت يا آدم، ولولا محمد ما خلقتك» وهذا الحديث رواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن مسلم الفهري عن إسماعيل بن سلمة عنه. قال الحاكم: وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن في هذا الكتاب، وقال الحاكم: هو صحيح^(١).

ورواه الشيخ أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة موقوفاً على عمر من حديث عبد الله ابن إسماعيل بن أبي مريم، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم موقوفاً، ورواه الآجري أيضاً من طريق آخر من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، موقوفاً عليه، وقال: حدثنا هارون بن يوسف التاجر، حدثنا أبو مروان العثماني، حدثني أبو عثمان بن خالد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه أنه قال: «من الكلمات التي تاب الله بها على آدم قال: اللهم إني أسألك بحق محمد عليك. قال الله تعالى: وما يدريك ما محمد؟ قال: يارب، رفعت رأسي فرأيت مكتوباً على عرشك: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنه أكرم خلقك»^(٢).

قلت: ورواية الحاكم لهذا الحديث مما أنكر عليه، فإنه نفسه قد قال في (كتاب المدخل ٢٥٥/١ إلى معرفة الصحيح من السقيم): عبد الرحمن بن زيد بن أسلم/روى عن أبيه أحاديث موضوعه، لا تخفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه.

قلت: وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف باتفاقهم يغلط كثيراً، ضعفه أحمد بن حنبل وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي والدارقطني وغيرهم، وقال أبو حاتم بن حبان: كان يقلب الأخبار وهو لا يعلم، حتى كثر ذلك من روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف فاستحق الترك.

وأما تصحيح الحاكم لمثل هذا الحديث وأمثاله فهذا مما أنكره عليه أئمة العلم بالحديث وقالوا: إن الحاكم يصحح أحاديث وهي موضوعة مكذوبة عند أهل المعرفة بالحديث،

(١) الحاكم في المستدرک فی التاريخ ٦١٥/٢ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد» وتعقبه الذهبي بقوله «بل موضوع وعبد الرحمن واه».

(٢) أبو بكر الآجري في الشريعة ص ٤٢٧ باب قول الله عز وجل لنبيه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ تحقيق دار الكتب العلمية - بيروت لبنان- ط الأولى ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

كما صحح حديث زريب بن برثلمي: الذي فيه ذكر وصي المسيح، وهو كذب باتفاق أهل المعرفة، كما بين ذلك البيهقي وابن الجوزي وغيرهما، وكذلك أحاديث كثيرة في مستدركه يصححها وهي عند أئمة أهل العلم بالحديث موضوعة، ومنها ما يكون موقوفا يرفعه.

ولهذا كان أهل العلم بالحديث لا يعتمدون على مجرد تصحيح الحاكم، وإن كان غالب ما يصححه فهو صحيح، لكن هو في المصححين بمنزلة الثقة الذي يكثر غلظه، وإن كان الصواب أغلب عليه. وليس فيمن يصحح الحديث أضعف من تصحيحه، بخلاف أبي حاتم بن حبان البستي، فإن تصحيحه فوق تصحيح الحاكم وأجل قدراً، وكذلك تصحيح الترمذي والدارقطني وابن خزيمة وابن منده وأمثالهم فيمن يصحح الحديث. / ٢٥٦/١

فإن هؤلاء وإن كان في بعض ما ينقلونه نزاع، فهم أتقن في هذا الباب من الحاكم، ولا يبلغ تصحيح الواحد من هؤلاء مبلغ تصحيح مسلم، ولا يبلغ تصحيح مسلم مبلغ تصحيح البخاري، بل كتاب البخاري أجل ما صنف في هذا الباب. والبخاري من أعرف خلق الله بالحديث وعلمه مع فقهه فيه، وقد ذكر الترمذي أنه لم ير أحداً أعلم بالعلل منه؛ ولهذا كان من عادة البخاري إذا روى حديثاً اختلف في إسناده أو في بعض ألفاظه، أن يذكر الاختلاف في ذلك لئلا يغتر بذكره له بأنه إنما ذكره مقروناً بالاختلاف فيه.

ولهذا كان جمهور ما أنكر على البخاري، مما صححه يكون قوله فيه راجحاً على قول من نازعه، بخلاف مسلم بن الحجاج فإنه نوزع في عدة أحاديث مما خرجها، وكان الصواب فيها مع من نازعه، كما روى في حديث الكسوف أن النبي ﷺ صلى بثلاث ركوعات وبأربع ركوعات، كما روى أنه صلى بركوعين^(١).

والصواب أنه لم يصل إلا بركوعين، وأنه لم يصل الكسوف إلا مرة واحدة يوم مات إبراهيم، وقد بين ذلك الشافعي، وهو قول البخاري وأحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه، والأحاديث التي فيها الثلاث والأربع فيها أنه صلاها يوم مات إبراهيم. ومعلوم أنه لم يمت في يومي كسوف، ولا كان له إبراهيمان. ومن نقل أنه مات عاشر الشهر فقد كذب، وكذلك روى مسلم «خلق الله التربة يوم السبت»^(٢)، ونازعه فيه من هو أعلم منه كيحيى بن معين والبخاري وغيرهما، فبينوا أن هذا غلط، ليس هذا من كلام النبي ﷺ. / ٢٥٧/١

والحجة مع هؤلاء، فإنه قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله تعالى خلق

(١) مسلم في الكسوف (١/٩٠١-٧).

(٢) مسلم في صفات المنافقين (٢٧/٢٧٨٩).

السموات والأرض في ستة أيام، وأن آخر ما خلقه هو آدم، وكان خلقه يوم الجمعة. وهذا الحديث المختلف فيه يقتضى أنه خلق ذلك في الأيام السبعة، وقد روى إسناد أصح من هذا أن أول الخلق كان يوم الأحد، وكذلك روي أن أبا سفيان لما أسلم طلب من النبي ﷺ أن يتزوج بأمة حبيبة، وأن يتخذ معاوية كاتباً^(١). وغلظه في ذلك طائفة من الحفاظ.

ولكن جمهور متون الصحيحين متفق عليها بين أئمة الحديث، تلقوها بالقبول وأجمعوا عليها وهم يعلمون علماً قطعياً أن النبي ﷺ قالها. وبسط الكلام في هذا له موضع آخر.

وهذا الحديث المذكور في آدم يذكره طائفة من المصنفين بغير إسناد وما هو من جنسه مع زيادات أخرى، كما ذكر القاضي عياض قال: وحكى أبو محمد المكي وأبو الليث السمرقندي وغيرهما: «أن آدم عند معصيته قال: اللهم بحق محمد اغفر لي خطيئتي - قال: ويروى: تقبل توبتي - فقال الله له: من أين عرفت محمدًا؟ قال: رأيت في كل موضع من الجنة مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله - قال: ويروى: محمد عبدي ورسولي - فعلمت أنه أكرم خلقك عليك؛ فتاب عليه وغفر له»^(٢).

ومثل هذا لا يجوز أن تبنى عليه الشريعة، ولا يحتج به في الدين باتفاق المسلمين؛ فإن هذا من جنس الإسرائيليات ونحوها التي لا تعلم صحتها إلا بنقل/ ثابت عن النبي ﷺ، وهذه لو نقلها مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالهما ممن ينقل أخبار (المبتدأ، وقصص المتقدمين) عن أهل الكتاب لم يجوز أن يحتج بها في دين المسلمين باتفاق المسلمين، فكيف إذا نقلها من لا ينقلها لا عن أهل الكتاب ولا عن ثقات علماء المسلمين؟ بل إنما ينقلها ممن هو عند المسلمين مجروح ضعيف لا يحتج بحديثه، واضطرب عليه فيها اضطراباً يعرف به أنه لم يحفظ ذلك.

ولا ينقل ذلك ولا ما يشبهه أحد من ثقات علماء المسلمين الذين يعتمد على نقلهم، وإنما هي من جنس ما ينقله إسحاق بن بشر وأمثاله في (كتب المبتدأ)، وهذه لو كانت ثابتة عن الأنبياء لكانت شرعاً لهم، وحيث أن الاحتجاج بها مبنياً على أن شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا؟ والنزاع في ذلك مشهور. لكن الذي عليه الأئمة وأكثر العلماء أنه

(١) مسلم في فضائل الصحابة (١/٢٥٠/١٦٨).

(٢) القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى ص ١٧٣، ١٢٧٤.

شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه ، وهذا إنما هو فيما ثبت أنه شرع لمن قبلنا من نقل ثابت عن نبينا ﷺ ، أو بما تواتر عنهم لا بما يروى على هذا الوجه ، فإن هذا لا يجوز أن يحتج به في شرع المسلمين أحد من المسلمين .

ومن هذا الباب حديث ذكره موسى بن عبد الرحمن الصنعاني صاحب التفسير بإسناده عن ابن عباس مرفوعاً أنه قال : « من سره أن يعويه الله حفظ القرآن وحفظ أصناف العلم ، فليكتب هذا الدعاء في إناء نظيف أو في صحف قوارير بعسل وزعفران وماء مطر ، وليشربه على الريق ، وليصم ثلاثة أيام وليكن إفطاره عليه ، ويدعو به في أدبار صلواته : اللهم إني أسألك بأنك مسئول لم يسأل/مثلك ولا يسأل ، وأسألك بحق محمد نبيك ، ٢٥٩/١ وإبراهيم خليلك ، وموسى نبيك ، وعيسى روحك وكلمتك ووجهك » وذكر تمام الدعاء .

وموسى بن عبد الرحمن هذا من الكذابين ، قال أبو أحمد بن عدي فيه : منكر الحديث . وقال أبو حاتم بن حبان : دجال يضع الحديث ، وضع على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتاباً في التفسير جمعه من كلام الكلبي ومقاتل ، ويروى نحو هذا - دون الصوم - عن ابن مسعود من طريق موسى بن إبراهيم المروزي ، حدثنا وكيع ، عن عبيدة ، عن شقيق ، عن ابن مسعود . وموسى بن إبراهيم هذا قال فيه يحيى بن معين : كذاب ، وقال الدارقطني : متروك ، وقال ابن حبان : كان مغفلاً يلقي فيلقن فاستحق الترك . ويروي هذا عن عمر بن عبد العزيز عن مجاهد بن جبر عن ابن مسعود بطريق أضعف من الأول (١) .

ورواه أبو الشيخ الأصبهاني من حديث أحمد بن إسحاق الجوهري : حدثنا أبو الأشعث ، حدثنا زهير بن العلاء العتبي ، حدثنا يوسف بن يزيد ، عن الزهري ، ورفع الحديث قال : « من سره أن يحفظ فليصم سبعة أيام وليكن إفطاره في آخر الأيام السبعة على هؤلاء الكلمات » . قلت : وهذه أسانيد مظلمة لا يثبت بها شيء .

وقد رواه أبو موسى المديني في أماليه وأبو عبد الله المقدسي على عادة أمثالهم في رواية ما يروى في الباب ، سواء كان صحيحاً أو ضعيفاً كما اعتاده أكثر المتأخرين من المحدثين ، أنهم يروون ما روى به الفضائل ، ويجعلون العهدة/في ذلك على الناقل كما هي ٢٦٠/١ عادة المصنفين في فضائل الأوقات والأمكنة والأشخاص والعبادات .

كما يرويه أبو الشيخ الأصبهاني في فضائل الأعمال وغيره ، حيث يجمع أحاديث

(١) ابن الجوزي في الموضوعات ١٧٤/٣ ، ١٧٥ عن ابن مسعود .

كثيرة لكثرة روايته، وفيها أحاديث كثيرة قوية صحيحة وحسنة، وأحاديث كثيرة ضعيفة موضوعة وواهية.

وكذلك ما يرويه خيثمة بن سليمان في فضائل الصحابة، وما يرويه أبو نعيم الأصبهاني في (فضائل الخلفاء) في كتاب مفرد وفي أول (حلية الأولياء)، وما يرويه أبو الليث السمرقندي وعبد العزيز الكنانسي، وأبو علي بن البناء وأمثالهم من الشيوخ، وما يرويه أبو بكر الخطيب، وأبو الفضل بن ناصر، وأبو موسى المديني، وأبو القاسم بن عساكر، والحافظ عبد الغني، وأمثالهم ممن لهم معرفة بالحديث. فإنهم كثيراً ما يروون في تصانيفهم ما روى مطلقاً على عاداتهم الجارية؛ ليعرف ما روى في ذلك الباب لا ليحتج بكل ما روى، وقد يتكلم أحدهم على الحديث ويقول: غريب، ومنكر، وضعيف، وقد لا يتكلم.

وهذا بخلاف أئمة الحديث الذين يحتجون به، وينون عليه دينهم، مثل مالك بن أنس، وشعبة بن الحجاج، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، ووكيع بن الجراح، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وعلي بن المديني، والبخاري، وأبى زرعة وأبي حاتم، وأبي داود، ومحمد بن نصر المروزي، وابن خزيمة، وابن المنذر، وداود بن علي، ومحمد بن جرير الطبري، وغير هؤلاء، فإن هؤلاء الذين يبنون الأحكام على الأحاديث يحتاجون أن يجتهدوا في معرفة صحيحها وضعيفها وتمييز رجالها. ٢٦١/١

وكذلك الذين تكلموا في الحديث والرجال؛ ليميزوا بين هذا وهذا لأجل معرفة الحديث، كما يفعل أبو أحمد بن عدي، وأبو حاتم البستي، وأبو الحسن الدارقطني، وأبو بكر الإسماعيلي، وكما قد يفعل ذلك أبو بكر البيهقي، وأبو إسماعيل الأنصاري، وأبو القاسم الزنجاني، وأبو عمر بن عبد البر، وأبو محمد بن حزم، وأمثال هؤلاء فإن بسط هذه الأمور له موضع آخر. ولم نذكر من لا يروى بإسناد - مثل كتاب (وسيلة المتعبدين) لعمر الملا الموصلي وكتاب (الفردوس) لشهريار الديلمي، وأمثال ذلك - فإن هؤلاء دون هؤلاء الطبقات، وفيما يذكرونه من الأكاذيب أمر كبير.

والمقصود هنا: أنه ليس في هذا الباب حديث واحد مرفوع إلى النبي ﷺ يعتمد عليه في مسألة شرعية باتفاق أهل المعرفة بحديثه، بل المروي في ذلك إنما يعرف أهل المعرفة بالحديث أنه من الموضوعات إما تعمداً من واضعه وإما غلطاً منه.

وفي الباب آثار عن السلف أكثرها ضعيفة.

فمنها حديث الأربعة الذين اجتمعوا عند الكعبة وسألوا ، وهم : عبد الله ومصعب ابنا الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الملك بن مروان ، وذكره ابن أبي الدنيا في كتاب (مجابي الدعاء) ورواه من طريق إسماعيل بن أبان الغنوي، / عن سفيان الثوري عن طارق ٢٦٢/١ ابن عبد العزيز عن الشعبي أنه قال : «لقد رأيت عجبا ، كنا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان ، فقال القوم بعد أن فرغوا من حديثهم : ليقم كل رجل منكم فليأخذ بالركن اليماني ، ويسأل الله حاجته فإنه يعطى من سعة . ثم قالوا : قم يا عبد الله بن الزبير فإنك أول مولود في الإسلام بعد الهجرة ، فقام فأخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهم إنك عظيم ترجى لكل عظيم ، أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة نبيك ألا تميميني من الدنيا حتى توليني الحجاز ، ويسلم على بالخلافة ، ثم جاء فجلس .

ثم قام مصعب فأخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهم إنك رب كل شيء ، وإليك يصير كل شيء ، أسألك بقدرتك على كل شيء ، ألا تميميني من الدنيا حتى توليني العراق ، وتزوجني بسكينة بنت الحسين .

ثم قام عبد الملك بن مروان فأخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهم رب السموات السبع ، ورب الأرض ذات النبت بعد القفر ، أسألك بما سألك به عبادك المطيعون لأمرك ، وأسألك بحقك على خلقك . وبحق الطائفين حول عرشك» إلى آخره^(١) .

قلت : وإسماعيل بن أبان الذي روى هذا عن سفيان الثوري كذاب ، قال أحمد بن حنبل : كتبت عنه ، ثم حدث بأحاديث موضوعة فتركناه . وقال يحيى بن معين : وضع حديثا على السابع من ولد العباس يلبس الخضرة يعني المأمون ، / وقال البخاري ومسلم ٢٦٣/١ وأبو زرعة والدارقطني : متروك . وقال الجوزجاني : ظهر منه على الكذب . وقال أبو حاتم : كذاب . وقال ابن حبان : يضع على الثقات . وطارق بن عبد العزيز الذي ذكر أن الثوري روى عنه لا يعرف من هو . قال : فإن طارق بن عبد العزيز المعروف الذي روي عنه ابن عجلان ليس من هذه الطبقة .

وقد خولف فيها فرواها أبو نعيم عن الطبراني : حدثنا أحمد بن زيد بن الجريش ، حدثنا أبو حاتم السجستاني ، حدثنا الأصمعي قال : حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : «اجتمع في الحجر مصعب وعروة وعبد الله أبناء الزبير وعبد الله بن عمر

(١) ابن أبي الدنيا في مجابي الدعوة (٨٢) .

فقالوا: تمنوا . فقال عبد الله بن الزبير: أما أنا فأتمنى الخلافة، وقال عروة: أما أنا فأتمنى أن يؤخذ عني العلم، وقال مصعب: أما أنا فأتمنى إمرة العراق، والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، وقال عبد الله بن عمر: أما أنا فأتمنى المغفرة . قال: فنال كلهم ما تمنوا، ولعل ابن عمر قد غفر له^(١). قلت: وهذا إسناد خير من ذاك الإسناد باتفاق أهل العلم، وليس فيه سؤال بالملحوقات.

وفي الباب حكايات عن بعض الناس أنه رأى مناما قيل له فيه: ادع بكذا وكذا، ومثل هذا لا يجوز أن يكون دليلاً باتفاق العلماء، وقد ذكر بعض هذه الحكايات من جمع ٢٦٤/١ الأدعية، وروى في ذلك أثر عن بعض السلف مثل ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (مجايب الدعاء)، قال: حدثنا أبو هاشم، سمعت كثير بن محمد بن كثير بن رفاعة يقول: جاء رجل إلى عبد الملك بن سعيد بن أبجر فجلس بطنه فقال: بك داء لا يبرأ . قال: ما هو؟ قال: الدبيلة^(٢). قال: فتحول الرجل فقال: الله، الله، الله ربي لا أشرك به شيئاً، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ﷺ، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربك وربى يرحمني مما بي . قال: فجلس بطنه فقال: قد برئت، ما بك علة^(٣).

قلت: فهذا الدعاء ونحوه قد روى أنه دعا به السلف، ونقل عن أحمد بن حنبل في منسك المروزي التوسل بالنبي ﷺ في الدعاء، ونها عنه آخرون. فإن كان مقصود المتوسلين التوسل بالإيمان به وبمحبه وبموالاته وبطاعته فلا نزاع بين الطائفتين، وإن كان مقصودهم التوسل بذاته فهو محل النزاع، وما تنازعوا فيه يرد إلى الله والرسول.

وليس مجرد كون الدعاء حصل به المقصود ما يدل على أنه سائغ في الشريعة، فإن كثيراً من الناس يدعون من دون الله من الكواكب والمخلوقين ويحصل ما يحصل من غرضهم، وبعض الناس يقصدون الدعاء عند الأوثان والكائنات وغير ذلك، ويدعو التماثيل التي في الكنائس، ويحصل ما يحصل من غرضه، وبعض الناس يدعون بأدعية محرمة باتفاق المسلمين، ويحصل ما يحصل من غرضهم. فحصول الغرض ببعض الأمور ٢٦٥/١ لا يستلزم إباحته، وإن كان الغرض مباحاً، فإن ذلك الفعل قد يكون فيه مفسدة راجحة على مصلحته، والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها،

(١) أبو نعيم في حلية الأولياء ١٧٦/٢.

(٢) الدبيلة: داء في الجوف. انظر: القاموس المحيط، مادة «دبل».

(٣) ابن أبي الدنيا في مجايب الدعوة (١٢٧).

وإلا فجميع المحرمات من الشرك والخمر والميسر والفواحش والظلم قد يحصل لصاحبه به منافع ومقاصد ، لكن لما كانت مفاسدها راجحة على مصالحها ، نهى الله ورسوله عنها ، كما أن كثيراً من الأمور كالعبادات والجهاد وإنفاق الأموال قد تكون مضرّة ، لكن لما كانت مصلحته راجحة على مفسدته أمر به الشارع .

فهذا أصل يجب اعتباره ، ولا يجوز أن يكون الشيء واجباً أو مستحباً إلا بدليل شرعي يقتضى إيجابه أو استحبابه . والعبادات لا تكون إلا واجبة أو مستحبة ، فما ليس بواجب ولا مستحب فليس بعبادة . والدعاء لله تعالى عبادة إن كان المطلوب به أمراً مباحاً .

وفي الجملة ، فقد نقل عن بعض السلف والعلماء السؤال به ، بخلاف دعاء الموتى والغائبين من الأنبياء والملائكة والصالحين والاستغاثة بهم والشكوى إليهم ، فهذا مما لم يفعله أحد من السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا رخص فيه أحد من أئمة المسلمين .

وحديث الأعمى الذي رواه الترمذي والنسائي هو من القسم الثاني من التوسل بدعائه ، فإن الأعمى قد طلب من النبي ﷺ أن يدعو له بأن يرد الله عليه بصره ، فقال له : « إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك » فقال : بل ادعه ، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويقول : « اللهم إني أسألك / بنبيك نبي الرحمة ، يا محمد ، يا رسول الله ، إني ٢٦٦/١ أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه ليقضيها ، اللهم فشفعه في » ^(١) فهذا توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته ، ودعا له النبي ﷺ ، ولهذا قال : « وشفعه في » فسأل الله أن يقبل شفاعة رسوله فيه وهو دعاؤه .

وهذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي ﷺ ودعائه المستجاب ، وما أظهر الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات ، فإنه ﷺ ببركة دعائه لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره .

وهذا الحديث - حديث الأعمى - قد رواه المصنفون في دلائل النبوة كالبيهقي وغيره : رواه البيهقي من حديث عثمان بن عمر ، عن شعبة ، عن أبي جعفر الخطمي ، قال : سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف ، أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني ، فقال له : « إن شئت أخرجت ذلك فهو خير لك ، وإن

(١) الترمذي في الدعوات (٣٥٧٨) ، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة ٦ / ١٦٩ (٢/١٠٤٩٥) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٨٥) ، كلهم عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه .

شئت دعوت» قال: فادعه، فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فيقضيها لي، اللهم فشفعه في وشفعني فيه»^(١) قال: فقام وقد أبصر، ومن هذا الطريق رواه الترمذي من حديث عثمان بن عمر.

ومنها: ما رواه النسائي وابن ماجه أيضا، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو غير الخطمي، هكذا وقع في الترمذي ٢٦٧/١، وسائر العلماء قالوا: هو أبو جعفر الخطمي وهو الصواب،/ وأيضاً فالترمذي ومن معه لم يستوعبوا لفظه كما استوعبه سائر العلماء، بل روه إلى قوله: «اللهم شفعه في».

قال الترمذي: حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا شعبة، عن أبي جعفر، عن عمارة بن خزيمة بن ثابت، عن عثمان بن حنيف، أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني قال: «إن شئت صبرت فهو خير لك» قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى، اللهم شفعه في»^(٢)، قال البيهقي: رويناه في (كتاب الدعوات) بإسناد صحيح عن روح بن عباد عن شعبة، قال: ففعل الرجل فبرأ، قال: وكذلك رواه حماد ابن سلمة عن أبي جعفر الخطمي^(٣).

قلت: ورواه الإمام أحمد في مسنده عن روح بن عباد كما ذكره البيهقي، قال أحمد: حدثنا روح بن عباد، حدثنا شعبة، عن أبي جعفر المدني، سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف: أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، ادع الله أن يعافيني، قال: «إن شئت أخرت ذلك فهو خير لآخرتك، وإن شئت دعوت لك» قال: لا، بل ادع الله لي، فأمره أن يتوضأ وأن يصلي ركعتين وأن يدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى الله في حاجتي هذه، فتقضى لي وتشفعني فيه وتشفعه في» قال: ٢٦٨/١ ففعل الرجل فبرأ^(٤).

(١) البيهقي في دلائل النبوة ١٦٦/٦.

(٢) سبق تخريجه ص ٨٠.

(٣) البيهقي في دلائل النبوة ١٦٧/٦.

(٤) أحمد في مسنده ٤، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣٨٥) وأبو جعفر المدني: نسبة إلى المدينة المنورة، ويجوز المدني.

رواه البيهقي أيضاً من حديث شبيب بن سعيد الحطّبيّ، عن روح بن القاسم، عن أبي جعفر المدني - وهو الخطّميّ - عن أبي أمامة سهل بن حنيف، عن عثمان بن حنيف قال: سمعت رسول الله ﷺ وجاءه رجل ضرير يشتكي إليه ذهاب بصره فقال: يا رسول الله، ليس لي قائد وقد شق عليّ؛ فقال رسول الله ﷺ: «أنت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي فيجلى عن بصري، اللهم فشفعه في وشفعني في نفسي» قال عثمان ابن حنيف: والله ما تفرقنا ولا طال الحديث بنا حتى دخل الرجل كأنه لم يكن به ضر قط^(١).

فرواية شبيب عن روح عن أبي جعفر الخطّمي خالفت رواية شعبة وحماد بن سلمة في الإسناد والمتن، فإن في تلك أنه رواه أبو جعفر عن عمارة بن خزيمة، وفي هذه أنه رواه عن أبي أمامة سهل، وفي تلك الرواية أنه قال: فشفعه في وشفعني فيه، وفي هذه وشفعني في نفسي. لكن هذا الإسناد له شاهد آخر من رواية هشام الدستوائي عن أبي جعفر.

ورواه البيهقي من هذا الطريق وفيه قصة قد يحتج بها من توسل به بعد موته - إن كانت صحيحة - رواه من حديث إسماعيل بن شبيب بن سعيد الحطّبي عن شبيب بن سعيد عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المدني عن أبي أمامة سهل بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان، في حاجة له وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر، في حاجته، فلقي الرجل عثمان بن حنيف/فشكا إليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف: أئت الميضأة فتوضأ ثم أئت المسجد فصل ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي لي حاجتي، ثم اذكر حاجتك، ثم رح حتى أروح معك. قال: فانطلق الرجل فصنع ذلك، ثم أتى بعد عثمان ابن عفان، فجاء الباب فأخذ بيده فأدخله على عثمان فأجلسه معه على الطنفسة وقال: انظر ما كانت لك من حاجة. فذكر حاجته فقضاها له.

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلي حتى كلمته في. فقال عثمان بن حنيف: ما كلمته ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: وجاءه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له

(١) البيهقي في دلائل النبوة ١٦٧/٦.

النبي ﷺ: «أو تصبر؟» فقال له : يا رسول الله ، ليس لي قائد وقد شق عليّ ، فقال :
«أنت الميضاة فتوضأ وصل ركعتين ، ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد
نبي الرحمة ، يا محمد ، إني أتوجه إلى ربي فيجلى لي عن بصري ، اللهم فشفعه في
وشفعني في نفسي» قال عثمان بن حنيف : فوالله ما تفرقنا وما طال بنا الحديث حتى
دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط^(١).

قال البيهقي : ورواه أحمد بن شبيب بن سعيد عن أبيه بطوله ، وساقه من رواية
يعقوب بن سفيان عن أحمد بن شبيب بن سعيد . قال : رواه أيضاً هشام الدستوائي عن
أبي جعفر عن أبي أمامة بن سهل عن عمه - وهو عثمان بن حنيف^(٢) - ولم يذكر إسناد

٢٧٠/١ هذه الطرق.

قلت : وقد رواه النسائي في كتاب (عمل اليوم والليلة) من هذه الطريق من حديث
معاذ بن هشام ، عن أبيه ، عن أبي جعفر ، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ، عن عمه
عثمان بن حنيف . ورواه أيضاً من حديث شعبة وحماد بن سلمة كلاهما عن أبي جعفر ،
عن عمارة بن خزيمة^(٣) ، ولم يروه أحد من هؤلاء - لا الترمذي ولا النسائي ولا ابن
ماجه - من تلك الطريق الغربية التي فيها الزيادة : طريق شبيب بن سعيد عن روح بن
القاسم .

لكن رواه الحاكم في مستدركه من الطريقين ، فرواه من حديث عثمان بن عمر : حدثنا
شعبة ، عن أبي جعفر المدني ، سمعت عمارة بن خزيمة يحدث عن عثمان بن حنيف ، أن
رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني فقال : « إن شئت أخرت ذلك فهو
خير لك ، وإن شئت دعوت » قال : فادعه . فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي
ركعتين ، ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ،
يا محمد ، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه ، اللهم فشفعه في وشفعني فيه » قال
الحاكم : على شرطهما^(٤).

ثم رواه من طريق شبيب بن سعيد الحسبي وعون بن عمارة ، عن روح بن القاسم ،
عن أبي جعفر الخطمي المدني ، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ، عن عمه عثمان بن
حنيف ، أنه سمع النبي ﷺ وجاءه ضريراً فشكا إليه ذهاب بصره وقال : يا رسول الله ،

(١) ، ٢) البيهقي في دلائل النبوة ١٦٧/٦ ، ١٦٨ .

(٣) انظر : النسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة ١٦٩/٦ .

(٤) الحاكم في المستدرک في صلاة التطوع ٣١٣/١ ، وقال : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم
يخرجاه » ووافقه الذهبي .

ليس لي قائد وقد شق علي ، فقال : « ائت الميضأة فتوضاً ثم صل ركعتين ، ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك / محمد نبي الرحمة ، يا محمد ، إني أتوجه بك إلى ٢٧١/١ ربي فيجلى لي عن بصري ، اللهم فشفعه فيّ وشفعني في نفسي » قال عثمان : فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكأن لم يكن به ضرر قط . قال الحاكم : على شرط البخاري^(١).

وشيب هذا صدوق روى له البخاري ، ولكنه قد روى له عن روح بن الفرّج أحاديث مناكير رواها ابن وهب ، وقد ظن أنه غلط عليه . ولكن قد يقال مثل هذا إذا انفرد عن الثقات الذين هم أحفظ منه مثل شعبة وحماد بن سلمة وهشام الدستوائي بزيادة كان ذلك عليه في الحديث ، لا سيما وفي هذه الرواية أنه قال : « فشفعه في وشفعني في نفسي » وأولئك قالوا : « فشفعه في وشفعني فيه » ومعنى قوله : « وشفعني فيه » أي في دعائه وسؤاله لي فيطابق قوله : « وشفعه في » .

قال أبو أحمد بن عدي في كتابه المسمى (بالكامل في أسماء الرجال) - ولم يصنف في فنه مثله - : شيب بن سعيد الحبطي أبو سعيد البصري التميمي حدث عنه ابن وهب بالناكير ، وحدث عن يونس عن الزهري بنسخة الزهري أحاديث مستقيمة ، وذكر عن علي ابن المديني أنه قال : هو بصري ثقة ، كان من أصحاب يونس ، كان يختلف في تجارة إلى مصر وجاء بكتاب صحيح ، قال : وقد كتبها عنه ابنه أحمد بن شيب . وروى عن عدي حديثين عن ابن وهب عن شيب هذا عن روح بن الفرّج :

أحدهما : عن ابن عقيل ، عن سابق بن ناجية ، عن ابن سلام قال : مر بنا رجل فقالوا : إن هذا قد خدم النبي ﷺ .

٢٧٢/١

والثاني : عنه ، عن روح بن الفرّج ، عن عبد الله بن الحسين ، عن أمه فاطمة حديث دخول المسجد ، قال ابن عدي : كذا قيل في الحديث عن عبد الله بن الحسين ، عن أمه فاطمة بنت الحسين ، عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، قال ابن عدي : ولشيب بن سعيد نسخة الزهري عنده عن يونس عن الزهري وهي أحاديث مستقيمة . وحدث عنه ابن وهب بأحاديث مناكير .

وحدثني روح بن الفرّج اللذين أملتَهُما يرويهما ابن وهب عن شيب ، وكان شيب ابن سعيد إذا روي عنه ابنه أحمد بن شيب نسخة الزهري ، ليس هو شيب بن سعيد

(١) الحاكم في المستدرك في الدعاء ٥٢٦/١ ، وقال : « هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي .

الذي يحدث عنه ابن وهب بالمناكير التي يرويها عنه، ولعل شيبا بمصر في تجارته إليها كتب عنه ابن وهب من حفظه فيغلط ويهم، وأرجو ألا يعتمد شيب هذا الكذب^(١).

قلت: هذان الحديثان اللذان أنكرهما ابن عدي عليه، رواهما عن روح بن القاسم، وكذلك هذا الحديث -حديث الأعمى- رواه عن روح بن القاسم. وهذا الحديث مما رواه عنه ابن وهب أيضاً كما رواه عنه ابنه، لكنه لم يتقن لفظه كما أتقنه ابنه.

وهذا يصحح ما ذكره ابن عدي، فعلم أنه محفوظ عنه، وابن عدي أحال الغلط عليه لا على ابن وهب، وهذا صحيح إن كان قد غلط، وإذا كان قد غلط على روح بن القاسم في ذينك الحديثين أمكن أن يكون غلط عليه في هذا الحديث، وروح بن القاسم ثقة مشهور روى له الجماعة، فلهذا لم يحيلوا الغلط عليه.

والرجل قد يكون حافظاً لما يروي عن شيخ غير حافظ لما يروي عن آخر، مثل إسماعيل بن عياش فيما يروي عن الحجازيين، فإنه يغلط فيه، بخلاف ما يروي عن الشاميين. ومثل سفيان بن حسين فيما يروي عن الزهري. ومثل هذا كثير، فيحتمل أن يكون هذا يغلط فيما يروي عن روح بن القاسم - إن كان الأمر كما قاله ابن عدي - وهذا محل نظر.

وقد روى الطبراني هذا الحديث في المعجم من حديث ابن وهب عن شيب بن سعيد، ورواه من حديث أصبغ بن الفرغ: حدثنا عبد الله بن وهب، عن شيب بن سعيد المكي، عن روح بن القاسم، عن أبي جعفر الخطمي المدني، عن أبي أمامة بن سهل ابن حنيف، عن عمه عثمان بن حنيف، أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له، فلقي عثمان بن حنيف فشكا إليه ذلك، فقال له عثمان بن حنيف: انت الميضاة فتوضاً، ثم انت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنينا محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربك عز وجل فيقضى لي حاجتي. وتذكر حاجتك، ورح حتى أروح معك، فانطلق الرجل فصنع ما قاله له، ثم أتى باب عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة، وقال: حاجتك، فذكر حاجته فقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فأتتنا.

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف، فقال له: جزاك الله خيراً، ما

(١) انظر: ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال ٤/ ٣٠، ٣١.

كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليَّ حتى كلمته في . فقال له عثمان بن حنيف: / والله ما ٢٧٤/١ كلمته ، ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره ، فقال له النبي ﷺ: «أفتصبر؟» فقال : يا رسول الله إنه ليس لي قائد وقد شق عليَّ ، فقال له رسول الله ﷺ: «أنت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ، ثم ادع بهذه الدعوات » فقال عثمان بن حنيف : فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل ، كأنه لم يكن به ضر قط .

قال الطبراني: روى هذا الحديث شعبة عن أبي جعفر واسمه عمر بن يزيد وهو ثقة ، تفرد به عثمان بن عمر عن شعبة ، قال أبو عبد الله المقدسي : والحديث صحيح^(١) .

قلت : والطبراني ذكر تفرد بمبلغ علمه ولم تبلغه رواية روح بن عباد عن شعبة ، وذلك إسناد صحيح ، يبين أنه لم يتفرد به عثمان بن عمر ، وطريق ابن وهب هذه تؤيد ما ذكره ابن عدي ، فإنه لم يحرق لفظ الرواية كما حررها ابنه ، بل ذكر فيها أن الأعمى دعا بمثل ما ذكره عثمان بن حنيف ، وليس كذلك بل في حديث الأعمى أنه قال : «اللهم شفعه في وشفعني فيه -أو قال - في نفسي» .

وهذه لم يذكرها ابن وهب في روايته ، فيشبه أن يكون حدث ابن وهب من حفظه - كما قال ابن عدي - فلم يتقن الرواية . وقد روي أبو بكر بن أبي خيثمة في تاريخه حديث حماد بن سلمة فقال: حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا حماد بن سلمة ، أنا أبو جعفر الخطمي ، عن عمارة بن خزيمة ، عن عثمان بن حنيف ، أن رجلاً أعمى أتى النبي ﷺ ٢٧٥/١ فقال: إني أصبت في بصري فادع الله لي . قال : « اذهب فتوضأ وصل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة . يا محمد ، أستشفع بك على ربي في رد بصري ، اللهم شفّعني في نفسي وشفّع نبيي في رد بصري ، وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك » فرد الله عليه بصره .

قال ابن أبي خيثمة : وأبو جعفر هذا - الذي حدث عنه حماد بن سلمة - اسمه عمير بن يزيد وهو أبو جعفر الذي يروي عنه شعبة ، ثم ذكر الحديث من طريق عثمان بن عمر عن شعبة . قلت : وهذه الطريق فيها « شفّعني في نفسي » مثل طريق روح بن القاسم ، وفيها زيادة أخرى وهي قوله : « وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك - أو قال - فعل مثل ذلك » .

وهذه قد يقال : إنها توافق قول عثمان بن حنيف ، لكن شعبة وروح بن القاسم

(١) الطبراني في الكبير ١٧/٩ ، ١٨ (٨٣١١) ، وفي الصغير ١٨٣/١ ، ١٨٤ .

أحفظ من حماد بن سلمة، واختلاف الألفاظ يدل على أن مثل هذه الرواية قد تكون بالمعنى، وقوله: « وإن كانت حاجة فعل مثل ذلك » قد يكون مدرجاً من كلام عثمان لا من كلام النبي ﷺ فإنه لم يقل: « وإن كانت لك حاجة فعلت مثل ذلك »، بل قال: « وإن كانت حاجة فعل مثل ذلك ».

وبالجملة، فهذه الزيادة لو كانت ثابتة لم يكن فيها حجة، وإنما غايتها أن يكون عثمان ابن حنيف ظن أن الدعاء يدعى ببعضه دون بعض، فإنه لم يأمره بالدعاء المشروع، بل ببعضه، وظن أن هذا مشروع بعد موته ﷺ، ولفظ الحديث يناقض ذلك، فإن في الحديث ٢٧٦/١ أن الأعمى سأل النبي ﷺ أن يدعو له، وأنه علم الأعمى أن يدعو وأمره في الدعاء أن يقول: « اللهم فشفعه في »، وإنما يدعي بهذا الدعاء إذا كان النبي ﷺ داعياً شافعاً له، بخلاف من لم يكن كذلك، فهذا يناسب شفاعته ودعائه للناس في محياه في الدنيا ويوم القيامة إذا شفع لهم.

وفيه أيضاً أنه قال: « وشفعني فيه »، وليس المراد أنه يشفع للنبي ﷺ في حاجة للنبي ﷺ - وإن كنا مأمورين بالصلاة والسلام عليه، وأمرنا أن نسأل الله له الوسيلة - ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: « من قال إذا سمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعده، حلت له شفاعتي يوم القيامة » (١).

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا على، فإن من صلى على صلاة صلى الله عليه عشرًا، ثم سألوا الله لى الوسيلة، فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » (٢).

وسؤال الأمة له الوسيلة هو دعاء له وهو معنى الشفاعة؛ ولهذا كان الجزاء من جنس العمل، فمن صلى عليه صلى الله عليه، ومن سأل الله له الوسيلة المتضمنة لشفاعته شفع له ﷺ، كذلك الأعمى سأل منه الشفاعة فأمره أن يدعو الله بقبول هذه الشفاعة وهو كالشفاعة في الشفاعة؛ فلماذا قال: « اللهم فشفعه في وشفعني فيه ».

وذلك أن قبول دعاء النبي ﷺ في مثل هذا هو من كرامة الرسول على ربه؛ ولهذا عد هذا من آياته ودلائل نبوته، فهو كشفاعته يوم القيامة في الخلق؛ ولهذا أمر طالب الدعاء أن يقول: « فشفعه في وشفعني فيه » بخلاف قوله: « وشفعني في نفسي » فإن هذا اللفظ لم يروه أحد من هذا الطريق الغريب.

وقوله: « وشفعني فيه » رواه عن شعبة رجلان جليلان: عثمان بن عمر، وروح بن عباد. وشعبة أجمل من روى هذا الحديث، ومن طريق عثمان بن عمر عن شعبة رواه

(١) سبق تخريجه ص ٦٢. (٢) مسلم فى الصلاة (٣٨٤/١١).

الثلاثة : الترمذي والنسائي وابن ماجه .

رواه الترمذي عن محمود بن غيلان عن عثمان بن عمر عن شعبة، ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سيار عن عثمان بن عمر، وقد رواه أحمد في المسند عن روح بن عبادة عن شعبة، فكان هؤلاء أحفظ للفظ الحديث . مع أن قوله : «وشفعني في نفسي» إن كان محفوظاً مثل ما ذكرناه، وهو أنه طلب أن يكون شافعاً لنفسه مع دعاء النبي ﷺ ولو لم يدع له النبي ﷺ كان سائلاً مجرداً كسائر السائلين .

ولا يسمى مثل هذا شفاعة، وإنما تكون الشفاعة إذا كان هناك اثنان يطلبان أمراً ٢٧٨/١ فيكون أحدهما شافعاً للآخر ، بخلاف الطالب الواحد الذي لم يشفع غيره .

فهذه الزيادة فيها عدة علل : انفراد هذا بها عمن هو أكبر وأحفظ منه وإعراض أهل السنن عنها ، واضطراب لفظها ، وأن راويها عرف له - عن روح هذا - أحاديث منكورة .

ومثل هذا يقتضي حصول الريب والشك في كونها ثابتة، فلا حجة فيها؛ إذ الاعتبار بما رواه الصحابي لا بما فهمه إذا كان اللفظ الذي رواه لا يدل على ما فهمه بل على خلافه .

ومعلوم أن الواحد بعد موته إذا قال : اللهم فشفعه في وشفعني فيه - مع أن النبي ﷺ لم يدع له - كان هذا كلاماً باطلاً، مع أن عثمان بن حنيف لم يأمره أن يسأل النبي ﷺ شيئاً ، ولا أن يقول : فشفعه فيّ، ولم يأمره بالدعاء المأثور على وجهه، وإنما أمره ببعضه، وليس هناك من النبي ﷺ شفاعة ولا ما يظن أنه شفاعة ، فلو قال بعد موته : «فشفعه في» لكان كلاماً لا معنى له ؛ ولهذا لم يأمر به عثمان .

والدعاء المأثور عن النبي ﷺ لم يأمر به، والذي أمر به ليس مأثوراً عن النبي ﷺ .

ومثل هذا لا تثبت به شريعة كسائر ما ينقل عن آحاد الصحابة في جنس العبادات أو ٢٧٩/١ الإباحات أو الإيجابات أو التحريمات إذا لم يوافقه غيره من الصحابة عليه - وكان ما يثبت عن النبي ﷺ يخالفه لا يوافقه - لم يكن فعله سنة يجب على المسلمين اتباعها، بل غايته أن يكون ذلك مما يسوغ فيه الاجتهاد، وما تنازعت فيه الأمة، فيجب رده إلى الله والرسول .

ولهذا نظائر كثيرة : مثل ما كان ابن عمر يدخل الماء في عينيه في الوضوء ، ويأخذ لأذنيه ماءً جديداً، وكان أبو هريرة يغسل يديه إلى العضدين في الوضوء، ويقول : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل ، وروى عنه أنه كان يمسح عنقه ويقول : هو موضع الغل . فإن هذا وإن استحبه طائفة من العلماء اتباعاً لهما فقد خالفهم في ذلك آخرون وقالوا :

سائر الصحابة لم يكونوا يتوضؤون هكذا.

والوضوء الثابت عنه ﷺ الذي في الصحيحين^(١) وغيرهما من غير وجه، ليس فيه أخذ ماء جديد للأذنين ، ولا غسل ما زاد على المرفقين والكعبين ، ولا مسح السنق ، ولا قال النبي ﷺ : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل . بل هذا من كلام أبي هريرة جاء مدرجاً في بعض الأحاديث ، وإنما قال النبي ﷺ : «إنكم تأتون يوم القيامة غراً مُجَلِّين من آثار الوضوء»^(٢) ، وكان ﷺ يتوضأ حتى يشرع في العضد والساق ، قال أبو هريرة : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل^(٣) ، وظن من ظن أن غسل العضد من إطالة الغرة ، وهذا لا معنى له ، فإن الغرة في الوجه لا في اليد والرجل ، وإنما في اليد والرجل الحجلّة ، والغرة لا يمكن إطالتها ، فإن الوجه يغسل كله لا يغسل الرأس ولا غرة في الرأس ، والحجلّة لا يستحب إطالتها ، وإطالتها مثله .

وكذلك ابن عمر كان يتحرى أن يسير مواضع سير النبي ﷺ ، وينزل مواضع منزله ويتوضأ في السفر حيث رآه يتوضأ ، ويصب فضل مائه على شجرة صب عليها ، ونحو ذلك مما استحبه طائفة من العلماء ورأوه مستحباً ، ولم يستحب ذلك جمهور العلماء ، كما لم يستحبه ، ولم يفعله أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ ابن جبل وغيرهم ، لم يفعلوا مثل ما فعل ابن عمر . ولو رأوه مستحباً لفعلوه كما كانوا يتحرون متابعتهم والافتداء به .

وذلك لأن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعل ، فإذا فعل فعلاً على وجه العبادة شرع لنا أن نفعله على وجه العبادة ، وإذا قصد تخصيص مكان أو زمان بالعبادة خصصناه بذلك ، كما كان يقصد أن يطوف حول الكعبة ، وأن يستلم الحجر الأسود ، وأن يصلي خلف المقام ، وكان يتحرى الصلاة عند اسطوانة مسجد المدينة ، وقصد الصعود على الصفا والمروة ، والدعاء والذكر هناك ، وكذلك معرفة ومزدلفة وغيرهما .

وأما ما فعله بحكم الاتفاق ولم يقصده - مثل أن ينزل بمكان ويصلي فيه لكونه نزل لا قصداً لتخصيصه به بالصلاة والنزول فيه - فإذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه ، أو النزول لم نكن متبعين ، بل هذا من البدع التي كان ينهى عنها عمر بن الخطاب ،

(١) البخاري في الوضوء (١٥٩) ، ومسلم في الطهارة (٣/٢٢٦) .

(٢ ، ٣) البخاري في الوضوء (١٣٦) ، ومسلم في الطهارة (٢٣٦ - ٣٥) ، وأحمد ٣٣٤/٢ .

كما ثبت بالإسناد الصحيح من حديث شعبة عن سليمان التيمي عن المعرور بن سويد، قال: كان عمر بن الخطاب في سفر فصلي الغداة ثم أتى على مكان فجعل الناس يأتونه فيقولون: صلى فيه النبي ﷺ، فقال عمر: إنما هلك أهل الكتاب أنهم اتبعوا آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعاً، فمن عرضت له الصلاة فليصل، وإلا فليمض^(١).

فلما كان النبي ﷺ لم يقصد تخصيصه بالصلاة فيه بل صلى فيه لأنه موضع نزوله، رأى عمر أن مشاركته في صورة الفعل من غيره موافقة له في قصده ليس متابعة، بل تخصيص ذلك المكان بالصلاة من بدع أهل الكتاب التي هلكوا بها، ونهى المسلمين عن التشبه بهم في ذلك، ففاعل ذلك متشبه بالنبي ﷺ في الصورة ومتشبه باليهود والنصارى في القصد الذي هو عمل القلب.

وهذا هو الأصل، فإن المتابعة في السنة أبلغ من المتابعة في صورة العمل؛ ولهذا لما اشتبه على كثير من العلماء جلسة الاستراحة: هل فعلها استحباباً أو لحاجة عارضة تنازعوا فيها، وكذلك نزوله بالمُحَصَّب عند الخروج من منى لما اشتبه: هل فعله لأنه كان أسمع لخروجه أو لكونه سنة؟ تنازعوا في ذلك. ومن هذا وضع ابن عمر يده على مقعد النبي ﷺ، وتعريف ابن عباس بالبصرة وعمر بن حريث بالكوفة، فإن هذا لما لم يكن/مما يفعله سائر الصحابة، ولم يكن النبي ﷺ شرعه لأمته، لم يمكن أن يقال: هذا ٢٨٢/١ سنة مستحبة، بل غايته أن يقال: هذا مما ساء فيه اجتهاد الصحابة، أو مما لا ينكر على فاعله؛ لأنه مما يسوغ فيه الاجتهاد، لا لأنه سنة مستحبة سنّها النبي ﷺ لأمته، أو يقال في التعريف: إنه لا بأس به أحياناً لعارض إذا لم يجعل سنة راتبة.

وهكذا يقول أئمة العلم في هذا وأمثاله، تارة يكرهونه، وتارة يسوغون فيه الاجتهاد، وتارة يرخصون فيه إذا لم يتخذ سنة، ولا يقول عالم بالسنة: إن هذه سنة مشروعة للمسلمين.

فإن ذلك إنما يقال فيما شرعه رسول الله ﷺ، إذ ليس لغيره أن يسن ولا أن يشرع، وما سنّه خلفاؤه الراشدون فإنما سنّوه بأمره فهو من سنّته، ولا يكون في الدين واجبا إلا ما أوجبه، ولا حراماً إلا ما حرمه، ولا مستحباً إلا ما استحبه، ولا مكروهاً إلا ما كرهه، ولا مباحاً إلا ما أباحه.

وهكذا في الإباحات، كما استباح أبو طلحة أكل البرد وهو صائم، واستباح حذيفة

(١) عبد الرزاق في مصنفه ١١٨/٢ (٢٧٣٤). بمعناه وفي المطبوعة: «المعروف» بدل «المعرور» وهو خطأ.

السحور بعد ظهور الضوء المنتشر حتى قيل: هو النهار، إلا أن الشمس لم تطلع
وغيرهما من الصحابة لم يقل بذلك، فوجب الرد إلى الكتاب والسنة.

وكذلك الكراهة والتحريم . مثل كراهة عمر وابنه للطيب قبل الطواف بالبيت ،
٢٨٣/١ وكراهة من كره من الصحابة فسخ الحج إلى التمتع، أو التمتع مطلقاً/ أو رأى تقدير
مسافة القصر بحد حده، وأنه لا يقصر بدون ذلك، أو رأى أنه ليس للمسافر أن يصوم في
السفر .

ومن ذلك قول سلمان : إن الريق نجس ، وقول ابن عمر : إن الكتابة لا يجوز
نكاحها ، وتوريث معاذ ومعاوية للمسلم من الكافر ، ومنع عمر وابن مسعود للجنب أن
يتيمم، وقول علي وزيد وابن عمر في المفوضة : إنه لا مهر لها إذا مات الزوج ، وقول
علي وابن عباس في المتوفى عنها الحامل : إنها تعتد أبعد الأجلين، وقول ابن عمر وغيره:
إن المحرم إذا مات بطل إحرامه وفعل به ما يفعل بالحلل .

وقول ابن عمر وغيره : لا يجوز الاشتراط في الحج، وقول ابن عباس وغيره في
المتوفى عنها : ليس عليها لزوم المنزل، وقول عمر وابن مسعود : إن الميتة لها السكنى
والنفقة . وأمثال ذلك مما تنازع فيه الصحابة ، فإنه يجب فيه الرد إلى الله والرسول ،
ونظائر هذا كثيرة فلا يكون شريعة للأمة إلا ما شرعه رسول الله ﷺ .

ومن قال من العلماء : « إن قول الصحابي حجة » فإنما قاله إذا لم يخالفه غيره من
الصحابة ولا عرف نص يخالفه ، ثم إذا اشتهر ولم ينكروه كان إقراراً على القول، فقد
يقال : « هذا إجماع إقرارى » إذا عرف أنهم أقروه ولم ينكروه أحد منهم، وهم لا يقرون
على باطل .

٢٨٤/١ وأما إذا لم يشتهر فهذا إن عرف أن غيره لم يخالفه فقد يقال : « هو حجة »/ وأما إذا
عرف أنه خالفه فليس بحجة بالاتفاق ، وأما إذا لم يعرف هل وافقه غيره أو خالفه لم
يجزم بأحدهما، ومتى كانت السنة تدل على خلافه كانت الحجة في سنة رسول الله ﷺ ،
لا فيما يخالفها بلا ريب عند أهل العلم .

وإذا كان كذلك، فمعلوم أنه إذا ثبت عن عثمان بن حنيف أو غيره أنه جعل من
المشروع المستحب أن يتوسل بالنبي ﷺ بعد موته من غير أن يكون النبي ﷺ داعياً له ولا
شافعاً فيه، فقد علمنا أن عمر وأكابر الصحابة لم يروا هذا مشروعاً بعد مماته كما كان يشرع
في حياته، بل كانوا في الاستسقاء في حياته يتوسلون به، فلما مات لم يتوسلوا به .

بل قال عمر في دعائه الصحيح المشهور الثابت باتفاق أهل العلم بمحضر من المهاجرين والأنصار في عام الرمادة المشهور، لما اشتد بهم الجذب حتى حلف عمر لا يأكل سمناً حتى يخضب الناس، ثم لما استسقى بالعباس قال : «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فنتسقين، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاستقنا» فيسقون^(١). وهذا دعاء أقره عليه جميع الصحابة ولم ينكره أحد مع شهرته ،وهو من أظهر الإجماعات الإقرارية .

ودعا بمثله معاوية بن أبي سفيان في خلافته لما استسقى بالناس .

فلو كان توسلهم بالنبي ﷺ بعد مماته كتوسلهم به في حياته لقالوا : كيف نتوسل بمثل العباس ويزيد بن الأسود ونحوهما ، ونعدل عن التوسل بالنبي ﷺ الذي هو أفضل الخلائق وهو أفضل الوسائل/وأعظمها عند الله؟ فلما لم يقل ذلك أحد منهم، وقد علم ٢٨٥/١ أنهم في حياته إنما توسلوا بدعائه وشفاعته، وبعد مماته توسلوا بدعاء غيره وشفاعة غيره، علم أن المشروع عندهم التوسل بدعاء المتوسل به لا بذاته .

وحديث الأعمى حجة لعمر وعامة الصحابة- رضوان الله عليهم أجمعين- فإنه إنما أمر الأعمى أن يتوسل إلى الله بشفاعة النبي ﷺ ودعائه لا بذاته، وقال له في الدعاء: «قل: اللهم فشفعه في» .

وإذا قدر أن بعض الصحابة أمر غيره أن يتوسل بذاته لا بشفاعته ولم يأمر بالدعاء المشروع، بل ببعضه وترك سائر المتضمن للتوسل بشفاعته، كان ما فعله عمر بن الخطاب هو الموافق لسنة رسول الله ﷺ ، وكان المخالف لعمر محجوجاً بسنة رسول الله ﷺ ، وكان الحديث الذي رواه عن النبي ﷺ حجة عليه لا له، والله أعلم .

وأما القسم الثالث مما يسمى «توسلاً» فلا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبي ﷺ شيئاً يحتاج به أهل العلم - كما تقدم بسط الكلام على ذلك - وهو الإقسام على الله عز وجل بالأنبياء والصالحين أو السؤال بأنفسهم، فإنه لا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبي ﷺ شيئاً ثابتاً لا في الإقسام أو السؤال به ، ولا في الإقسام أو السؤال بغيره من المخلوقين .

وإن كان في العلماء من سوغه فقد ثبت عن غير واحد من العلماء أنه نهى/عنه، فتكون ٢٨٦/١ مسألة نزاع كما تقدم بيانه، فيرد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، وييدي كل واحد حجته كما في سائر مسائل النزاع ، وليس هذا من مسائل العقوبات بإجماع المسلمين ، بل المعاقب على ذلك معتد جاهل ظالم ، فإن القائل بهذا قد قال ما قالت العلماء ، والمنكر

(١) سبق تخريجه ٨٠ .

عليه ليس معه نقل يجب اتباعه لا عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة ، وقد ثبت أنه لا يجوز القسم بغير الله ، لا بالأنبياء ولا بغيرهم ، كما سبق بسط الكلام في تقرير ذلك .

وقد اتفق العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن ينذر لغير الله لا لنبي ولا لغير نبي ، وأن هذا النذر شرك لا يوفى به . وكذلك الحلف بالمخلوقات لا تنعقد به اليمين ، ولا كفارة فيه ، حتى لو حلف بالنبي ﷺ لم تنعقد يمينه كما تقدم ذكره ، ولم يجب عليه كفارة عند جمهور العلماء كمالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين ، بل نهى عن الحلف بهذه اليمين .

فإذا لم يجز أن يحلف بها الرجل ولا يقسم بها على مخلوق فكيف يقسم بها على الخالق جل جلاله؟

وأما السؤال به من غير إقسام به فهذا أيضا مما منع منه غير واحد من العلماء ، والسنن الصحيحة عن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين تدل على ذلك ، فإن هذا إنما يفعله على أنه قرينة وطاعة ، وأنه مما يستجاب به الدعاء .

وما كان من هذا النوع فإما أن يكون واجبا وإما أن يكون مستحبا ، وكل ما كان واجبا أو مستحبا في العبادات والأدعية فلا بد أن يشرعه النبي ﷺ لأمره ، فإذا لم يشرع هذا لأمره لم يكن واجبا ولا مستحبا ولا يكون قرينة وطاعة ولا سببا لإجابة الدعاء ، وقد تقدم بسط الكلام على هذا كله . ٢٨٧/١

فمن اعتقد ذلك في هذا أو في هذا فهو ضال وكانت بدعته من البدع السيئة وقد تبين بالأحاديث الصحيحة وما استقرئ من أحوال النبي ﷺ وخلفائه الراشدين أن هذا لم يكن مشروعاً عندهم .

وأیضا ، فقد تبين أنه سؤال لله تعالى بسبب لا يناسب إجابة الدعاء ، وأنه كالسؤال بالكعبة والطور والكرسي والمساجد وغير ذلك من المخلوقات ، ومعلوم أن سؤال الله بالمخلوقات ليس هو مشروعاً ، كما أن الإقسام بها ليس مشروعاً بل هو منهى عنه .

فكما أنه لا يسوغ لأحد أن يحلف بمخلوق فلا يحلف على الله بمخلوق ، ولا يسأله بنفس مخلوق ، وإنما يسأل بالأسباب التي تناسب إجابة الدعاء كما تقدم تفصيله .

لكن قد روى في جواز ذلك آثار وأقوال عن بعض أهل العلم ، ولكن ليس في المنقول عن النبي ﷺ شيء ثابت بل كلها موضوعة .

وأما النقل عن من ليس قوله حجة فبعضه ثابت وبعضه ليس بثابت ، والحديث الذي رواه

أحمد وابن ماجه وفيه: «بحق السائلين عليك، وبحق/ممشاي هذا» رواه أحمد عن وكيع عن ٢٨٨/١ فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «من قال إذا خرج إلى الصلاة: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، وأن تدخلني الجنة، وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له، وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضي صلاته» (١).

وهذا الحديث هو من رواية عطية العوفي عن أبي سعيد، وهو ضعيف بإجماع أهل العلم، وقد روى من طريق آخر وهو ضعيف أيضاً، ولفظه لا حجة فيه، فإن حق السائلين عليه أن يجيبهم وحق العابدين أن يشيهم، وهو حق أحقه الله تعالى على نفسه الكريمة بوعده الصادق باتفاق أهل العلم، ويوجباه على نفسه في أحد أقوالهم، وقد تقدم بسط الكلام على ذلك.

وهذا بمنزلة الثلاثة الذين سألوهم في الغار بأعمالهم: فإنه سأله هذا بیره العظيم لوالديه، وسأله هذا بعفته العظيمة عن الفاحشة، وسأله هذا بأدائه العظيم للأمانة؛ لأن هذه الأعمال أمر الله بها، ووعد الجزاء لأصحابها، فصار هذا كما حكاها عن المؤمنين بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُوقُونَ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أُو۟سِّتُكُمْ يَخْتَرُ مِنْ دَلِيلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَفِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٥، ١٦].

وكان ابن مسعود يقول في السحر: اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا سحر فاغفر لي.

وأصل هذا الباب أن يقال: الإقسام على الله بشيء من المخلوقات، أو السؤال له

(١) أحمد ٢١/٣، وابن ماجه في المساجد (٧٧٨) وقال البوصيري: «هذا إسناد مسلسل بالضعفاء عطية وهو العوفي، وفضيل بن مرزوق، والفضل بن الموفق كلهم ضعفاء. لكن رواه ابن خزيمة في صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق، فهو صحيح عنده».

به، إما أن يكون مأموراً به إيجاباً أو استجباً ، أو منهيًا عنه نهى تحريم أو كراهة ، أو مباحاً لا مأموراً به ولا منهيًا عنه .

وإذا قيل : إن ذلك مأمور به أو مباح ، فيما أن يفرق بين مخلوق ومخلوق أو يقال : بل يشرع بالمخلوقات المعظمة أو ببعضها . فمن قال : إن هذا مأمور به أو مباح في المخلوقات جميعها ، لزم أن يسأل الله تعالى بشياطين الإنس والجن ، فهذا لا يقوله مسلم .

فإن قال : بل يسأل بالمخلوقات المعظمة كالمخلوقات التي أقسم بها في كتابه ، لزم من هذا أن يسأل ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا بَغَىٰ. وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَىٰ. وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ. إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَىٰ﴾ [الليل: ١ - ٣] ، ﴿وَالشَّمْسَ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرَ إِذَا لَلَّهَا. وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا. وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا. وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١ - ٧] ويسأل الله تعالى ويقسم عليه ﴿بِالْحَبِّسِ. الْجَوَارِ الْكُنَّسِ. وَاللَّيْلَ إِذَا عَسَّسَ. وَالضُّحَىٰ. إِذَا نَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٥ - ١٨] ويسأل ﴿بِالَّذَرِيَّتِ ذُرَّاءَ الْقُلُوبِ. وَاللَّيْلَ إِذَا عَسَّسَ. وَالضُّحَىٰ. إِذَا نَفَّسَ﴾ [الذاريات: ١ - ٤] ويسأل ﴿بِالطُّورِ. وَكِتَابِ الْمُسْتَوْرِ. فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ. وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ. وَالسَّكْفِ الْمَرْفُوعِ. وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ١ - ٦] ٢٩٠/١ ويسأل ويقسم عليه ﴿بِالصَّغْنَةِ صَفَا﴾ [الصفات: ١] ، وسائر ما أقسم الله به في كتابه .

فإن الله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته ؛ لأنها آياته ومخلوقاته . فهي دليل على ربوبيته وألوهيته ووجدانيته وعلمه وقدرته ومشيتته ورحمته وحكمته وعظمته وعزته ، فهو سبحانه يقسم بها . لأن إقسامه بها تعظيم له سبحانه .

ونحن المخلوقون ليس لنا أن نقسم بها بالنص والإجماع ، بل ذكر غير واحد الإجماع على أنه لا يقسم بشيء من المخلوقات وذكروا إجماع الصحابة على ذلك ، بل ذلك شرك منهى عنه .

ومن سأل الله بها ، لزمه أن يسأله بكل ذكر وأنثى ، وبكل نفس ألهمها فجورها وتقواها ، ويسأله بالرياح ، والسحاب ، والكواكب ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والتين والزيتون ، وطورسينين ، ويسأله بالبلد الأمين مكة ، ويسأله حينئذ بالبيت ، والصفاء والمروة ، وعرفة ، ومزدلفة ، ومنى ، وغير ذلك من المخلوقات ، ويلزم أن يسأله بالمخلوقات التي عبدت من دون الله ، كالشمس والقمر والكواكب والملائكة والمسيح والعزير وغير ذلك مما عبد من دون الله وما لم يعبد من دونه .

ومعلوم أن السؤال لله بهذه المخلوقات أو الإقسام عنيه بها من أعظم البدع المنكرة في دين الإسلام ، ومما يظهر قبحه للخاص والعام .

ويلزم من ذلك أن يقسم على الله تعالى بالإقسام والعزائم التي تكتب في الحروز ٢٩١/١ والهيكل التي تكتبها البطرية والمعزمون، بل ويقال : إذا جاز السؤال والإقسام على الله بها فعلى المخلوقات أولى ، فحينئذ تكون العزائم والأقسام التي يقسم بها على الجن مشروعة في دين الإسلام، وهذا الكلام يستلزم الكفر والخروج من دين الإسلام، بل ومن دين الأنبياء أجمعين .

وإن قال قائل : بل أنا أسأله أو أقسم عليه بمعظم دون معظم من المخلوقات، إما الأنبياء دون غيرهم أو نبي دون غيره، كما جوز بعضهم الحلف بذلك ، أو بالأنبياء والصالحين دون غيرهم .

قيل له : بعض المخلوقات، وإن كان أفضل من بعض، فكلها مشتركة في أنه لا يجعل شيء منها نداً لله تعالى، فلا يعبد ولا يتوكل عليه ولا يخشى ولا يتقى ولا يصام له ولا يسجد له ولا يرغب إليه، ولا يقسم بمخلوق ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «من كان حالفاً فليحلف بالله، أو ليصمت»^(١)، وقال : «لا تحلفوا إلا بالله»^(٢)، وفي السنن عنه أنه قال : « من حلف بغير الله فقد أشرك»^(٣) .

فقد ثبت بالنصوص الصحيحة الصريحة عن النبي ﷺ أنه لا يجوز الحلف بشيء من المخلوقات ، لا فرق في ذلك بين الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ولا فرق بين نبي ونبي . وهذا كما قد سوى الله تعالى بين جميع المخلوقات فم، ذم الشرك بها وإن كانت

معظمة قال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٧٩، ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء : ٥٦ ، ٥٧] .

قالت طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة، فقال تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم عبادي يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي ، ويتقربون إلي كما تتقربون إلى .

وقد قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور : ٥٢] ، فبين أن الطاعة لله والرسول، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله، وبين أن

(١-٣) سبق تخريجها ص ٦٣ .

الخشية والتقوى لله وحده، فلم يأمر أن يخشى مخلوق ولا يتقي مخلوق.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٧، ٨].

فبين - سبحانه وتعالى - أنه كان ينبغي لهؤلاء أن يرضوا بما آتاهم الله ورسوله ويقولوا: ٢٩٣/١ حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون، فذكر/الرضا بما آتاه الله ورسوله؛ لأن الرسول هو الواسطة بيننا وبين الله في تبليغ أمره ونهيه، وتحليله وتحريمه، ووعدته ووعيده.

فالخلال ما حلله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] فليس لأحد أن يأخذ من الأموال إلا ما أحله الله ورسوله، والأموال المشتركة له، كمال الفئ والغنيمة والصدقات، عليه أن يرضى بما آتاه الله ورسوله منها وهو مقدار حقه لا يطلب زيادة على ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ ولم يقل: «ورسوله» فإن الحسب هو الكافي، والله وحده كاف عباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَكْفِيهَا الَّذِيُ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] أي هو وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين. هذا هو القول الصواب الذي قاله جمهور السلف والخلف، كما بين في موضع آخر.

والمراد أن الله كاف للرسول ولمن اتبعه، فكل من اتبع الرسول فالله كافيه وهاديه وناصره ورازقه، ثم قال تعالى: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ فذكر الإتياء لله ورسوله، لكن وسطه بذكر الفضل، فإن الفضل لله وحده بقوله: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فجعل الرغبة إلى الله وحده دون الرسول وغيره من المخلوقات.

٢٩٤/١ فقد تبين أن الله سوى بين المخلوقات في هدم الأحكام، لم يجعل لأحد من المخلوقين - سواء كان نبياً أو ملكاً - أن يقسم به ولا يتوكل عليه ولا يرغب إليه ولا يخشى ولا يتقي. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا نَفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]. فقد تهدد سبحانه من دعا شيئاً من دون الله، وبين أنهم لا ملك لهم مع الله ولا شركا في ملكه، وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين،

فقطع تعلق القلوب بالخلقوات: رغبة ورهبة وعبادة واستعانة، ولم يبق إلا الشفاعة وهي حق، لكن قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

وهكذا دلت الأحاديث الصحيحة في الشفاعة يوم القيامة، إذا أتى الناس آدم، وأولي العزم نوحا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ابن مريم، فيردهم كل واحد إلى الذي بعده، إلى أن يأتوا المسيح فيقول لهم: اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال ﷺ: «فيأتوني فأذهب إلى ربي، فإذا رأيته خررت ساجداً وأحمد ربي بمحمد يفتحها عليّ لا أحسنها الآن، فقال لي: أي محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع - قال - فيحدّ لي حداً فأدخلهم الجنة»^(١)، وذكر تمام الخبر.

فبين المسيح أن محمداً هو الشافع المشفع؛ لأنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبين محمد عبد الله ورسوله - أفضل الخلق وأوجه الشفعاء/ وأكرمهم على الله ٢٩٥/١ تعالى - أنه يأتي فيسجد ويحمد، لا يبدأ بالشفاعة حتى يؤذن له، فيقال له: ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع، وذكر أن ربه يحد له حداً فيدخلهم الجنة.

وهذا كله يبين أن الأمر كله لله، هو الذي يكرم الشافع بالإذن له في الشفاعة، والشفيع لا يشفع إلا فيمن يأذن الله له، ثم يحد للشفيع حداً فيدخلهم الجنة. فالأمر بمشيئته وقدرته واختياره. وأوجه الشفعاء وأفضلهم هو عنده الذي فضله على غيره واختاره واصطفاه بكمال عبوديته وطاعته وإنابته، وموافقته لربه فيما يحبه ويرضاه.

وإذا كان الإقسام بغير الله والرغبة إليه وخشيته وتقواه ونحو ذلك هي من الأحكام التي اشتركت المخلوقات فيها، فليس لمخلوق أن يقسم به، ولا يتقي ولا يتوكل عليه وإن كان أفضل المخلوقات، ولا يستحق ذلك أحد من الملائكة والنبين، فضلاً عن غيرهم من المشايخ والصالحين.

فسؤال الله تعالى بالمخلوقات: إن كان بما أقسم به وعظمه من المخلوقات فيسوغ السؤال بذلك كله، وإن لم يكن سائغاً لم يجز أن يسأل بشيء من ذلك، والتفريق في ذلك بين معظم ومعظم، كتفريق من فرق فزعم أنه يجوز الحلف ببعض المخلوقات دون بعض، وكما أن هذا فرق باطل فكذلك الآخر. ولو فرق مفرق بين ما يؤمن به، وبين ما لا يؤمن به، قيل له: فيجب الإيمان بالملائكة والنبين، ويؤمن بكل ما أخبر به الرسول

(١) البخاري في التوحيد (٧٥١٠)، ومسلم في الإيمان (٣٢٢/١٩٣)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» وغيرهم.

٢٩٦/١ مثل منكر ونكير، والخور/العين، والولدان وغير ذلك، أفيجوز أن يقسم بهذه المخلوقات لكونه يجب الإيمان بها ؟ أم يجوز السؤال بها كذلك؟

فتبين أن السؤال بالأسباب إذا لم يكن المسئول به سبباً لإجابة الدعاء فلا فرق بين السؤال بمخلوق ومخلوق، كما لا فرق بين القسم بمخلوق ومخلوق، وكل ذلك غير جائز. فتبين أنه لا يجوز ذلك كما قاله من قاله من العلماء، والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكَاُنَا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِخُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩] فكانت اليهود تقول للمشركين: سوف يبعث هذا النبي ونقاتلكم معه فنقتلكم، لم يكونوا يقسمون على الله بذاته. ولا يسألون به، أو يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الأمي لتتبعه ونقتل هؤلاء معه. هذا هو النقل الثابت عند أهل التفسير، وعليه يدل القرآن، فإنه قال تعالى: ﴿وَكَاُنَا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِخُونَ﴾ والاستفتاح: الاستنصار، وهو طلب الفتح والنصر، فطلب الفتح والنصر به هو أن يبعث فيقاتلونهم معه، فبهذا ينصرون، ليس هو بإقسامهم به وسؤالهم به، إذ لو كان كذلك لكانوا إذا سألوا أو أقسموا به نصروا، ولم يكن الأمر كذلك، بل لما بعث الله محمداً ﷺ نصر الله من آمن به وجاهد معه على من خالفه.

وما ذكره بعض المفسرين من أنهم كانوا يقسمون به أو يسألون به، فهو نقل شاذ مخالف للنقول الكثيرة المستفيضة المخالفة له.

٢٩٧/١ وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في (دلائل النبوة)، وفي كتاب (الاستغاثة/الكبير)، و(كتب السير)، و(دلائل النبوة)، و(التفسير) مشحونة بذلك. قال أبو العالية وغيره: كان اليهود إذا استنصروا بمحمد ﷺ على مشركي العرب يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا حتى نغلب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمداً ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآيات: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وروى محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن رجال من قومه قالوا: مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله وهداة - ما كنا نسمع من رجال يهود، وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلتنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: قد تقارب زمان نبي يبعث الآن فنقتلكم معه قتل عاد وإرم - كثيراً ما كنا نسمع ذلك منهم - فلما بعث الله محمداً رسولاً من عند الله أجبناه حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدونا به، فبادرناهم إليه فآمنوا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات التي في البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ

عِنْدَ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٨٩﴾^(١).

ولم يذكر ابن أبي حاتم وغيره من جمع كلام مفسري السلف إلا هذا، وهذا لم يذكر فيه السؤال به عن أحد من السلف، بل ذكروا الإخبار به، أو سؤال الله أن يبعثه. فروى ابن أبي حاتم، عن أبي رزين، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: يستظهرون، ويقولون: نحن نعين محمداً عليهم وليسوا كذلك، يكذبون^(٢).

وروى عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: كانوا يقولون: إنه سيأتي نبي ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾^(٣).

وروى بإسناده عن ابن إسحاق: حدثنا محمد بن أبي محمد قال: أخبرني عكرمة - أو سعيد بن جبير - عن ابن عباس، أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

وروى بإسناده عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية قال: كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا، حتى نعذب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمداً ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً ٢٩٩/١ للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ، فقال الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا

(١) ابن جرير في التفسير ٣٢٧/١، والبيهقي في دلائل النبوة ٧٥/٢، ٧٦.

(٢) ابن جرير في التفسير ٣٢٦/١.

(٣) ابن جرير في التفسير ٣٢٥/١.

بِهِ فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ^(١).

وأما الحديث الذي يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنترة، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فكلما التقوا هزمت يهود فعادت بهذا الدعاء : اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم، فكانوا إذا دعوا بهذا الدعاء هزموا غطفان. فلما بعث النبي ﷺ كفروا به، فأنزل الله تعالى : ﴿وَكَاوُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْهِحُوا عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾^(٢) وهذا الحديث رواه الحاكم في مستدركه وقال : أدت الضرورة إلى إخراجه. وهذا مما أنكره عليه العلماء ، فإن عبد الملك بن هارون من أضعف الناس، وهو عند أهل العلم بالرجال متروك، بل كذاب. وقد تقدم ما ذكره يحيى بن معين وغيره من الأئمة في حقه.

قلت: وهذا الحديث من جملتها، وكذلك الحديث الآخر يرويه عن أبي بكر، كما تقدم.

ومما يبين ذلك أن قوله تعالى : ﴿وَكَاوُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْهِحُوا عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إنما نزلت باتفاق أهل التفسير والسير في اليهود المجاورين للمدينة أولا كبنى قينقاع وقريظة والنضير، وهم الذين كانوا يحالفون الأوس والخزرج، وهم الذين عاهدهم النبي ﷺ لما قدم المدينة، ٣٠٠/١ ثم لما نقضوا العهد حاربهم، فحارب أولا بني قينقاع ثم النضير - وفيهم نزلت سورة الحشر - ثم قريظة عام الخندق، فكيف يقال: نزلت في يهود خيبر وغطفان؟ فإن هذا من كذاب جاهل لم يحسن كيف يكذب، ومما يبين ذلك أنه ذكر فيه انتصار اليهود على غطفان لما دعوا بهذا الدعاء، وهذا مما لم ينقله أحد غير هذا الكذاب، ولو كان هذا مما وقع لكان مما تتوفر دواعي الصادقين على نقله.

ومما ينبغي أن يعلم: أن مثل هذا اللفظ لو كان مما يقتضى السؤال به، والإقسام به على الله تعالى لم يكن مثل هذا مما يجوز أن يعتمد عليه في الأحكام؛ لأنه أولا لم يثبت، وليس في الآية ما يدل عليه، ولو ثبت لم يلزم أن يكون هذا شرعاً لنا، فإن الله تعالى قد أخبر عن سجود إخوة يوسف وأبويه وأخبر عن الذين غلبوا على أهل الكهف أنهم قالوا:

(١) ابن جرير في التفسير ٣٢٦/١.

(٢) البيهقي في دلائل النبوة ٧٦/٢، ٧٧، والحاكم في المستدرک ٢٦٣/٢ وقال : « أدت الضرورة إلى إخراجه في التفسير وهو غريب من حديثه » وعقب عليه الذهبي بقوله : « لا ضرورة في ذلك ، فعبد الملك متروك هالك ».

﴿لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١] ونحن قد نهينا عن بناء المساجد على القبور، ولفظ الآية إنما فيه أنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفِينُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]. والاستفتاح: طلب الفتح وهو النصر، ومنه الحديث المأثور أن النبي ﷺ كان يستفتح بصعاليك المهاجرين، أي يستنصر بهم أي بدعائهم كما قال: «وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم، بصلاتهم ودعائهم وإخلاصهم؟» (١).

وهذا قد يكون بأن يطلبوا من الله تعالى أن ينصرهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان، بأن يجعل بعث ذلك النبي إليهم لينصروا به عليهم، لا لأنهم أقسموا على الله وسألوا به، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، فلم ترد ٣٠١/١ الآثار التي ندل على أن هذا معنى الآية لم يجر لأحد أن يحمل الآية على ذلك المعنى المتنازع فيه بلا دليل؛ لأنه لا دلالة فيها عليه، فكيف وقد جاءت الآثار بذلك؟

وأما ما تقدم ذكره عن اليهود من أنهم كانوا ينصرون، فقد بينا أنه شاذ، وليس هو من الآثار المعروفة في هذا الباب، فإن اليهود لم يعرف أنها غلبت العرب بل كانوا مغلوبين معهم، وكانوا يحالفون العرب فيحالف كل فريق فريقاً، كما كانت قريظة حلفاء الأوس، وكانت النصير حلفاء الخزرج.

وأما كون اليهود كانوا ينتصرون على العرب فهذا لا يعرف بل المعروف خلافه، والله

تعالى قد أخبر بما يدل على ذلك، فقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تُلْقُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَقَصِبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

فاليهود - من حين ضربت عليهم الذلة أينما تلقوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس - لم يكونوا بمجردهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم، وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الإسلام، والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح - عليه السلام - فكذبوه. قال تعالى: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَى وَمَطْعُوكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا

(١) البخاري في الجهاد (٢٨٩٦)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٩٤)، والترمذي في الجهاد (١٧٠٢)، والنسائي في الجهاد (٣١٧٩)، وأحمد ١٧٣/١.

٣٠٢/١ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿الصف: ١٤﴾ وكانوا قد قتلوا يحيى بن زكريا وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدِّيلَ^(١) وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ^(٢) ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

فإذا لم يكن الصحابة كعمر بن الخطاب وغيره، في حياته ﷺ وبعد موته، يقسمون بذاته، بل إنما كانوا يتوسلون بطاعته أو بشفاعته، فكيف يقال في دعاء المخلوقين الغائبين والموتى وسؤالهم من الأنبياء والملائكة وغيرهم، وقد قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

قالت طائفة من السلف: كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالمرسلين وغيرهما، فنهى الله عن ذلك، وأخبر تعالى أن هؤلاء يرجون رحمة الله، ويخافون عذابه، ويتقربون إليه، وأنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين، ولا تحويلة عنهم. وقد قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِإِسْرَءِيلَ أَنْ يَدْعُوا إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ. وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَلِلنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

ولهذا نهى النبي ﷺ أن يتخذ قبره مسجداً، وأن يتخذ عيداً، وقال في مرض موته: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا، أخرجاه في الصحيحين^(٣). وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» رواه مالك في موطأه^(٤)، وقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» متفق عليه^(٥).

(١) سقطت من المطبوعة.

(٢) في المطبوعة: «الأنبياء بغير حق»، والصواب ما أثبتناه.

(٣) البخاري في الجائز (١٣٣٠) ومسلم في المساجد (١٩/٥٢٩).

(٤) سبق تخريجه ص ٥٢.

(٥) البخاري في الأنبياء (٣٤٤٥)، والدارمي في الرقاق ٢/٣٢٠، وأحمد ١/٢٣، ٢٤.

وقال : « لا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد . بل ما شاء الله ثم شاء محمد »^(١) .
 وقال له بعض الأعراب : ما شاء الله وشئت ، فقال : « أجعلتني لله ندا؟ بل ما شاء الله وحده »^(٢) . وقد قال الله تعالى له : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَكُنْتُكَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ الشُّوْءُ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [يونس : ٤٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] . وهذا تحقيق التوحيد مع أنه ﷺ أكرم الخلق على الله ، وأعلام منزلة عند الله .

وقد روى الطبراني في معجمه الكبير أن منافقاً كان يؤذي المؤمنين ، فقال أبو بكر : قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق . فقال له النبي ﷺ : « إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله »^(٣) .

وفي صحيح مسلم في آخره أنه قال قبل أن يموت بخمس : « إن من كان/ قبلكم ٣٠٤/١ يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك »^(٤) . وفي صحيح مسلم أيضاً وغيره أنه قال : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها »^(٥) .

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وله طرق متعددة عن غيرهما أنه قال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى »^(٦) . وسئل مالك عن رجل نذر أن يأتي قبر النبي ﷺ فقال مالك : إن كان أراد القبر فلا يأتيه ، وإن أراد المسجد فليأته . ثم ذكر الحديث : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » . ذكره القاضي إسماعيل في مبسوطه .

ولو حلف حالف بحق المخلوقين لم تنعقد يمينه ، ولا فرق في ذلك بين الأنبياء والملائكة وغيرهم ، ولله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم ، وللأنبياء حق ، وللمؤمنين حق ، وللبعضهم على بعض حق .

فحقه تبارك وتعالى أن يعبدوه لا يشركوا به ، كما تقدم في حديث معاذ ، ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين ، ويتوكلوا عليه ، ويرغبوا إليه ، ولا يجعلوا لله ندا : لا في

(١) ابن ماجه في الكفارات (٢١١٨) ، والدارمي في الاستئذان ٢/٢٩٥ ، وأحمد ٥/٧٢ .

(٢) أحمد ١/٢١٤ ، ٢٨٣ ، ٣٤٧ .

(٣) سبق تخريجه ص ٧٨ . (٤) سبق تخريجه ص ٥٢ .

(٥) مسلم في الجنايز (٩٧/٩٧٢) ، (٩٨) .

(٦) البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٩٧) ، وفي الصوم (١٩٩٥) ، ومسلم في الحج (٤١٥/٨٢٧) .

محبه ولا خشيته ولا دعائه ولا الاستعانة به، كما في الصحيحين أنه قال ﷺ: «من مات وهو يدعو ندا من دون الله دخل النار» (١) وسئل: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» (٢). وقيل له: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلتني لله نداً! بل ما شاء الله وحده» (٣). وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارِهُبُونَ﴾ [النحل: ٥١]، ﴿فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨]، وقال تعالى في فاتحة الكتاب التي هي أم القرآن: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشِنُونَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

ولهذا لما كان المشركون يخوفون إبراهيم الخليل -صلوات الله وسلامه عليه- قال تعالى: ﴿وَحَاجُّهُمْ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ. وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠ - ٨٢].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينما لم يظلم نفسه؟ فقال لهم النبي ﷺ: «إنما ذاك الشرك، كما قال العبد الصالح: ﴿يُبْنَى لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشِّرْكُ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]» (٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَّقِ اللَّهَ وَبِتَقَىٰ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢] فجعل الطاعة لله والرسول، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله. وجعل الخشية والتقوى لله وحده، فلا يخشى إلا الله، ولا يتقي إلا الله. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا

(١) البخاري في التفسير (٤٤٩٧).

(٢) البخاري في التفسير (٤٤٧٧)، ومسلم في الإيمان (١٤١/٨٦)، وأبو داود في الطلاق (٢٣١٠).

(٣) سبق تخريجه ص ٥١.

(٤) البخاري في الأنبياء (٣٣٦٠)، (٣٤٢٨)، ومسلم في الإيمان (١٩٧/١٢٤).

النَّكَاسَ وَأَخْشَوْهُمْ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيَّتِي شَيْئًا قَلِيلًا ﴿[المائدة: ٤٤]﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ

وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]. فجعل سبحانه الإتياء لله والرسول في أول الكلام وآخره، كقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] مع جعله الفضل لله وحده، والرغبة إلى الله وحده.

وهو تعالى وحده حسبهم لا شريك له في ذلك. وروى البخاري عن ابن عباس في قوله: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، قال: قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين ﴿قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]^(١). وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ

الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

ومعنى ذلك عند جماهير السلف والخلف: أن الله وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، كما بسط ذلك بالأدلة، وذلك أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الوسائط بيننا وبين الله في أمره ونهيه ووعدته ووعدته، فالحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله.

٣٠٧/١

فعلينا أن نحب الله ورسوله ونطيع الله ورسوله ونرضي الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [التوبة: ٢٤].

وفي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه ممن سواه، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»^(٢). وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُعَزِّرُوهُ

(١) البخاري في التفسير (٤٥٦٣).

(٢) البخاري في الإيمان (١٦)، ومسلم في الإيمان (٦٧/٤٣).

وَتُوقِرُهُ وَتُسَبِّحُهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ [الفتح: ٨، ٩].

فالإيمان بالله والرسول ، والتعزير والتوقير للرسول ، وتعزيره نصره ومنعه ، والتسبيح بكرة وأصيلًا لله وحده ، فإن ذلك من العبادة لله ، والعبادة هي لله وحده: فلا يصلى إلا لله ولا يصام إلا لله ، ولا يحج إلا إلى بيت الله ، ولا تشد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة؛ لكون هذه المساجد بناها أنبياء الله بإذن الله ، ولا ينذر إلا لله ، ولا يحلف إلا بالله ، ولا يدعى إلا الله ، ولا يستغاث إلا بالله .

٣٠٨/١ وأما ما خلقه الله سبحانه من الحيوان ، والنبات ، والمطر ، والسحاب ، وسائر المخلوقات فلم يجعل غيره من العباد واسطة في ذلك الخلق ، كما جعل الرسل واسطة في التبليغ ، بل يخلق ما يشاء بما يشاء من الأسباب ، وليس في المخلوقات شئ يستقل بإيداع شئ ، بل لا بد للسبب من أسباب أخر تعاونه ، ولا بد من دفع المعارض عنه ، وذلك لا يقدر عليه إلا الله وحده ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، بخلاف الرسالة فإن الرسول وحده كان واسطة في تبليغ رسالته إلى عباده .

وأما جعل الهدى في قلوب العباد فهو إلى الله تعالى لا إلى الرسول كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] ، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧] . وكذلك دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، واستغفارهم وشفاعتهم هو سبب ينفع إذا جعل الله تعالى المحل قابلاً له ، وإلا فلو استغفر النبي للكفار والمنافقين لم يغفر لهم ، قال الله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ﴾ [المنافقون: ٦] .

وأما الرسل فقد تبين أنهم هم الوسائط بيننا وبين الله عز وجل في أمره ونهيه ووعدته ووعيده وخبره ، فعلينا أن نصدقهم في كل ما أخبروا به ، ونطيعهم فيما أوجبوا وأمروا ، وعلينا أن نصدق بجميع أنبياء الله عز وجل ، لا نفرق بين أحد منهم ، ومن سب واحداً منهم كان كافراً مرتداً مباح الدم .

٣٠٩/١ وإذا تكلمنا فيما يستحقه الله تبارك وتعالى من التوحيد بيننا أن الأنبياء وغيرهم من المخلوقين لا يستحقون ما يستحقه الله تبارك وتعالى من خصائص : فلا يشرك بهم ولا يتوكل عليهم ، ولا يستغاث بهم كما يستغاث بالله ، ولا يقسم على الله بهم ، ولا يتوسل بذواتهم ، وإنما يتوسل بالإيمان بهم ، وبمحبتهم ، وطاعتهم ، وموالاتهم ، وتعزيرهم ، وتوقيرهم ، ومعاداة من عاداهم ، وطاعتهم فيما أمروا ، وتصديقهم فيما أخبروا ، وتحليل ما حللوه ، وتحريم ما حرموه .

والتوسل بذلك على وجهين :

أحدهما : أن يتوسل بذلك إلى إجابة الدعاء وإعطاء السؤال ، كحديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار ، فإنهم توسلوا بأعمالهم الصالحة ليحجب دعاءهم ، ويفرج كربتهم ، وقد تقدم بيان ذلك .

والثاني: التوسل بذلك إلى حصول ثواب الله ورجته ورضوانه ، فإن الأعمال الصالحة التي أمر بها الرسول ﷺ هي الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا والآخرة ، ومثل هذا كتقول المؤمنين : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٣] ، فإنهم قدموا ذكر الإيمان قبل الدعاء ، ومثل ذلك ما حكاه الله سبحانه عن المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَرْيُومٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٩] وأمثال ذلك كثير .

وكذلك التوسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته ، فإنه يكون على وجهين :

أحدهما: أن يطلب منه الدعاء والشفاعة فيدعو ويشفع ، كما كان يطلب منه في حياته ، وكما يطلب منه يوم القيامة ، حين يأتون آدم ونوحا ، ثم الخليل ، ثم موسى ٣١٠/١ الكليم ، ثم عيسى ، ثم يأتون محمدا صلوات الله وسلامه عليه وعليهم فيطلبون منه الشفاعة .

والوجه الثاني : أن يكون التوسل مع ذلك بأن يسأل الله تعالى بشفاعته ودعائه ، كما في حديث الأعمى المتقدم بيانه وذكره ، فإنه طلب منه الدعاء والشفاعة فدعا له الرسول وشفع فيه ، وأمره أن يدعو الله فيقول : «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك به ، اللهم فشفعه في» (١) فأمره أن يسأل الله تعالى قبول شفاعته ، بخلاف من يتوسل بدعاء الرسول وشفاعة الرسول - والرسول لم يدع له ولم يشفع فيه - فهذا توسل بما لم يوجد ، وإنما يتوسل بدعائه وشفاعته من دعا له وشفع فيه .

ومن هذا الباب قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقت الاستسقاء ، كما تقدم ، فإن عمر والمسلمين توسلوا بدعاء العباس وسألوا الله تعالى مع دعاء العباس ، فإنهم استشفعوا جميعاً ، ولم يكن العباس وحده هو الذي دعا لهم ، فصار التوسل بطاعته ، والتوسل بشفاعته كل منهما يكون مع دعاء المتوسل وسؤاله ، ولا يكون بدون ذلك .

فهذه أربعة أنواع كلها مشروعة ، لا ينازع في واحد منها أحد من أهل العلم والإيمان .

(١) سبق تخريجه ص ١٨٩ .

ودين الإسلام مبني على أصليين، وهما : تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. وأول ذلك ألا تجعل مع الله إلهاً آخر، فلا تحب مخلوقاً كما تحب الله، ولا ترجوه كما ترجو الله، ولا تخشاه كما تخشى الله، ومن سَوَى/بين المخلوق والخالق في شيء من ذلك فقد عدل بالله، وهو من الذين بربهم يعدلون ، وقد جعل مع الله إلهاً آخر، وإن كان مع ذلك يعتقد أن الله وحده خلق السموات والأرض.

فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، [الزمر: ٣٨] وكانوا مع ذلك مشركين يجعلون مع الله آلهة أخرى، قال تعالى: ﴿أَيُّكُمْ لَشَّهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. فصاروا مشركين لأنهم أحبوهم كحبه، لا أنهم قالوا: إن آلهتهم خلقوا كخلقه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد: ١٦].

وهذا استفهام إنكار بمعنى النفي، أي ما جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه، فإنهم مقرون أن آلهتهم لم يخلقوا كخلقه، وإنما كانوا يجعلونهم شفعاء، ووسائط قال تعالى: ﴿وَيَسْتَدْرِكُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وقال صاحب يس: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ. إِنَِّّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ. إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٢ - ٢٥].

الأصل الثاني: أن نعبد بما شرع على ألسن رسله، لا نعبد إلا بواجب أو مستحب، ٣١٢/١ والمباح إذا قصد به الطاعة دخل في ذلك.

والدعاء من جملة العبادات، فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم - مع أن هذا أمر لم يأمر به الله ولا رسوله أمر إيجاب ولا استحباب - كان مبتدعاً في الدين، مشركاً برب العالمين، متبعاً غير سبيل المؤمنين. ومن سأل الله تعالى بالمخلوقين، أو أقسم عليه بالمخلوقين كان مبتدعاً بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، فإن ذم من خالفه وسعى في عقوبته كان ظالماً جاهلاً معتدياً.

وإن حكم بذلك فقد حكم بغير ما أنزل الله، وكان حكمه منقوضاً بإجماع المسلمين،

وكان إلى أن يستتاب من هذا الحكم ويعاقب عليه أحوج منه إلى أن ينفذ له هذا الحكم ويعان عليه، وهذا كله مجمع عليه بين المسلمين، ليس فيه خلاف لا بين الأئمة الأربعة ولا غيرهم.

وقد بسط الكلام على هذه الأمور في مجلدات، من جملتها مصنف ذكرنا فيه قواعد تتعلق بحكم الحكماء، وما يجوز لهم الحكم فيه وما لا يجوز. وهو مؤلف مفرد يتعلق بأحكام هذا الباب لا يحسن إيراد شيء من فصوله هاهنا؛ لإفراد الكلام في هذا الموضوع على قواعد التوحيد ومتعلقاته، وسيأتي إيراد ما اختصر منه، وحررت فصوله في ضمن أوراق مفردة يقف عليها المتأمل لمزيد الفائدة ومسييس الحاجة إلى معرفة هذا الأمر المهم، وبالله التوفيق.

وكنْتُ وأنا بالديار المصرية في سنة إحدى عشرة وسبعمائة قد استفتيت عن/التوسل ٣١٣/١ بالنبي ﷺ، فكتبت في ذلك جواباً مبسوطاً، وقد أحببت إirاده هنا لما في ذلك من مزيد الفائدة، فإن هذه القواعد - المتعلقة بتقرير التوحيد وحسم مادة الشرك والغلو - كلما تنوع بيانها ووضحت عباراتها كان ذلك نوراً على نور. والله المستعان.

وصورة السؤال :

المسؤول من السادة العلماء أئمة الدين أن يبينوا ما يجوز وما لا يجوز من الاستشفاع والتوسل بالأنبياء والصالحين

وصورة الجواب :

الحمد لله رب العالمين، أجمع المسلمون على أن النبي ﷺ يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله الناس ذلك، وبعد أن يأذن الله له في الشفاعة. ثم إن أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفق عليه الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - واستفاضت به السنن من أنه ﷺ يشفع لأهل الكبائر من أمته، ويشفع أيضاً لعموم الخلق.

فله ﷺ شفاعات يختص بها لا يشركه فيها أحد، وشفاعات يشركه فيها غيره من الأنبياء والصالحين، لكن ما له فيها أفضل مما لغيره، فإنه ﷺ أفضل الخلق وأكرمهم على ربه عز وجل، وله من الفضائل التي ميزه الله بها على سائر النبيين ما يضيق هذا الموضوع عن بسطه، ومن ذلك «المقام/المحمود» الذي يغبطه به الأولون والآخرون، وأحاديث ٣١٤/١ الشفاعة كثيرة متواترة، منها في الصحيحين أحاديث متعددة، وفي السنن والمسند مما يكثر عدده. وأما الوعيدية من الخوارج والمعتزلة فزعموا أن الشفاعة إنما هي للمؤمنين خاصة في رفع بعض الدرجات، وبعضهم أنكر الشفاعة مطلقاً.

وأجمع أهل العلم على أن الصحابة كانوا يستشفعون به ويتوسلون به في حياته بحضرته، كما ثبت في صحيح البخاري عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . فيسقون (١) .

وفي البخاري أيضاً عن ابن عمر أنه قال : ربما ذكرت قول الشاعر - وأنا أنظر إلى وجه النبي ﷺ يستسقى ، فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب - :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل (٢)

والتوسل بالنبي ﷺ الذي ذكره عمر بن الخطاب قد جاء مفسراً في سائر أحاديث الاستسقاء، وهو من جنس الاستشفاع به، وهو أن يطلب منه الدعاء والشفاعة، ويطلب من الله أن يقبل دعاءه وشفاعته، ونحن نقدمه بين أيدينا شافعاً وسائلاً لنا، بأبي هو وأمي ﷺ. وكذلك معاوية بن أبي سفيان - لما أجذب الناس بالشام - استسقى بيزيد بن الأسود الجرشي فقال: «اللهم إنا نستشفع - ونتوسل - بخيارنا. يا يزيد، ارفع يديك» فرفع يديه ٣١٥/١ ودعا، ودعا الناس حتى سقوا. ولهذا قال العلماء : يستحب أن يستسقى بأهل الدين والصلاح، وإذا كانوا من أهل بيت رسول الله ﷺ فهو أحسن.

وهذا الاستشفاع والتوسل حقيقته التوسل بدعائه؛ فإنه كان يدعو للمتوسل به المستشفع به والناس يدعون معه، كما أن المسلمين لما أجدبوا على عهد النبي ﷺ دخل عليه أعرابي فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغثنا. فرفع النبي ﷺ يديه وقال: «اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا» وما في السماء قرعة؛ فنشأت سحابة من جهة البحر فمطروا أسبوعاً لا يرون فيه الشمس؛ حتى دخل عليهم الأعرابي - أو غيره - فقال: يا رسول الله، انقطعت السبل، وتهدم البنيان، فادع الله يكشفها عنا . فرفع يديه وقال: «اللهم حولينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب ومنابت الشجر وبطون الأودية» فانجابت عن المدينة كما ينجاب الثوب . والحديث مشهور في الصحيحين وغيرهما (٣).

(١) سبق تخريجه ص ٨٠.

(٢) البخاري في الاستسقاء (١٠٠٩) .

(٣) البخاري في الاستسقاء (١٠١٣، ١٠١٤)، ومسلم في صلاة الاستسقاء (٨٩٧/٨)، والنسائي في الاستسقاء (١٥١٨).

الآكام : الروابي وهي الأماكن المرتفعة، والظراب: الجبال الصغار. انظر: النهاية في غريب الحديث ١٥٦/٣. ولسان العرب، مادة «اكم».

وفي حديث آخر في سنن أبي داود وغيره أن رجلاً قال له: إنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك. فسبح رسول الله ﷺ حتى رؤى ذلك في وجه أصحابه وقال: «ويحك، أتدري ما الله؟ إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك»^(١).

وهذا يبين أن معنى الاستشفاع بالشخص - في كلام النبي ﷺ وأصحابه - وهو استشفاع بدعائه وشفاعته، ليس هو السؤال بذاته؛ فإنه لو كان هذا السؤال بذاته لكان سؤال ٣١٦/١ الخلق بالله تعالى أولى من سؤال الله بالخلق، ولكن لما كان معناه هو الأول، أنكر النبي ﷺ قوله: «نستشفع بالله عليك» ولم ينكر قوله: نستشفع بك على الله؛ لأن الشفيع يسأل المشفوع إليه أن يقضى حاجة الطالب والله تعالى لا يسأل أحداً من عباده أن يقضى حوائج خلقه، وإن كان بعض الشعراء ذكر استشفاعه بالله تعالى في مثل قوله:

شفيعي إليك الله لا رب غيره وليس إلى رد الشفيع سبيل

فهذا كلام منكر لم يتكلم به عالم. وكذلك بعض الاتحادية ذكر أنه استشفع بالله سبحانه إلى النبي ﷺ وكلاهما خطأ وضلال، بل هو سبحانه المسؤول المدعو الذي يسأله كل من في السموات والأرض، ولكن هو تبارك وتعالى يأمر عباده فيطيعونه وكل من وجبت طاعته من المخلوقين فإنما وجبت؛ لأن ذلك طاعة لله تعالى، فالرسل يبلغون عن الله أمره؛ فمن أطاعهم فقد أطاع الله، ومن بايعهم فقد بايع الله. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطِيعَ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وأولو الأمر من أهل العلم وأهل الإمارة إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله ورسوله، قال ﷺ في الحديث الصحيح: «على المرء المسلم السمع والطاعة في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه»^(٢). «... مالم يؤمر بمعصية الله، فإذا أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة»^(٣) وقال ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(٤).

٣١٧/١

وأما الشافع فوسائل لا تجب طاعته في الشفاعة وإن كان عظيماً، وفي الحديث الصحيح: أن النبي سأل بريرة أن تمسك زوجها ولا تفارقه لما أعتقت، وخيرها النبي ﷺ

(١) أبو داود في السنة (٤٧٢٦).

(٢) البخاري في الفتن (٧٠٥٦)، ومسلم في الإمارة (٤١/١٧٠٩)، والنسائي في البيعة (٤١٤٩)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٦)، ومالك في الجهاد (٥/٤٤٤)، وأحمد (٥/٣١٤)، وكلهم عن عبادة بن الصامت.

(٣) البخاري في الأحكام (٧١٤٤)، ومسلم في الإمارة (٣٨/١٨٣٩)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٢٦).

(٤) البخاري في الأحكام (٧١٤٥)، ومسلم في الإمارة (٣٩/١٨٤٠)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٢٥). بلفظ «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف» واللفظ لمسلم.

فاختارت فراقه، وكان زوجها يحبها فجعل يبكي، فسألها النبي ﷺ أن تمسكه فقالت: أتأمرني؟ فقال: «لا»، إنما أنا شافع^(١). وإنما قالت: «أتأمرني؟» وقال: «إنما أنا شافع» لما استقر عند المسلمين أن طاعة أمره واجبة بخلاف شفاعته، فإنه لا يجب قبول شفاعته، ولهذا لم يلزمها النبي ﷺ على ترك قبول شفاعته، فشفاعة غيره من الخلق أولى ألا يجب قبولها.

والخالق جل جلاله أمره أعلى وأجل من أن يكون شافعاً إلى مخلوق، بل هو سبحانه أعلى شأنًا من أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ. لَا يَسْأَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ. وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩].

ودل الحديث المتقدم على أن الرسول ﷺ يستشفع به إلى الله عز وجل، أي يطلب منه أن يسأل ربه الشفاعة في الدنيا والآخرة؛ فأما في الآخرة فيطلب منه الخلق الشفاعة في أن يقضى الله بينهم، وفي أن يدخلوا الجنة، ويشفع في أهل الكبائر من أمته، ويشفع في بعض من يستحق النار ألا يدخلها، ويشفع في بعض من دخلها أن يخرج منها. / ٣١٨/١

ولا نزاع بين جماهير الأمة أنه يجوز أن يشفع لأهل الطاعة المستحقين للثواب. ولكن كثيراً من أهل البدع والخوارج والمعتزلة أنكروا شفاعته لأهل الكبائر، فقالوا: لا يشفع لأهل الكبائر، بناء على أن أهل الكبائر عندهم لا يغفر الله لهم ولا يخرجهم من النار بعد أن يدخلوها لا بشفاعة ولا غيرها، ومذهب الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وسائر أهل السنة والجماعة أنه ﷺ يشفع في أهل الكبائر، وأنه لا يخلد في النار من أهل الإيمان أحد؛ بل يخرج من النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال ذرة من إيمان، لكن هذا الاستسقاء والاستشفاع والتوسل به وبغيره كان يكون في حياته، بمعنى أنهم يطلبون منه الدعاء فيدعو لهم، فكان توسلهم بدعائه، والاستشفاع به طلب شفاعته، والشفاعة دعاء.

فأما التوسل بذاته في حضوره أو مغيبه أو بعد موته - مثل الإقسام بذاته أو بغيره من الأنبياء أو السؤال بنفس ذواتهم لا بدعائهم - فليس هذا مشهوراً عند الصحابة والتابعين، بل عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان ومن بحضرتهما من أصحاب رسول الله ﷺ

(١) أبو داود في الطلاق (٢٢٣١).

والتابعين لهم بإحسان لما أجذبوا استسقوا وتوسلوا واستشفعوا بمن كان حياً كالعباس وكيزيد بن الأسود، ولم يتوسلوا ولم يستشفعوا ولم يستسقوا في هذه الحال بالنبى ﷺ لا عند قبره ولا غير قبره، بل عدلوا إلى البدل كالعباس/وكيزيد، بل كانوا يصلون عليه في ٣١٩/١ دعائهم، وقد قال عمر: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فاسقنا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا^(١). فجعلوا هذا بدلاً عن ذلك لما تعذر أن يتوسلوا به على الوجه المشروع الذي كانوا يفعلونه، وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره فيتوسلوا به، ويقولوا في دعائهم في الصحراء بالجاء ونحو ذلك من الألفاظ التي تتضمن القسم بمخلوق على الله عز وجل أو السؤال به، فيقولون: نسألك أو نقسم عليك بنبيك أو بجاء نبيك، ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس.

وروى بعض الجهال عن النبي ﷺ أنه قال: إذا سألت الله فاسأله بجاهي، فإن جاهي عند الله عظيم، وهذا الحديث كذب ليس في شيء من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث، مع أن جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين، وقد أخبرنا سبحانه عن موسى وعيسى - عليهما السلام - أنهما وجيهان عند الله، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوُا مُوسَىٰ فَهَارَهُ ۚ اللَّهُ مَعَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهُاً﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهُاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

فإذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله عز وجل، فكيف بسيد ولد آدم صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، وصاحب الكوثر/والخوض المورود الذي ٣٢٠/١ آتيته عدد نجوم السماء، وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً؟.

وهو صاحب الشفاعة يوم القيامة حين يتأخر عنها آدم، وأولو العزم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ويتقدم هو إليها، وهو صاحب اللواء، آدم ومن دونه تحت لوائه، وهو سيد ولد آدم وأكرمهم على ربه عز وجل، وهو إمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذ وفدوا، ذو الجاه العظيم ﷺ وعلى آله.

ولكن جاء المخلوق عند الخالق تعالى ليس كجاء المخلوق عند المخلوق، فإنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتَى الرَّحْمٰنَ عَبْدًا لَّقَدْ أَخَصَّكُمْ وَعَدَّكُمْ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣، ٩٤]، وقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا

(١) سبق تخريجه ص ٨٠.

الْمَلَكُ الْمُرْتَبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا. فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ. وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [النساء: ١٧٢، ١٧٣].

والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه فهو شريك له في حصول المطلوب، والله تعالى لا شريك له، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْفَالْ ذَرْقُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ. وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٢، ٢٣].

وقد استفاضت الأحاديث عن النبي ﷺ أنه نهى عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن من يفعل ذلك، ونهى عن اتخاذ قبره عيداً، وذلك لأن أول ما حدث الشرك في بني آدم كان في قوم نوح.

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. وثبت ذلك في الصحيحين عن النبي ﷺ أن نوحاً أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض^(١)، وقد قال الله تعالى عن قومه أنهم قالوا: ﴿لَا تَذَرْنَا الْهِنَكَ وَلَا تَذَرْنَ وَاً وَلَا سَوَاعَاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤] قال غير واحد من السلف؛ هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، فلما طال عليهم الامد عبدوهم؛ وقد ذكر البخاري في صحيحه هذا عن ابن عباس، وذكر أن هذه الآلهة صارت إلى العرب، وسمى قبائل العرب الذين كانت فيهم هذه الأصنام^(٢). فلما علمت الصحابة - رضوان الله عليهم - أن النبي ﷺ حَسَمَ مادة الشرك بالنهي عن اتخاذ القبور مساجد - وإن كان المصلي يصلي لله عز وجل، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس لثلاثين شبابه المصلين للشمس، وإن كان المصلي إنما يصلي لله تعالى، وكان الذي يقصد الدعاء بالميت أو عند قبره أقرب إلى الشرك من الذي لا يقصد إلا الصلاة لله عز وجل - لم يكونوا يفعلون ذلك.

٣٢٢/١ وكذلك علم الصحابة أن التوسل به إنما هو التوسل بالإيمان به وطاعته/ومحبته، وموالاته، أو التوسل بدعائه وشفاعته، فلهذا لم يكونوا يتوسلون بذاته مجردة عن هذا وهذا.

فلما لم يفعل الصحابة - رضوان الله عليهم - شيئاً من ذلك، ولا دعوا بمثل هذه

(١) البخاري في الأنبياء (٣٣٤٠)، ومسلم في الإيمان (٣٢٧/١٩٤).

(٢) البخاري في التفسير (٤٩٢٠).

الأدعية – وهم أعلم منا وأعلم بما يحب الله ورسوله، وأعلم بما أمر الله به ورسوله من الأدعية، وما هو أقرب إلى الإجابة منا، بل توسلوا بالعباس وغيره ممن ليس مثل النبي ﷺ - دل عدولهم عن التوسل بالأفضل إلى التوسل بالمفضول أن التوسل المشروع بالأفضل لم يكن ممكناً.

وقد قال ﷺ : «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» رواه مالك في موطئه ورواه غيره^(١)، وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ أنه قال : «لا تتخذوا قبوري عيداً، وصلوا عليّ حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني»^(٢) وفي الصحيحين أنه قال في مرض موته: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما فعلوا، قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً^(٣). وفي صحيح مسلم عن جندب أن النبي ﷺ قال قبل أن يموت بخمس : «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»^(٤). وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٥).

وقد روى الترمذي حديثاً صحيحاً عن النبي ﷺ أنه علم رجلاً أن يدعو فيقول: «اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد، يا رسول الله، إني أتوسل بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها لي ، اللهم شفعه في»^(٦). وروى النسائي نحو هذا الدعاء.

وفي الترمذي وابن ماجه عن عثمان بن حنيف : أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني فقال : «إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت، فهو خير لك». فقال: فادعه. فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا رسول الله، يا محمد، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى ، اللهم فشفعه في» قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح^(٧).

ورواه النسائي عن عثمان بن حنيف ولفظه: أن رجلاً أعمى قال: يا رسول الله، ادع الله أن يكشف لي عن بصري. قال: «فانطلق فتوضأ، ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إني

(٣) سبق تخريجه ص ١٠٤ .

(١، ٢) سبق تخريجهما ص ٥٢ .

(٤) مسلم في المساجد (٢٣/٥٣٢).

(٦، ٧) سبق تخريجهما ص ٨٠ .

(٥) سبق تخريجه ص ٥١ .

أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي أن يكشف عن بصري، اللهم فشفعه في»^(١) قال: فرجع وقد كشف الله عن بصره.

٣٢٤/١ وقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن عمير بن يزيد/الخطمي المدني قال: سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريباً أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، ادع الله أن يعافيني، فقال: «إن شئت أخرت ذلك فهو خير لآخرتك، وإن شئت دعوت لك» قال: لا، بل ادع الله لي، فأمره أن يتوضأ، وأن يصلي ركعتين، وأن يدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى، اللهم فشفعني فيه وشفعه في». قال: ففعل الرجل فبرأ^(٢).

فهذا الحديث فيه التوسل به إلى الله في الدعاء .

فمن الناس من يقول : هذا يقتضى جواز التوسل به مطلقاً حياً وميتاً . وهذا يحتاج به من يتوسل بذاته بعد موته وفي مغيبه، ويظن هؤلاء أن توسل الأعمى والصحابة في حياته كان بمعنى الإقسام به على الله، أو بمعنى أنهم سألوا الله بذاته أن يقضي حوائجهم، ويظنون أن التوسل به لا يحتاج إلى أن يدعو هو لهم، ولا إلى أن يطيعوه، فسواء عند هؤلاء دعا الرسول لهم أو لم يدع، الجميع عندهم توسل به، وسواء أطاعوه أو لم يطيعوه، ويظنون أن الله تعالى يقضى حاجة هذا الذي توسل به بزعمهم ولم يدع له الرسول، كما يقضى حاجة هذا الذي توسل بدعائه ودعا له الرسول ﷺ ؛ إذ كلاهما متوسل به عندهم، ويظنون أن كل من سأل الله تعالى بالنبي ﷺ فقد توسل به كما توسل به ذلك الأعمى، وأن ما أمر به الأعمى مشروع لهم. وقول هؤلاء باطل شرعاً وقدرأً، فلا هم موافقون لشرع الله، ولا ما يقولونه مطابق لخلق الله. / ٣٢٥/١

ومن الناس من يقولون: هذه قضية عين يثبت الحكم في نظائرها التي تشبهها في مناط الحكم، لا يثبت الحكم بها فيما هو مخالف لها لا مماثل لها، والفرق ثابت شرعاً وقدرأً بين من دعا له النبي ﷺ وبين من لم يدع له، ولا يجوز أن يجعل أحدهما كالآخر.

وهذا الأعمى شفع له النبي ﷺ ، فلهذا قال في دعائه: «اللهم فشفعه في». فعلم أنه شفع فيه، ولفظه: «إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك»، فقال: ادع لي ؛ فهو

(١) سبق تخريجه ص ٨٠ .

(٢) أحمد ١٣٨/٤ .

طلب من النبي ﷺ أن يدعو له، فأمره النبي ﷺ أن يصلي، ويدعو هو أيضاً لنفسه ويقول في دعائه: «اللهم فشفعه في»، فدل ذلك على أن معنى قوله: «أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد» أي بدعائه وشفاعته كما قال عمر: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا ففسقنا^(١).

فالحدثان معناهما واحد، فهو ﷺ علم رجلا أن يتوسل به في حياته، كما ذكر عمر أنهم كانوا يتوسلون به إذا أجدبوا، ثم إنهم بعد موته إنما كانوا يتوسلون بغيره بدلا عنه.

فلو كان التوسل به حياً وميتاً سواء، والمتوسل به الذي دعا له الرسول، كمن لم يدع له الرسول، لم يعدلوا عن التوسل به - وهو أفضل الخلق وأكرمهم على ربه، وأقربهم إليه وسيلة - إلى أن يتوسلوا بغيره ممن ليس مثله.

٣٢٦/١

وكذلك لو كان أعمى توسل به ولم يدع له الرسول بمنزلة ذلك الأعمى، لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى، فعدولهم عن هذا إلى هذا - مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإنهم أعلم منا بالله ورسوله، وبحقوق الله ورسوله، وما يشرع من الدعاء وينفع، وما لم يشرع ولا ينفع، وما يكون أنفع من غيره، وهم في وقت ضرورة ومخمصة وجذب يطلبون تفريج الكربات، وتيسير العسير، وإنزال الغيث بكل طريق ممكن - دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه.

ولهذا ذكر الفقهاء في كتبهم في الاستسقاء ما فعلوه دون ما تركوه، وذلك أن التوسل به حياً هو الطلب لدعائه وشفاعته وهو من جنس مسألته أن يدعو لهم، وهذا مشروع، فما زال المسلمون يسألون رسول الله ﷺ في حياته أن يدعو لهم.

وأما بعد موته، فلم يكن الصحابة يطلبون منه الدعاء، لا عند قبره ولا عند غير قبره، كما يفعله كثير من الناس عند قبور الصالحين، يسأل أحدهم الميت حاجته، أو يقسم على الله به ونحو ذلك، وإن كان قد روى في ذلك حكايات عن بعض المتأخرين، بل طلب الدعاء مشروع من كل مؤمن لكل مؤمن، حتى قال رسول الله ﷺ لعمر لما استأذنه في العمرة: «لا تسنا يا أخي من دعائك»^(٢) - إن صح الحديث - وحتى أمر النبي ﷺ أن ٣٢٧/١ يطلب من أويس القرني أن يستغفر للطالب، وإن كان الطالب أفضل من أويس بكثير.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول: ثم

(٢) سبق تخريجه ص ١٠٠ .

(١) سبق تخريجه ص ٨٠ .

صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ مرة صلى الله عليه عشراً، ثم سلّوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة»^(١) مع أن طلبه من أمته الدعاء ليس هو طلب حاجة من المخلوق، بل هو تعليم لأمته ما ينتفعون به في دينهم، وبسبب ذلك التعليم والعمل بما علمهم يعظم الله أجره.

فإننا إذا صلينا عليه مرة صلى الله علينا عشراً، وإذا سلّنا الله له الوسيلة، حلت علينا شفاعته يوم القيامة، وكل ثواب يحصل لنا على أعمالنا فله مثل أجرنا من غير أن ينقص من أجرنا شيء، فإنه ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»^(٢) وهو الذي دعا أمته إلى كل خير، وكل خير تعمله أمته له مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

ولهذا لم يكن الصحابة والسلف يهدون إليه ثواب أعمالهم ولا يحجون عنه/ولا يتصدقون ولا يقرؤون القرآن ويهدون له؛ لأن كل ما يعمل المسلمون من صلاة وصيام وحج وصدقة وقراءة له ﷺ مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء؛ بخلاف الوالدين، فليس كل ما عمله المسلم من الخير يكون لوالديه مثل أجره، ولهذا يهدي الثواب لوالديه وغيرهما.

ومعلوم أن الرسول ﷺ مطيع لربه عز وجل في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْجِعْ﴾ [الشرح: ٧، ٨]. فهو ﷺ لا يرغب إلى غير الله، وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، هم الذين لا يسترقون، ولا يكتون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»^(٣).

فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم لا يسترقون، والاسترقاء: أن يطلب من غيره أن يرقيه، والرقية من نوع الدعاء، وكان هو ﷺ يرقى نفسه وغيره، ولا يطلب من أحد أن يرقيه، ورواية من روى في هذا: «لا يُرقون» ضعيفة غلط؛ فهذا مما يبين حقيقة أمره لأمته بالدعاء أنه ليس من باب سؤال المخلوق للمخلوق الذي غيره أفضل منه، فإن من لا يسأل الناس - بل لا يسأل إلا الله - أفضل ممن يسأل الناس، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم.

ودعاء الغائب للغائب، أعظم إجابة من دعاء الحاضر، لأنه أكمل إخلاصاً وأبعد عن الشرك، فكيف يشبه دعاء من يدعو لغيره بلا سؤال منه، إلى دعاء/من يدعو الله بسؤاله

(٢) سبق تخريجه ص ١٤١ .

(١) سبق تخريجه ص ٦٢ .

(٣) مسلم في الإيمان (٣٧٢/٢١٨) .

وهو حاضر ؟ وفي الحديث: « أعظم الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب » وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثله »^(١).

وذلك أن المخلوق يطلب من المخلوق ما يقدر المخلوق عليه، والمخلوق قادر على دعاء الله ومساألته، فلهذا كان طلب الدعاء جائزاً، كما يطلب منه الإعانة بما يقدر عليه والأفعال التي يقدر عليها. فأما ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فلا يجوز أن يطلب إلا من الله سبحانه، لا يطلب ذلك لا من الملائكة، ولا من الأنبياء، ولا من غيرهم، ولا يجوز أن يقال لغير الله: اغفر لي، واسقنا الغيث، وانصرنا على القوم الكافرين، أو اهد قلوبنا، ونحو ذلك؛ ولهذا روى الطبراني في معجمه أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال الصديق: قوموا بنا نستغث^(٢) برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فجاءوا إليه فقال: « إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله »^(٣) وهذا في الاستعانة مثل ذلك.

فأما ما يقدر عليه البشر، فليس من هذا الباب، وقد قال سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، وفي دعاء موسى - عليه السلام -: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وإليك المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(٤) وقال أبو يزيد البسطامي: استغاث المخلوق بالمخلوق كاستغاث الغريق بالغريق.

وقال أبو عبد الله القرشي: استغاث المخلوق بالمخلوق كاستغاث المسجون بالمسجون، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

قال طائفة من السلف: كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء فقال الله تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادي كما أنتم عبادي، يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي، ويتقربون إليّ كما تقتربون إليّ، فنهى سبحانه عن دعاء الملائكة والأنبياء، مع إخباره لنا أن الملائكة يدعون لنا ويستغفرون، ومع هذا فليس لنا أن نطلب ذلك منهم.

(١) سبق تخريجه ص ١٠١.

(٢) في المطبوعة: « نستغث »، والصواب ما أثبتناه؛ لأنه مجزوم في جواب الطلب.

(٣) سبق تخريجه ص ٧٨.

(٤) الهيثمي في مجمع الزوائد ١٨٦/١٠ وقال: « رواه الطبراني في الأوسط والصغير وفيه من لم أعرفهم ».

وكذلك الأنبياء والصالحون، وإن كانوا أحياء في قبورهم . وإن قدر أنهم يدعون للأحياء وإن وردت به آثار فليس لأحد أن يطلب منهم ذلك، ولم يفعل ذلك أحد من السلف؛ ولأن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم وعبادتهم من دون الله تعالى، بخلاف الطلب من أحدهم في حياته، فإنه لا يفضي إلى الشرك؛ ولأن ما تفعله الملائكة ويفعله الأنبياء والصالحون بعد الموت هو بالأمر الكوني/ فلا يؤثر فيه سؤال السائلين، بخلاف سؤال أحدهم في حياته فإنه يشرع إجابة السائل، وبعد الموت انقطع التكليف عنهم.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْفِكَهُ اللَّهُ الْأَكْثَبَ وَالْحَكَمَ وَالتَّوْبَةُ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلتَّيْبَةِ أَرْبَابًا أَيَّامُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

فبين سبحانه أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافر، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً ذَرِّفْ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرْكِ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]، وقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنبِئُوكَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى عن صاحب يس: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِيدِ الْرَحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُقِذُّونِي إِنْ إِذَا لَيْتُ صُلْبِي مُثَبِّتٍ إِنْ أَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُوا﴾ [يس: ٢٢ - ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضَى لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُوكَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادْنِي وَهُمْ مِنْ خَشِيئَةِ مُشْفِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فالشفاة نو عان:

أحدهما: الشفاعة التي نفاها الله تعالى كالتي أثبتها المشركون، ومن ضاهاهم من جهال هذه الأمة، وضلالهم؛ وهى شرك.

والثاني: أن يشفع الشفيع بإذن الله، وهذه أثبتتها تعالى لعباده الصالحين؛ ولهذا كان سيد الشفعاء إذا طلب منه الخلق الشفاعة يوم القيامة يأتي ويسجد. قال: «فأحمد ربي بحامد يفتحها على لا أحسنها الآن، فيقال: أي محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع»^(١) فإذا أذن له في الشفاعة شفع ﷺ لمن أراد الله أن يشفع فيه.

قال أهل هذا القول: ولا يلزم من جواز التوسل والاستشفاع به - بمعنى أن يكون هو داعياً للتوسل به - أن يشرع ذلك في مغيبه، وبعد موته؛ مع أنه هو لم يدع للتوسل به، بل المتوسل به أقسم به أو سأل بذاته، مع كون الصحابة فرقوا بين الأمرين، وذلك لأنه في حياته يدعو هو لمن توسل به، ودعاؤه هو لله سبحانه أفضل دعاء الخلق، فهو أفضل الخلق وأكرمهم على الله، فدعاؤه لمن دعا له وشفاعته له أفضل دعاء مخلوق لمخلوق، فكيف يقاس هذا بمن لم يدع له الرسول، ولم يشفع له؟ ومن سوى بين من دعا له الرسول، وبين من لم يدع له الرسول، وجعل هذا التوسل كهذا التوسل، فهو من أضل الناس.

وأيضاً فإنه ليس في طلب الدعاء منه ودعائه هو والتوسل بدعائه ضرر، بل هو خير ٣٣٣/١ بلا شر، وليس في ذلك محذور ولا مفسدة، فإن أحداً من الأنبياء - عليهم السلام - لم يعبد في حياته بحضوره، فإنه ينهى من يعبده ويشرك به ولو كان شركاً أصغر، كما نهى النبي ﷺ من سجد له عن السجود له، وكما قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد»^(٢) وأمثال ذلك.

وأما بعد موته، فيخاف الفتنة والإشراك به كما أشرك بالمسيح، والعزير وغيرهما عند قبورهم؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» أخرجاه في الصحيحين^(٣)، وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»، وقال: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٤)، يحذر ما فعلوا.

وبالجملة، فمعنا أصلاً عظيماً، أحدهما: أن لا نعبد إلا الله. والثاني: أن لا نعبد إلا بما شرع، لا نعبد بعبادة مبتدعة.

وهذان الأصلاً هما تحقيق «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله» كما قال تعالى: ﴿يَسْلُوكُم بِأَنكُم أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

(١) البخاري في التوحيد (٧٥١٠)، ومسلم في الإيمان (٣٢٦/١٩٣).

(٢ - ٤) سبق تخريجها ص ٥١، ٥٢.

قال الفضيل بن عياض : أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة . وذلك تحقيق قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] .

وفى الصحيحين عن عائشة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » (١) ، وفي لفظ في الصحيح : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » (٢) ، وفي الصحيح وغيره أيضاً يقول الله تعالى : « أُنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ » ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ كُلُّهُ لِلَّذِي أَشْرَكَ » (٣) .

ولهذا قال الفقهاء : العبادات مبناها على التوقيف كما في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قبل الحجر الأسود وقال : والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما (٤) قبلتك (٥) . والله سبحانه أمرنا باتباع الرسول وطاعته ، وموالاته ومحبته ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما ، وضمن لنا بطاعته ومحبته حبة الله وكرامته . فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَاسِبُونَ ﴾ [النور : ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْمَطْهُرُ ﴾ [النساء : ١٣] ، وأمثال ذلك في القرآن كثير .

٣٣٥/١ ولا ينبغي لأحد أن يخرج في هذا عما مضت به السنة ، وجاءت به الشريعة/ودل عليه الكتاب والسنة ، وكان عليه سلف الأمة ، وما علمه قال به ، وما لم يعلمه أمسك عنه ، ولا

(١) البخاري في الصلح (٢٦٩٧) ، ومسلم في الأفضية (١٧١٨ / ١٧) .

(٢) مسلم في الأفضية (١٧١٨ / ١٨) .

(٣) مسلم في الزهد (٢٩٨٥ / ٤٦) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢) وفي الزوائد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » .

(٤) في المطبوعة : « لما » وهو خطأ ، والتصحيح من البخاري ومسلم .

(٥) البخاري في الحج (١٦١٠) ، ومسلم في الحج (١٢٧٠ / ٢٥٠) .

يقفوا ما ليس له به علم، ولا يقول على الله ما لم يعلم، فإن الله تعالى قد حرم ذلك كله.

وقد جاء في الأحاديث النبوية ذكر ما سأل الله تعالى به، كقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنْ لَكَ الْحَمْدُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ، بِدِيْعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ، يَا قَيُّوْمُ» رواه أبو داود وغيره^(١)، وفي لفظ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنْي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه^(٢).

وقد اتفق العلماء على أنه لا تتعقد اليمين بغير الله تعالى، وهو الحلف بالمخلوقات، فلو حلف بالكعبة، أو بالملائكة، أو بالأنبياء أو بأحد من الشيوخ، أو بالملوك لم تتعقد يمينه، ولا يشرع له ذلك، بل ينهي عنه، إما نهى تحريم، وإما نهى تنزيه. فإن للعلماء في ذلك قولين. والصحيح أنه نهى تحريم. ففي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصْمِتْ»^(٣)، وفي الترمذي عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»^(٤)، ولم يقل أحد من العلماء المتقدمين: إنه تتعقد اليمين بأحد من الأنبياء إلا في نبينا ﷺ، فإن عن أحمد روايتين في أنه تتعقد اليمين به، وقد طرد بعض أصحابه - كابن عقيل - الخلاف في سائر الأنبياء وهذا ضعيف.

وأصل القول بانعقاد اليمين بالنبي ضعيف شاذ ولم يقل به أحد من العلماء/ فيما ٣٣٦/١ نعلم، والذي عليه الجمهور كمالك والشافعي وأبي حنيفة أنه لا تتعقد اليمين به كإحدى الروايتين عن أحمد، وهذا هو الصحيح.

وكذلك الاستعاذة بالمخلوقات، بل إنما يستعاذ بالخالق تعالى وأسمائه وصفاته، ولهذا احتج السلف - كأحمد وغيره - على أن كلام الله غير مخلوق فيما احتجوا به بقول النبي ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ»^(٥)، قالوا: فقد استعاذ بها، ولا يستعاذ بمخلوق.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لَا بِأَسْ بِالرَّقِيِّ مَا لَمْ تَكُنْ شَرَكًا»^(٦)، فنهى عن الرقي التي فيها شرك، كالتّي فيها استعاذة بالجن كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

(١) أبو داود في الصلاة (١٤٩٣).

(٢) أبو داود في الصلاة (١٤٩٥)، النسائي في السهو (١٣٠١)، ابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٧).

(٣) ٤، ٣ سبق تخريجهما ص ٦٣.

(٥) مسلم في الذكر والدعاء (٥٤/٢٧٠٨).

(٦) مسلم في السلام (٦٤/٢٢٠٠).

ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والإقسام التي يستعملها بعض الناس في حق المصروع وغيره، التي تتضمن الشرك، بل نهوا عن كل ما لا يعرف معناه من ذلك؛ خشية أن يكون فيه شرك، بخلاف ما كان من الرقي المشروعة، فإنه جائز. فإذا لا يجوز أن يقسم لا قسمًا مطلقًا، ولا قسمًا على غيره إلا بالله عز وجل، ولا يستعيز إلا بالله عز وجل.

والسائل لله بغير الله إما أن يكون مقسمًا عليه، وإما أن يكون طالبًا بذلك السبب، ٣٣٧/١ كما توسل الثلاثة في الغار بأعمالهم، وكما يتوسل بدعاء الأنبياء والصالحين./

فإن كان إقسامًا على الله بغيره فهذا لا يجوز.

وإن كان سؤالًا بسبب يقتضي المطلوب كالسؤال بالأعمال التي فيها طاعة الله ورسوله، مثل السؤال بالإيمان بالرسول ومحبه، وموالاته ونحو ذلك فهذا جائز.

وإن كان سؤالًا بمجرد ذات الأنبياء والصالحين فهذا غير مشروع، وقد نهى عنه غير واحد من العلماء وقالوا: إنه لا يجوز، ورخص فيه بعضهم، والأول أرجح كما تقدم، وهو سؤال بسبب لا يقتضي حصول المطلوب، بخلاف من كان طالبًا بالسبب المقتضى لحصول المطلوب، كالطلب منه سبحانه بدعاء الصالحين، وبالأعمال الصالحة، فهذا جائز؛ لأن دعاء الصالحين سبب لحصول مطلوبنا الذي دعوا به، وكذلك الأعمال الصالحة سبب لثواب الله لنا، وإذا توسلنا بدعائهم وأعمالنا كنا متوسلين إليه تعالى بوسيلة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] والوسيلة هي الأعمال الصالحة، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وأما إذا لم نتوسل إليه سبحانه بدعائهم ولا بأعمالنا، ولكن توسلنا بنفس ذواتهم، لم يكن نفس ذواتهم سببًا يقتضي إجابة دعائنا، فكنا متوسلين بغير وسيلة، ولهذا لم يكن هذا منقولاً عن النبي ﷺ نقلاً صحيحاً، ولا مشهوراً عن السلف.

وقد نقل في (منسك المروذي) عن أحمد دعاء فيه سؤال بالنبي ﷺ، وهذا قد يخرج ٣٣٨/١ على إحدى الروايتين عنه في جواز القسم به./ وأكثر العلماء على النهي في الأمرين، ولا ريب أن لهم عند الله الجاه العظيم - كما قال تعالى في حق موسى وعيسى، عليهما السلام، وقد تقدم ذكر ذلك - لكن ما لهم عند الله من المنازل والدرجات أمر يعود نفعه إليهم، ونحن ننتفع من ذلك باتباعنا لهم ومحبتنا لهم؛ فإذا توسلنا إلى الله تعالى بإيماننا بنبه ومحبه وموالاته واتباع سنته فهذا من أعظم الوسائل. وأما التوسل بنفس ذاته مع عدم التوسل بالإيمان به وطاعته فلا يجوز أن يكون وسيلة، فالتوسل بالمخلوق إذا لم يتوسل بالإيمان بالتوسل به ولا بطاعته فبأي شيء يتوسل؟

والإنسان إذا توسل إلى غيره بوسيلة، فإما أن يطلب من الوسيلة الشفاعة له عند ذلك، مثل أن يقال لأبي الرجل أو صديقه أو من يكرم عليه: اشفع لنا عنده، وهذا جائز. وإما أن يقسم عليه، كما يقول: بحياة ولدك فلان، وبترية أهلك فلان، وبحرمة شيخك فلان ونحو ذلك، والإقسام على الله تعالى بالمخلوقين لا يجوز، ولا يجوز الإقسام على مخلوق بمخلوق.

وإما أن يسأل بسبب يقتضي المطلوب، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، وسيأتي بيان ذلك.

وقد تبين أن الإقسام على الله سبحانه بغيره لا يجوز، ولا يجوز أن يقسم بمخلوق أصلاً، وأما التوسل إليه بشفاعة المأذون لهم في الشفاعة فجائز، والأعمى كان قد طلب من النبي ﷺ أن يدعو له كما طلب الصحابة منه/الاستسقاء، وقوله: «أتوجه إليك بنبيك ٣٣٩/١ محمد نبي الرحمة» أي بدعائه وشفاعته لي، ولهذا تمام الحديث: «اللهم فشفعه في»^(١). فالذي في الحديث متفق على جوازه، وليس هو مما نحن فيه، وقد قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾.

فعلى قراءة الجمهور بالنصب: إنما يسألون بالله وحده، لا بالرحم، وتساؤلهم بالله تعالى يتضمن إقسام بعضهم على بعض بالله، وتعاهدهم بالله.

وأما على قراءة الخفض، فقد قال طائفة من السلف: هو قولهم: أسألك بالله وبالرحم، وهذا إخبار عن سؤالهم، وقد يقال: إنه ليس بدليل على جوازه، فإن كان دليلاً على جوازه، فمعنى قوله: أسألك بالرحم، ليس إقسامًا بالرحم - والقسم هنا لا يسوغ - لكن بسبب الرحم، أي لأن الرحم توجب لأصحابها بعضهم على بعض حقوقاً، كسؤال الثلاثة لله تعالى بأعمالهم الصالحة، وكسؤالنا بدعاء النبي ﷺ وشفاعته.

ومن هذا الباب: ما روى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب؛ أن ابن أخيه عبد الله ابن جعفر كان إذا سأل بحق جعفر أعطاه، وليس هذا من باب الإقسام، فإن الإقسام بغير جعفر أعظم، بل من باب حق الرحم؛ لأن حق الله إنما وجب بسبب جعفر، وجعفر حقه على علي.

(١) سبق تخريجه ص ٨٠.

ومن هذا الباب: الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في دعاء الخارج إلى الصلاة: «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سُمعةً، ولكن خرجت اتقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(١)، وهذا الحديث في إسناده عطية العوفي وفيه ضعف، فإن كان من كلام النبي ﷺ فهو من هذا الباب لوجهين:

أحدهما: لأن فيه السؤال لله تعالى بحق السائلين، وبحق الماشين في طاعته، وبحق السائلين أن يجيبهم، وبحق الماشين أن يثيبهم، وهذا حق أوجبه الله تعالى، وليس للمخلوق أن يوجب على الخالق تعالى شيئاً. ومنه قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]. وفي الصحيح في حديث معاذ: «حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ألا يعذبهم»^(٢).

وفي الصحيح عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا»^(٣).

وإذا كان حق السائلين والعاشرين له هو الإجابة والإثابة بذلك فذاك سؤال لله بأفعاله؛ كالأستعاذة بنحو ذلك في قوله ﷺ: «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(٤)، فالأستعاذة بمعافاته التي هي فعله، كالسؤال بإثابته التي هي فعله.

وروى الطبراني في (كتاب الدعاء) عن النبي ﷺ أن الله يقول: «يا عبادي إنما هي أربع: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين خلقي؛ فالتى لي أن تعبدني لا تشرك بي شيئاً، والتى هي لك أجزيك بها أحوج ما تكون إليه، والتى بيني وبينك منك الدعاء ومني الإجابة، والتى بينك وبين خلقي فأنت إلى الناس ما تحب أن يأتوه إليك»^(٥).

(١) ابن ماجه فى المساجد (٧٧٨) وأحمد ٢١/٣.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٢. (٣) مسلم فى البر والصلة (٥٥/٢٥٧٧).

(٤) مسلم فى الصلاة (٢٢٢/٤٨٦).

(٥) الطبراني فى كتاب الدعاء ٧٩٢/٢، ٧٩٣ (١٦)، دار البشائر الإسلامية - الطبعة الأولى - تحقيق محمد سعيد بن محمد حسن البخاري.

وتقسيمه في الحديث إلى قوله: واحدة لي، وواحدة لك، هو مثل تقسيمه في حديث الفاتحة، حيث يقول الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ نصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل»^(١)، والعبد يعود عليه نفع النصفين، والله تعالى يحب النصفين؛ لكن هو سبحانه يحب أن يعبد، وما يعطيه العبد من الإعانة، والهداية هو وسيلة إلى ذلك فإنما يحبه لكونه طريقاً إلى عبادته، والعبد يطلب ما يحتاج إليه أولاً، وهو محتاج إلى الإعانة على العبادة، والهداية إلى الصراط المستقيم، وبذلك يصل إلى العبادة، إلى غير ذلك مما يطول الكلام فيما يتعلق بذلك وليس هذا موضعه، وإن كنا خرجنا عن المراد.

الوجه الثاني: أن الدعاء له سبحانه وتعالى، والعمل له سبب لحصول مقصود العبد، فهو كالتوسل بدعاء النبي ﷺ والصالحين من أمته، وقد تقدم أن الدعاء بالنبي ﷺ والصالحين إما أن يكون إقساماً به، أو سبباً به، فإن كان قوله: «بحق السائلين عليك» إقساماً فلا يقسم ٣٤٢/١ على الله إلا به، وإن كان سبباً فهو سبب بما جعله هو سبحانه سبباً، وهو دعاؤه وعبادته. فهذا كله يشبه بعضه بعضاً، وليس في شيء من ذلك دعاء له بمخلوق من غير دعاء منه، ولا عمل صالح منا.

وإذا قال السائل: أسألك بحق الملائكة، أو بحق الأنبياء، وحق الصالحين، ولا يقول لغيره: أقسمت عليك بحق هؤلاء. فإذا لم يجز له أن يحلف به، ولا يقسم على مخلوق به، فكيف يقسم على الخالق به؟ وإن كان لا يقسم به وإنما يتسبب به، فليس في مجرد ذوات هؤلاء سبب يوجب تحصيل مقصوده، ولكن لابد من سبب منه، كالإيمان بالملائكة والأنبياء، أو منهم كدعائهم. ولكن كثيراً من الناس تعودوا ذلك كما تعودوا الحلف بهم، حتى يقول أحدهم: وحقك على الله، وحق هذه الشبهة على الله.

وإذا قال القائل: أسألك بحق فلان، أو بجاهه، أي أسألك بإيماني به، ومحبتي له، وهذا من أعظم الوسائل. قيل: من قصد هذا المعنى، فهو معنى صحيح لكن ليس هذا مقصود عامة هؤلاء، فمن قال: أسألك بإيماني بك وبرسولك ونحو ذلك، أو بإيماني برسولك، ومحبتي له ونحو ذلك، فقد أحسن في ذلك كما قال تعالى في دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا

(١) سبق تخريجه ص ٤٢.

٣٤٣/١ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ [المؤمنون: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

وكان ابن مسعود يقول: اللهم أمرتني فأطعت، ودعوتني فأجبت، وهذا سحر فاغفر لي. ومن هذا الباب حديث الثلاثة الذين أصابهم المطر، فأووا إلى الغار، وانطبقت عليهم الصخرة، ثم دعوا الله سبحانه بأعمالهم الصالحة، ففرج عنهم وهو ما ثبت في الصحيحين^(١).

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا خالد بن خراش العجلاني وإسماعيل بن إبراهيم، قالا: حدثنا صالح المري عن ثابت عن أنس قال: دخلنا على رجل من الأنصار وهو مريض ثقيل، فلم نبرح حتى قبض، فبسطنا عليه ثوبه، وله أم عجوز كبيرة عند رأسه، فالتفت إليها بعضنا وقال: يا هذه احتسبي مصيبتك عند الله. قالت: وما ذاك، مات ابني؟ قلنا: نعم. قالت: أحق ما تقولون؟ قلنا: نعم. فمدت يديها إلى الله فقالت: اللهم إنك تعلم أنني أسلمت وهاجرت إلى رسولك رجاء أن تعقبني عند كل شدة فرجا، فلا تحمل عليّ هذه المصيبة اليوم. قال: فكشفت الثوب عن وجهه، فما برحنا حتى طعمنا معه!

وروى في كتاب الحلية لأبي نعيم أن داود قال: بحق آبائي عليك، إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، وأي حق لأبائك عليّ؟. وهذا وإن لم يكن ٣٤٤/١ من الأدلة الشرعية فالإسرائيليات يعتضد بها، ولا يعتمد عليها.

وقد مضت السنة أن الحي يطلب منه الدعاء كما يطلب منه سائر ما يقدر عليه.

وأما المخلوق الغائب والميت، فلا يطلب منه شيء. يحقق هذا الأمر أن التوسل به والتوجه به لفظ فيه إجمال واشتراك بحسب الاصطلاح، فمعناه في لغة الصحابة أن يطلب منه الدعاء والشفاعة، فيكونون متوسلين ومتوجهين بدعائه وشفاعته؛ ودعاؤه وشفاعته ﷺ من أعظم الوسائل عند الله عز وجل.

وأما في لغة كثير من الناس فمعناه أن يسأل الله تعالى ويقسم عليه بذاته، والله تعالى لا يقسم عليه بشيء من المخلوقات، بل لا يقسم بها بحال، فلا يقال: أقسمت عليك يا رب بملائكتك، ولا بكعبتك، ولا بعبادك الصالحين، كما لا يجوز أن يقسم الرجل بهذه الأشياء، بل إنما يقسم بالله تعالى بأسمائه وصفاته، ولهذا كانت السنة أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته فيقول: «أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات

(١) البخاري في الإجازة (٢٢٧٢).

والأرض يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك» (١)، الحديث كما جاءت به السنة.

وأما أن يسأل الله ويقسم عليه بمخلوقاته فهذا لا أصل له في دين الإسلام، وكذلك قوله: «اللهم إني أسألك بمعاهد العز من عرشك، ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم، وجدك الأعلى، وبكلماتك التامات»./

٣٤٥/١

مع أن هذا الدعاء الثالث في جواز الدعاء به قولان للعلماء، قال الشيخ أبو الحسن القدوري في كتابه المسمى بشرح الكرخي: قال بشر بن الوليد: سمعت أبا يوسف قال: قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وأكره أن يقول: «بمعاهد العز من عرشك» أو «بحق خلقك». وهو قول أبي يوسف. قال أبو يوسف: «معهد العز من عرشه» هو الله فلا أكره هذا وأكره أن يقول: «بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت والمشعر الحرام»، قال القدوري: المسألة بخلقه لا تجوز؛ لأنه لا حق للمخلوق على الخالق، فلا يجوز- يعني وفاقاً- وهذا من أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما يقتضى المنع أن يسأل الله بغيره.

فإن قيل: الرب - سبحانه وتعالى - يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس لنا أن نقسم عليه إلا به. فهلا قيل: يجوز أن يقسم عليه بمخلوقاته، وألا يقسم على مخلوق إلا بالخالق تعالى؟ قيل: لا؛ لأن إقسامه بمخلوقاته من باب مدحه والثناء عليه وذكر آياته، وإقسامنا نحن بذلك شرك إذا أقسمنا به لحض غيرنا أو لمنعه أو تصديق خبر أو تكذيبه.

ومن قال لغيره: أسألك بكذا. فإما أن يكون مقسماً فهذا لا يجوز بغير الله تعالى: والكفارة في هذا على المقسم لا على المقسم عليه، كما صرح بذلك أئمة الفقهاء. وإن لم يكن مقسماً فهو من باب السؤال، فهذا لا كفارة فيه على واحد منهما.

فتبين أن السائل لله بخلقه إما أن يكون حالاً بمخلوق، وذلك لا يجوز. وإما أن يكون سائلاً به، وقد تقدم تفصيل ذلك. وإذا قال: «بالله افعل كذا» فلا كفارة فيه على ٣٤٦/١ واحد منهما، وإذا قال: «أقسمت عليك بالله لتفعلن» أو «والله لتفعلن» فلم يبر قسمه لزمته الكفارة الخالف.

والذي يدعو بصيغة السؤال فهو من باب السؤال به، وأما إذا أقسم على الله تعالى مثل أن يقول: أقسمت عليك يارب لتفعلن كذا، كما كان يفعل البراء بن مالك وغيره من

(١) أبو داود في الصلاة (١٤٩٥) والنسائي في السهو (١٣٠١).

السلف، فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «رب أشعث أغبر ذي طمرين»^(١)، مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»^(٢). وفي الصحيح أنه قال - لما قال أنس بن النضر: والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع - فقال النبي ﷺ: «يا أنس، كتاب الله القصاص» فعفا القوم، فقال النبي ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»^(٣)، وهذا من باب الحلف بالله لتفعلن هذا الأمر، فهو إقسام عليه تعالى به وليس إقساماً عليه بمخلوق.

وينبغي للخلق أن يدعوا بالأدعية الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة، فإن ذلك لا ريب في فضله وحسنه، وأنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وقد تقدم أن ما ذكره بعض العامة من قوله ﷺ: «إذا كانت لكم حاجة فاسألوا الله بجاهي» حديث باطل لم يروه أحد من أهل العلم، ولا هو في شيء من كتب الحديث، وإنما المشروع الصلاة عليه في كل دعاء.

ولهذا لما ذكر العلماء الدعاء في الاستسقاء وغيره ذكروا الصلاة عليه، لم يذكروا فيما شرع للمسلمين في هذه الحال التوسل به، كما لم يذكر أحد من العلماء/دعاء غير الله والاستعانة المطلقة بغيره في حال من الأحوال، وإن كان بينهما فرق؛ فإن دعاء غير الله كفر؛ ولهذا لم ينقل دعاء أحد من الموتى والغائبين - لا الأنبياء ولا غيرهم - عن أحد من السلف وأئمة العلم، وإنما ذكره بعض المتأخرين ممن ليس من أئمة العلم المجتهدين، بخلاف قولهم: أسألك بجاه نبينا أو بحقه، فإن هذا مما نقل عن بعض المتقدمين فعله، ولم يكن مشهوراً بينهم، ولا فيه سنة عن النبي ﷺ، بل السنة تدل على النهي عنه كما نقل ذلك عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما.

ورأيت في فتاوى الفقيه أبي محمد بن عبد السلام قال: لا يجوز أن يتوسل إلى الله بأحد من خلقه إلا برسول الله ﷺ إن صح حديث الأعمى فلم يعرف صحته، ثم رأيت عن أبي حنيفة، وأبي يوسف وغيرهما من العلماء، أنهم قالوا: لا يجوز الإقسام على الله بأحد الأنبياء، ورأيت في كلام الإمام أحمد أنه في النبي ﷺ، لكن قد يخرج على إحدى

(١) الطَّمْر: الثوب البالي. انظر: النهاية في غريب الحديث ٣/١٣٨.

(٢) مسلم في البر والصلة (٢٦٢٢/١٣٨)، وفي الجنة (٤٨/٢٨٥٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، والترمذي في المناقب (٣٨٥٤) عن أنس بن مالك وقال: «حديث صحيح حسن من هذا الوجه».

(٣) البخاري في الصلح (٢٧٠٣)، وأبو داود في الديات (٤٥٩٥)، والنسائي في القسامة (٤٧٥٦، ٤٧٥٧)، وابن ماجه في الديات (٢٦٤٩)، وأحمد ٣/١٢٨، ١٦٧.

الروایتین عنه فی جواز الحلف به . وقد تقدم أن هذا الحديث لا يدل إلا على التوسل بدعائه ، ليس من باب الإقسام بالخلق على الله تعالى ، ولا من باب السؤال بذات الرسول كما تقدم . والذين يتوسلون بذاته لقبول الدعاء عدلوا عما أمروا به وشرع لهم - وهو من أنفع الأمور لهم - إلى ما ليس كذلك ، فإن الصلاة عليه من أعظم الوسائل التي بها يستجاب الدعاء وقد أمر الله بها .

والصلاة عليه في الدعاء هو الذي دل عليه الكتاب والسنة والإجماع ، قال الله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ٣٤٨/١ [الأحزاب : ٥٦] .

وفي الصحيح عنه أنه قال : « من صلى عليّ مرة صلى الله عليه عشراً »^(١) ، وعن فضالة ابن عبيد - صاحب رسول الله ﷺ - قال : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يحمد الله ، ولم يصل على النبي ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « عجل هذا ! » ثم دعاه فقال له أو لغيره : « إذا صلى أحدكم فيبدأ بحمد ربه ، ثم يصلي على النبي ، ثم يدعو بعده بما شاء » رواه أحمد وأبو داود - وهذا لفظه - والترمذي والنسائي . وقال الترمذي : حديث صحيح^(٢) .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلّوا عليّ ؛ فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة »^(٣) .

وفي سنن أبي داود والنسائي عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن المؤذنين يفضلوننا ، فقال رسول الله ﷺ : « قل كما يقولون ، فإذا انتهيت سل تعطه »^(٤) . وفي المسند عن جابر ابن عبد الله قال : « من قال حين ينادي المنادي : اللهم رب هذه الدعوة القائمة ، والصلاة النافعة صل على محمد وارض عنه ، رضاء لا سخط بعده ، استجاب الله له دعوته »^(٥) .

(١) مسلم في الصلاة (٧٠ / ٤٠٨)

(٢) أبو داود في الوتر (١٤٨١) ، وأحمد ١٨/٦ . والترمذي في الدعوات (٣٤٧٧) ، والنسائي في السهو (١٢٨٤) .

(٣) سبق تخريجه ص ٦٢ .

(٤) أبو داود في الصلاة (٥٢٤) ، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة ١٦/٦ (١/٩٨٧٢) .

(٥) أحمد ٣٣٧/٣ .

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة»
٣٤٩/١ رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حديث حسن^(١) /.

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «ساعتان تفتح فيهما أبواب السماء فلما
ترد على داع دعوته: عند حصول النداء، والصف في سبيل الله» رواه أبو داود^(٢).

وفي المسند والترمذي وغيرهما عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال: كان رسول
الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام فقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها
الرادفة، جاء الموت بما فيه».

قال أبيّ: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟
قال: «ما شئت» قلت: الربع؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك» قلت:
النصف؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك» قلت: الثلثين؟ قال: «ما شئت، وإن
زدت فهو خير لك» قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذًا يكفيك الله ما أهمك من أمر
دنياك وآخرتك» وفي لفظ: «إذًا تكفي همك، ويغفر ذنبك»^(٣).

وقول السائل: أجعل لك من صلاتي؟ يعني من دعائي؛ فإن الصلاة في اللغة هي
الدعاء، قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال النبي ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى»^(٤)، وقالت امرأة: صل عليّ يا رسول
الله وعلى زوجي، فقال: «صلى الله عليك وعلى زوجك»^(٥).

٣٥٠/١ فيكون مقصود السائل: أي يا رسول الله إن لي دعاء أدعو به أستجلب به/الخير
وأستدفع به الشر، فكم أجعل لك من الدعاء؟ قال: «ما شئت» فلما انتهى إلى قوله:
أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذًا تكفي همك ويغفر ذنبك». وفي الرواية الأخرى: «إذًا
يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك»، وهذا غاية ما يدعو به الإنسان من جلب

(١) أبو داود في الصلاة (٥٢١)، والترمذي في الصلاة (٢١٢)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة
٢٢/٦ (٢/٩٨٩٦) وأحمد ١١٩/٣.

(٢) مالك في الموطأ في الصلاة ٧٠/١ (٧)، ولم أعثر عليه في أبي داود.

(٣) أحمد ١٣٦/٥.

(٤) البخاري في الدعوات (٦٣٣٢)، (٦٣٥٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٧٨/١٧٦)، وأبو داود في الزكاة

(١٥٩٠)، والنسائي في الزكاة (٢٤٥٩)، وابن ماجه في الزكاة (١٧٩٦)، وأحمد ٣٥٣/٤، ٣٥٥، كلهم

من حديث عبد الله بن أبي أوفى.

(٥) أبو داود في الصلاة (١٥٣٣).

الخيرات ودفع المضرات؛ فإن الدعاء فيه تحصيل المطلوب، واندفاع المرهوب، كما بسط ذلك في مواضعه.

وقد ذكر علماء الإسلام وأئمة الدين الأدعية الشرعية، وأعرضوا عن الأدعية البدعية، فينبغي اتباع ذلك. والمراتب في هذا الباب ثلاث:

إحداها: أن يدعو غير الله وهو ميت أو غائب، سواء كان من الأنبياء والصالحين أو غيرهم فيقول: يا سيدي فلان، أغثنى، أو أنا أستجير بك، أو أستغيث بك، أو انصرنى على عدوي، ونحو ذلك فهذا هو الشرك بالله. والمستغيث بالمخلوقات قد يقضي الشيطان حاجته أو بعضها، وقد يتمثل له في صورة الذي استغاث به، فيظن أن ذلك كرامة لمن استغاث به، وإنما هو شيطان دخله وأغواه لما أشرك بالله، كما يتكلم الشيطان في الأصنام وفي المصروع وغير ذلك، ومثل هذا واقع كثيراً في زماننا وغيره، وأعرف من ذلك ما يطول وصفه في قوم استغاثوا بي أو بغيري، وذكروا أنه أتى شخص على صورتي أو صورة غيري وقضى حوائجهم فظنوا أن ذلك من بركة الاستغاثة بي أو بغيري! وإنما هو شيطان أضلهم وأغواهم وهذا هو أصل عبادة الأصنام واتخاذ الشركاء مع الله تعالى في الصدر الأول من القرون الماضية كما ثبت ذلك، فهذا أشرك بالله نعوذ بالله من ذلك. /

٣٥١/١

وأعظم من ذلك يقول: اغفر لي وتب عليّ، كما يفعله طائفة من الجاهل المشركين. وأعظم من ذلك أن يسجد لقبره ويصلي إليه ويرى الصلاة أفضل من استقبال القبلة، حتى يقول بعضهم: هذه قبلة الخواص والكعبة قبلة العوام.

وأعظم من ذلك أن يرى السفر إليه من جنس الحج، حتى يقول: إن السفر إليه مرات يعدل حجة، وغلاتهم يقولون: الزيارة إليه مرة أفضل من حج البيت مرات متعددة. ونحو ذلك، فهذا شرك بهم، وإن كان يقع كثير من الناس في بعضه.

الثانية: أن يقال للميت أو الغائب من الأنبياء والصالحين: ادع الله لي، أو ادع لنا ربك، أو اسأل الله لنا، كما تقول النصارى لمريم وغيرها - فهذا أيضاً لا يستريب عالم أنه غير جائز، وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من سلف الأمة؛ وإن كان السلام على أهل القبور جائز ومخاطبتهم جائزة كما كان النبي ﷺ يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول قائلهم: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يغفر الله لنا ولكم، نسأل الله لنا ولكم العافية، اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم، واغفر لنا ولهم»^(١).

(١) مسلم في الجنائز (٩٧٥/٤: ١).

وروى أبو عمر بن عبد البر عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » (١) . / ٣٥٢/١

وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ أنه قال: « ما من مسلم يسلم عليَّ إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام » (٢) ، لكن ليس من المشروع أن يطلب من الأموات لا دعاء ولا غيره . وفي موطأ مالك أن ابن عمر كان يقول: السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبت ثم ينصرف .

وعن عبد الله بن دينار قال: رأيت عبد الله بن عمر يقف على قبر النبي ﷺ ، فيصلي على النبي ﷺ ، ويدعو لأبي بكر وعمر . وكذلك أنس بن مالك وغيره نقل عنهم أنهم كانوا يسلمون على النبي ﷺ ، فإذا أرادوا الدعاء استقبلوا القبلة يدعون الله تعالى ، لا يدعون مستقبلي الحجرة ، وإن كان قد وقع في بعض ذلك طوائف من الفقهاء والصوفية والعامة من لا اعتبار بهم ، فلم يذهب إلى ذلك إمام متبع في قوله ، ولا من له في الأمة لسان صدق عام .

ومذهب الأئمة الأربعة - مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد - وغيرهم من أئمة الإسلام أن الرجل إذا سلم على النبي ﷺ وأراد أن يدعو لنفسه فإنه يستقبل القبلة . واختلفوا في وقت السلام عليه ، فقال الثلاثة - مالك والشافعي وأحمد - : يستقبل الحجرة ويسلم عليه من تلقاء وجهه ، وقال أبو حنيفة : لا يستقبل الحجرة وقت السلام ، كما لا يستقبلها وقت الدعاء باتفاقهم .

٣٥٣/١ ثم في مذهبه قولان: /

قيل : يستدبر الحجرة ، وقيل : يجعلها عن يساره . فهذا نزاعهم في وقت السلام ، وأما في وقت الدعاء فلم يتنازعوا في أنه إنما يستقبل القبلة لا الحجرة .

والحكاية التي تذكر عن مالك أنه قال للمنصور لما سأله عن استقبال الحجرة فأمره بذلك وقال: « هو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم » كذب على مالك ليس لها إسناد معروف ، وهو خلاف الثابت المنقول عنه بأسانيد الثقات في كتب أصحابه . كما ذكره إسماعيل بن إسحاق القاضي وغيره ، مثل ما ذكروا عنه أنه سئل عن أقوام يطيلون القيام مستقبلي الحجرة يدعون لأنفسهم ، فأنكر مالك ذلك ، وذكر أنه من البدع ، التي لم يفعلها

(١) ابن عبد البر في الاستذكار في الطهارة (١٨٥٨) عن ابن عباس .

(٢) أبو داود في الحج (٢٠٤١) .

الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وقال : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها .

ولا ريب أن الأمر كما قاله مالك ، فإن الآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين تبين أن هذا لم يكن من عملهم وعاداتهم ، ولو كان استقبال الحجر عند الدعاء مشروعاً لكانوا هم أعلم بذلك ، وكانوا أسبق إليه ممن بعدهم والداعي يدعو الله وحده . وقد نهى عن استقبال الحجر عند دعائه لله تعالى ، كما نهى عن استقبال الحجر عند الصلاة لله تعالى كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي مرثد/ الغنوي أن النبي ﷺ قال : « لا تجلسوا علي القبور ولا تصلوا إليها »^(١) . فلا يجوز أن يصلي إلى شيء من القبور ، لا قبور الأنبياء ولا غيرهم ، لهذا الحديث الصحيح .

ولا خلاف بين المسلمين أنه لا يشرع أن يقصد الصلاة إلى القبر ، بل هذا من البدع المحدثه ، وكذلك قصد شيء من القبور ، لا سيما قبور الأنبياء والصالحين عند الدعاء ، فإذا لم يجز قصد استقباله عند الدعاء لله تعالى ، فدعاء الميت نفسه أولى ألا يجوز ، كما أنه لا يجوز أن يصلي مستقبله فلأن لا يجوز الصلاة له بطريق الأولى .

فعلم أنه لا يجوز أن يسأل الميت شيئاً : لا يطلب منه أن يدعو الله له ولا غير ذلك ، ولا يجوز أن يشكي إليه شيء من مصائب الدنيا والدين ، ولو جاز أن يشكي إليه ذلك في حياته ، فإن ذلك في حياته لا يفضي إلى الشرك وهذا يفضي إلى الشرك ؛ لأنه في حياته مكلف أن يجيب سؤال من سأله لما له في ذلك من الأجر ونحو ذلك - كما أن موسى يصلي في قبره ، وكما صلى الأنبياء خلف النبي ليلة المعراج بيت المقدس ، وتسبيح أهل الجنة والملائكة - فهم يتمتعون بذلك ، وهم يفعلون ذلك بحسب ما يسره الله لهم ويقدر لهم ، ليس هو من باب التكليف الذي يمتحن به العباد .

وحينئذ ، فسؤال السائل للميت لا يؤثر في ذلك شيئاً ، بل ما جعله الله فاعلاً له هو فعله وإن لم يسأله العبد ؛ كما يفعل الملائكة ما يؤمرون به ، وهم إنما يطيعون أمر ٣٥٥/١ ربه لا يطيعون أمر مخلوق ؛ كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْتَفِئُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦ ، ٢٧] ، فهم لا يعملون إلا بأمره سبحانه وتعالى .

ولا يلزم من جواز الشيء في حياته جوازه بعد موته ، فإن بيته كانت الصلاة فيه مشروعة . وكان يجوز أن يجعل مسجداً . ولما دفن فيه حرم أن يتخذ مسجداً ، كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »^(٢) .

(١) مسلم في الجنائز (٩٧/٩٧٢) . (٢) البخارى في الجنائز (١٣٣٠) ومسلم في المساجد (١٩/٥٢٩) .

يحذر ما فعلوا. ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجداً.

وفي صحيح مسلم وغيره عنه عليه السلام أنه قال: « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك» (١) . وقد كان عليه السلام في حياته يصلي خلفه ، وذلك من أفضل الأعمال ، ولا يجوز بعد موته أن يصلي الرجل خلف قبره ، وكذلك في حياته يطلب منه أن يأمر ، وأن يفتي وأن يقضى ، ولا يجوز أن يطلب ذلك منه بعد موته . وأمثال ذلك كثير .

وقد كره مالك وغيره أن يقول الرجل : زرت قبر رسول الله عليه السلام ؛ لأن هذا اللفظ لم يرد . والأحاديث المروية في زيارة قبره كلها ضعيفة بل كذب . وهذا اللفظ صار مشتركاً في عرف المتأخرين يراد به (الزيارة البدعية) : التي في معنى الشرك ؛ كالذي يزور القبر ليسأله أو يسأل الله به ، أو يسأل الله عنده . / ٣٥٦/١

والزيارة الشرعية : هي أن يزوره لله تعالى : للدعاء له ، والسلام عليه كما يصلي على جنازته . فهذا الثاني هو المشروع ، ولكن كثيراً من الناس لا يقصد بالزيارة إلا المعنى الأول ، فكره مالك أن يقول : زرت قبره ، لما فيه من إيهام المعنى الفاسد الذي يقصده أهل البدع والشرك .

الثالثة : أن يقال : أسألك بفلان ، أو بجاه فلان عندك ونحو ذلك ، الذي تقدم عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما أنه منهي عنه .

وتقدم أيضاً أن هذا ليس بمشهور عن الصحابة ، بل عدلوا عنه إلى التوسل بدعاء العباس وغيره .

وقد تبين ما في لفظ «التوسل» من الاشتراك بين ما كانت الصحابة تفعله وبين ما لم يكونوا يفعلونه ، فإن لفظ التوسل والتوجه في عرف الصحابة ولغتهم هو التوسل والتوجه بدعائه وشفاعته .

ولهذا يجوز أن يتوسل ويتوجه بدعاء كل مؤمن ، وإن كان بعض الناس من المشايخ المتبوعين يحتج بما يرويه عن النبي عليه السلام أنه قال : «إذا أعيتمكم الأمور فعليكم بأهل القبور» «أو فاستعينوا بأهل القبور» . فهذا الحديث كذب مفترى على النبي عليه السلام بإجماع العارفين بحديثه ، ولم يروه أحد من العلماء بذلك ، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة . / ٣٥٧/١

(١) مسلم في المساجد (٥٣٢ / ٢٣) .

وقد قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ لَا يَكُونُ لَكَ إِيمَانٌ حَتَّى تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَتَتَذَكَّرَ أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكَ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه غير مشروع، وقد نهى النبي ﷺ عما هو أقرب من ذلك - عن اتخاذ القبور مساجد ونحو ذلك - ولعن أهله تحذيراً من التشبه بهم، فإن ذلك أصل عبادة الأوثان، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

فإن هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروهم، ثم اتخذوا الأصنام على صورهم، كما تقدم ذكر ذلك عن ابن عباس وغيره من علماء السلف. فمن فهم معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] عرف أنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة إلا الله وحده وأنه يستعان بالخلق فيما يقدر عليه، وكذلك الاستغاثة لا تكون إلا بالله، والتوكل لا يكون إلا عليه ﴿وَمَا أَنْصُرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦، الأنفال: ١٠]، فالنصر المطلق - وهو خلق ما يغلب به العدو - لا يقدر عليه إلا الله، وفي هذا القدر كفاية لمن هداه الله، والله أعلم.

وهذا الذي نهى عنه النبي ﷺ من هذا الشرك هو كذلك في شرائع غيره من الأنبياء: ففي التوراة أن موسى - عليه السلام - نهى بني إسرائيل عن دعاء الأموات وغير ذلك من الشرك، وذكر أن ذلك من أسباب عقوبة الله لمن فعله؛ وذلك أن دين الأنبياء عليهم السلام واحد وإن تنوعت شرائعهم، كما في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد»^(١).

٣٥٨/١

وقد قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْنَا﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ. فَتَقَطَّعُوا أَرْهَامَ بَيْنِهِمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِن كَثُرَ الْكَاسِ لَا يَعْلَمُونَ مُبِينٍ إِلَيْهِ وَاقْفُوا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠ - ٣٣] وهذا هو دين الإسلام الذي لا

يقبل الله ديناً غيره من الأولين والآخرين، كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع. / ٣٥٩/١

(١) البخاري في الأنبياء (٣٤٤٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥ / ١٤٥)، كلاهما عن أبي هريرة .

فصل

وإذا تبين ما أمر الله به ورسوله ، وما نهى الله عنه ورسوله - في حق أشرف الخلق وأكرمهم على الله عز وجل ، وسيد ولد آدم وخاتم الرسل والنبين ، وأفضل الأولين والآخرين ، وأرفع الشفعاء منزلة وأعظمهم جاها عند الله تبارك وتعالى - تبين أن من دونه من الأنبياء والصالحين أولى بالألا يشرك به ، ولا يتخذ قبره وثناً يعبد ، ولا يدعى من دون الله لا في حياته ولا في مماته .

ولا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشايخ الغائبين ، ولا الميتين ، مثل أن يقول : يا سيدي فلانا أغثني ، وانصرني ، وادفع عني ، أو أنا في حسبك ، ونحو ذلك ، بل كل هذا من الشرك الذي حرم الله ورسوله ، وتحريمه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ، وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم - لما كانوا من جنس عباد الأوثان - صار الشيطان يضلهم ويغويهم ، كما يضل عباد الأوثان ويغويهم ، فتصور الشياطين في صورة ذلك المستغاث به ، وتخطبهم بأشياء على سبيل المكاشفة ، كما تخطب الشياطين الكهان ، وبعض ذلك صدق ، لكن لا بد أن يكون في ذلك ما هو كذب ٣٦٠/١ بل الكذب أغلب عليه من الصدق .

وقد تقضي الشياطين بعض حاجاتهم ، وتدفع عنهم بعض ما يكرهونه ، فيظن أحدهم أن الشيخ هو الذي جاء من الغيب حتى فعل ذلك ، أو يظن أن الله تعالى صور ملكاً - على صورته - فعل ذلك ، ويقول أحدهم : هذا سر الشيخ وحاله ! وإنما هو الشيطان تمثل على صورته ليضل المشرك به المستغيث به ، كما تدخل الشياطين في الأصنام وتكلم عابديها وتقضي بعض حوائجهم ، كما كان ذلك في أصنام مشركي العرب ، وهو اليوم موجود في المشركين من الترك والهند وغيرهم ، وأعرف من ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي ، وبغيري في حال غيبتنا عنهم ، فأروني أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جثا في الهواء ودفعا عنهم ، ولما حدثوني بذلك بينت لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ ، فتقوي عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين ، وهذا من أكبر الأسباب التي بها أشرك المشركون وعبدة الأوثان .

وكذلك المستغيثون من النصاري بشيوخهم الذين يسمونهم «العلامس» ، يرون أيضاً من يأتي على صورة ذلك الشيخ النصراني الذي استغاثوا به فيقضى بعض حوائجهم .

وهؤلاء الذين يستغيثون بالأموات من الأنبياء ، والصالحين ، والشيوخ ، وأهل بيت النبي ﷺ ، غاية أحدهم أن يجري له بعض هذه الأمور ، أو يحكي لهم بعض هذه الأمور ، فيظن أن ذلك كرامة ، وخرق عادة بسبب هذا العمل . ومن هؤلاء من يأتي إلى قبر الشيخ/الذي يشرك به ويستغيث به فينزل عليه من الهواء طعام ، أو نفقة أو سلاح ، ٣٦١/١ أو غير ذلك مما يطلبه فيظن ذلك كرامة لشيخه ، وإنما ذلك كله من الشياطين . وهذا من أعظم الأسباب التي عبدت بها الأوثان .

وقد قال الخليل - عليه السلام - : ﴿وَأَجْتَبَيْتَنِي وَبَيَّتَنِي أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥ ، ٣٦] كما قال نوح - عليه السلام - . ومعلوم أن الحجر لا يضل كثيراً من الناس إلا بسبب اقتضى ضلالهم ، ولم يكن أحد من عبادة الأصنام يعتقد أنها خلقت السموات والأرض ، بل إنما كانوا يتخذونها شفعاء ووسائط لأسباب : منهم من صورها على صور الأنبياء والصالحين .

ومنهم من جعلها تماثيل وطلاسم للكواكب والشمس والقمر .

ومنهم من جعلها لأجل الجن .

ومنهم من جعلها لأجل الملائكة . فالمعبود لهم في قصدهم : إنما هو الملائكة والأنبياء والصالحون أو الشمس ، أو القمر . وهم في نفس الأمر يعبدون الشياطين : فهي التي تقصد من الإنس أن يعبدوها وتظهر لهم ما يدعوههم إلى ذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ^(١) جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ^(٢) لِلْمَلَكَةِ أَهْلُؤَلَاءِ إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا: ٤٠ ، ٤١] .

وإذا كان العابد ممن لا يستحل عبادة الشياطين أوهموه أنه إنما يدعو/الأنبياء والصالحين ٣٦٢/١ والملائكة وغيرهم ممن يحسن العابد ظنه به ، وأما إن كان ممن لا يحرم عبادة الجن عرفوه أنهم الجن .

وقد يطلب الشيطان المتمثل له في صورة الإنسان أن يسجد له ، أو أن يفعل به الفاحشة ، أو أن يأكل الميتة ويشرب الخمر أو أن يقرب لهم الميتة ، وأكثرهم لا يعرفون ذلك ، بل يظنون أن من يخاطبهم إما ملائكة وإما رجال من الجن يسمونهم رجال الغيب ، ويظنون أن رجال الغيب أولياء الله غائبون عن أبصار الناس ، وأولئك جن تمثلت بصور

(١) في المطبوعة : « نحشرهم » ، والصواب ما أثبتناه

(٢) في المطبوعة : « نقول » ، والصواب ما أثبتناه .

الإنس، أو رؤيت في غير صور الإنس، وقال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ كَانِ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْإِنسِ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]. كان الإنس إذا أنزل أحدهم بواد يخاف أهله قال: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، وكانت الإنس تستعيز بالجن، فصار ذلك سبباً لطغيان الجن، وقالت: الإنس تستعيز بنا!.

وكذلك الرقى، والعزائم الأعجمية، هي تتضمن أسماء رجال من الجن يدعون؛ ويستغاث بهم ويقسم عليهم بمن يعظمونه فتطيعهم الشياطين بسبب ذلك في بعض الأمور. وهذا من جنس السحر والشرك قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنٌ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوُتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَئِنَّ سَاءَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وكثير من هؤلاء يطير في الهواء وتكون الشياطين قد حملته وتذهب به إلى مكة وغيرها، ويكون مع ذلك زنديقاً، يجحد الصلاة وغيرها مما فرض الله ورسوله، ويستحل المحارم التي حرمها الله ورسوله، وإنما يقترب به أولئك الشياطين لما فيه من الكفر والفسوق والعصيان، حتى إذا آمن بالله ورسوله وتاب والتزم طاعة الله ورسوله، فارقت تلك الشياطين، وذهبت تلك الأحوال الشيطانية من الإخبارات والتأثيرات. وأنا أعرف من هؤلاء عدداً كثيراً بالشام ومصر والحجاز واليمن، وأما الجزيرة والعراق وخراسان والروم ففيها من هذا الجنس أكثر مما بالشام وغيرها، وبلاد الكفار من المشركين وأهل الكتاب أعظم.

وإنما ظهرت هذه الأحوال الشيطانية التي أسبابها الكفر والفسوق والعصيان بحسب ظهور أسبابها، فحيث قوى الإيمان والتوحيد ونور الفرقان والإيمان وظهرت آثار النبوة والرسالة ضعفت هذه الأحوال الشيطانية، وحيث ظهر الكفر والفسوق والعصيان قويت هذه الأحوال الشيطانية، والشخص الواحد الذي يجتمع فيه هذا وهذا، الذي تكون فيه مادة تمده للإيمان ومادة تمده للنفاق، يكون فيه من هذا الحال وهذا الحال.

٣٦٤/١ والمشركون الذين لم يدخلوا في الإسلام مثل: البخشية والطنوية والبدى/ ونحو ذلك من علماء المشركين وشيوخهم الذين يكونون للكفار من الترك والهند والخطا وغيرهم

تكون الأحوال الشيطانية فيهم أكثر ، ويصعد أحدهم في الهواء ويحدثهم بأمور غائبة ، ويبقى الدف الذي يغني لهم به يمشى في الهواء ، ويضرب رأس أحدهم إذا خرج عن طريقهم ، ولا يرون أحداً يضرب له ، ويطوف الإناء الذي يشربون منه عليهم ولا يرون من يحمله ، ويكون أحدهم في مكان فمن نزل منهم عنده ضيفه طعاماً يكفيهم ، ويأتيهم بألوان مختلفة . وذلك من الشياطين تأتيه من تلك المدينة القريبة منه أو من غيرها تسرقه وتأتي به . وهذه الأمور كثيرة عند من يكون مشركاً أو ناقص الإيمان من الترك وغيرهم ، وعند التتار من هذا أنواع كثيرة .

وأما الداخلون في الإسلام إذا لم يحققوا التوحيد واتباع الرسول ، بل دعوا الشيوخ الغائبين واستغاثوا بهم ، فلهم من الأحوال الشيطانية نصيب بحسب ما فيهم مما يرضي الشيطان . ومن هؤلاء قوم فيهم عبادة ودين مع نوع جهل ، يحمل أحدهم فيوقف بعرفات مع الحجاج من غير أن يحرم إذا حاذى المواقيت ولا يبيت بمزدلفة ، ولا يطوف طواف الإفاضة ، ويظن أنه حصل له بذلك عمل صالح وكرامة عظيمة من كرامات الأولياء ، ولا يعلم أن هذا من تلاعب الشيطان به .

فإن مثل هذا الحج ليس مشروعاً ولا يجوز باتفاق علماء المسلمين ، ومن ظن أن هذا عبادة وكرامة لأولياء الله فهو ضال جاهل .

ولهذا لم يكن أحد من الأنبياء والصحابة يفعل بهم مثل هذا ، فإنهم أجل/قدراً من ٣٦٥/١ ذلك ، وقد جرت هذه القضية لبعض من حمل هو وطائفة معه من الإسكندرية إلى عرفة ، فرأى ملائكة تنزل وتكتب أسماء الحجاج ، فقال : هل كتبتوني؟ قالوا : أنت لم تحج كما حج الناس ، أنت لم تتعب ولم تحرم ولم يحصل لك من الحج الذي يثاب الناس عليه ما حصل للحجاج . وكان بعض الشيوخ قد طلب منه بعض هؤلاء أن يحج معهم في الهواء فقال لهم : هذا الحج لا يسقط به الفرض عنكم لأنكم لم تحجوا كما أمر الله ورسوله .

ودين الإسلام مبني على أصلين : على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيء ، وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان نبيه ﷺ ، وهذان هما حقيقة قولنا : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » فالإله هو الذي تأله القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيماً وخوفاً ورجاء وإجلالاً وإكراماً ، والله عز وجل له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد إلا الله ، ولا يدعى إلا الله ، ولا يخاف إلا الله ، ولا يطاع إلا الله .

والرسول ﷺ هو المبلغ عن الله - تعالى - أمره ونهيهِ وتحليله وتحريمه . فالحلل ما حلله ، والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ، والرسول ﷺ واسطة بين الله وبين خلقه

في تبليغ أمره ونهيه، ووعدته ووعدته، وتحليله وتحريمه؛ وسائر ما بلغه من كلامه.

وأما في إجابة الدعاء، وكشف البلاء، والهداية والإغناء، فالله تعالى هو الذي يسمع ٣٦٦/١ كلامهم ويرى مكانهم، ويعلم سرهم ونجواهم، وهو سبحانه قادر على / إنزال النعم، وإزالة الضر والسقم، عن غير احتياج منه إلى أن يعرفه أحد أحوال عباده، أو يعينه على قضاء حوائجهم.

والأسباب التي بها يحصل ذلك هو خلقها ويسرها. فهو مسبب الأسباب وهو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. ﴿يَسْتَلِمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فأهل السموات يسألونه، وأهل الأرض يسألونه، وهو سبحانه لا يشغله سمع كلام هذا عن سمع كلام هذا، ولا يغلطه اختلاف أصواتهم ولغاتهم، بل يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، ولا يبرمه إلحاح الملحين، بل يحب الإلحاح في الدعاء.

وقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - إذا سألوا النبي ﷺ عن الأحكام أمر رسول الله ﷺ بإجابتهم كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوْقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ أَعْمَقُ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] إلى غير ذلك من مسائلهم.

فلما سألوه عنه سبحانه وتعالى قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فلم يقل سبحانه: «فقل» بل قال تعالى: ﴿فَأِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾. فهو قريب من عباده، كما قال النبي ﷺ في الحديث لما كانوا ٣٦٧/١ يرفعون أصواتهم بالذكر والدعاء، فقال: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، / فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»^(١).

وقال النبي ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى صلاته فلا يَبْصُقَنَّ قَبْلَ وجهه فإن الله قبل وجهه، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً، ولكن عن يساره أو تحت قدمه»^(٢) وهذا الحديث في الصحيح من غير وجه.

(١) البخاري في الدعوات (٦٣٨٤)، ومسلم في الذكر (٢٧٠٤ - ٤٤)، وأبو داود في الوتر (١٥٢٦)، وأحمد ٤ - ٣٩٤، ٤٠٢، ٤٠٣ كلهم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) البخاري في الصلاة (٤١٣)، ومسلم في المساجد (٥٥١ - ٥٤) كلاهما من حديث أنس رضي الله عنه.

سبحانه وتعالى أعلم .

فهذا آخر السؤال والجواب الذي أحببت إيراد هـا بألفاظه ؛ لما اشتمل عليه من المقاصد المهمة ، والقواعد النافعة في هذا الباب ، مع الاختصار . فإن التوحيد هو سر القرآن ، ولب الإيمان ، وتنويع العبارة بوجه الدلالات من أهم الأمور وأنفعها للعباد ، في مصالح المعاش والمعاد ، والله أعلم . / ٣٦٩/١

قال شيخ الإسلام :

في قول القائل : أسألك بحق السائلين عليك وما في معناه؟

الجواب :

أما قول القائل : أسألك بحق السائلين عليك : فإنه قد روى في حديث عن النبي ﷺ رواه ابن ماجه^(١) ، لكن لا يقوم بإسناده حجة؛ وإن صح هذا عن النبي كان معناه : أن حق السائلين على الله أن يجيبهم ، وحق العابدين له أن يشيهم ، وهو كتب ذلك على نفسه . كما قال : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] . فهذا سؤال الله بما أوجبه على نفسه كقول القائلين : ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] . وكدعاء الثلاثة الذين آووا إلى الغار لما سألوهم بأعمالهم الصالحة ، التي وعدهم أن يشيهم عليها. ا.هـ./

٣٧٠/١

(١) ابن ماجه فى المساجد (٧٧٨) .

ولما كان الشيخ في قاعة الترسيم :

دخل إلى عنده ثلاثة رهبان من الصعيد فناظرهم ، وأقام عليهم الحجة بأنهم كفار ، وما هم على الذي كان عليه إبراهيم والمسيح .

فقالوا له : نحن نعمل مثل ما تعملون ، أنتم تقولون بالسيدة نفيسة ، ونحن نقول بالسيدة مريم ، وقد أجمعنا - نحن وأنتم - على أن المسيح ومريم أفضل من الحسين ومن نفيسة ، وأنتم تستغيثون بالصالحين الذين قبلكم ونحن كذلك ، فقال لهم : وأي من فعل ذلك ففيه شبه منكم ، وهذا ما هو دين إبراهيم الذي كان عليه ، فإن الدين الذي كان عليه إبراهيم - عليه السلام - ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له ، ولا ند له ، ولا صاحبة له ولا ولد له ، ولا نشرك معه ملكاً ، ولا شمساً ولا قمرًا ولا كوكبًا ، ولا نشرك معه نبياً من الأنبياء ولا صالحاً : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] .

وأن الأمور التي لا يقدر عليها غير الله لا تطلب من غيره ، مثل إنزال المطر وإنبات النبات ، وتفريج الكربات والهدى من الضلالات ، وغفران الذنوب ، فإنه لا يقدر أحد من جميع الخلق على ذلك ولا يقدر عليه إلا الله .

والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يؤمن بهم ونعظمهم ونوقرهم ، ونتبعهم / ونصدقهم ٣٧١/١
في جميع ما جاؤوا به ، ونطيعهم . كما قال نوح ، وصالح ، وهود ، وشعيب : ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾ [نوح : ٣] فجعلوا العبادة والتقوى لله وحده ، والطاعة لهم ، فإن طاعتهم من طاعة الله . فلو كفر أحد بنبي من الأنبياء وآمن بالجميع ما ينفعه إيمانه حتى يؤمن بذلك النبي ، وكذلك لو آمن بجميع الكتب وكفر بكتاب كان كافراً حتى يؤمن بذلك الكتاب ، وكذلك الملائكة واليوم الآخر ، فلما سمعوا ذلك منه قالوا : الدين الذي ذكرته خير من الدين الذي نحن وهؤلاء عليه . ثم انصرفوا من عنده . / ٣٧٢/١

سئل - رحمه الله - عمن يبوس الأرض دائماً هل يَأثم؟ وعمن يفعل ذلك
لسبب أخذ رزق وهو مكره كذلك؟
فأجاب:

أما تقبيل الأرض، ورفع الرأس، ونحو ذلك مما فيه السجود، مما يفعل قدام بعض
الشيوخ وبعض الملوك - فلا يجوز، بل لا يجوز الانحناء كالركوع أيضاً، كما قالوا للنبي
ﷺ: الرجل منا يلقي أخاه أينحي له؟ قال: «لا»^(١). ولما رجع معاذ من الشام سجد
للنبي ﷺ. فقال: «ما هذا يا معاذ؟» قال: يا رسول الله، رأيتهم في الشام يسجدون
لأساقفتهم، ويذكرون ذلك عن أنبيائهم. فقال: «كذبوا عليهم، لو كنت آمراً أحداً أن
يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من أجل حقه عليها. يا معاذ، إنه لا ينبغي
السجود إلا لله»^(٢).

وأما فعل ذلك تديناً وتقرباً فهذا من أعظم المنكرات، ومن اعتقد مثل هذا قربة،
وتديناً فهو ضال مفتر، بل يبين له أن هذا ليس بدين ولا قربة، فإن أصر على ذلك
استتيب، فإن تاب وإلا قتل.

وأما إذا أكره الرجل على ذلك، بحيث لو لم يفعله لأفضى إلى ضربه أو حبسه،
أو أخذ ماله أو قطع رزقه الذي يستحقه من بيت المال ونحو ذلك من الضرر، فإنه يجوز
عند أكثر العلماء، فإن الإكراه عند أكثرهم يبيح الفعل المحرم كشرب الخمر ونحوه، وهو
المشهور عن أحمد وغيره، ولكن عليه مع ذلك أن يكرهه بقلبه، ويحرص على الامتناع منه
بحسب الإمكان، ومن علم الله منه الصدق أعانه الله تعالى، وقد يعافى ببركة صدقه من
الأمر بذلك. وذهب طائفة إلى أنه لا يبيح إلا الأقوال دون الأفعال، ويروى ذلك عن
ابن عباس ونحوه، قالوا: إنما التقية باللسان، وهو الرواية الأخرى عن أحمد.

وأما فعل ذلك لأجل فضول الرياسة والمال فلا، وإذا أكره على مثل ذلك ونوى
بقلبه أن هذا الخضوع لله تعالى كان حسناً، مثل أن يكره كلمة الكفر وينوي معنى
جائزاً. والله أعلم.

٣٧٤/١

(١) الترمذي في الاستئذان (٢٧٢٨) وابن ماجه في الأدب (٣٧٠٢).

(٢) ابن ماجه في النكاح (١٨٥٣).

وسئل الإمام العالم العامل الرباني، والبحر النوراني؛ أبو العباس: أحمد بن تيمية - رحمه الله تعالى - عن النهوض والقيام الذي يعتاده الناس، من الإكرام عند قدوم شخص معين معتبر، هل يجوز أم لا؟ وإذا كان يغلب على ظن المتقاعد عن ذلك أن القادم يخجل، أو يتأذى باطناً، وربما أدى ذلك إلى بغض وعداوة ومقت، وأيضاً المصادفات في المحافل وغيرها، وتحريك الرقاب إلى جهة الأرض والانخفاض، هل يجوز ذلك أم يحرم؟ فإن فعل ذلك الرجل عادة وطبعاً ليس فيه له قصد، هل يحرم عليه أم لا يجوز ذلك في حق الأشراف والعلماء، وفيمن يرى مطمئناً بذلك دائماً هل يأنم على ذلك أم لا؟ وإذا قال: سجدت لله هل يصح ذلك أم لا؟

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين . لم تكن عادة السلف على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، أن يعتادوا القيام كلما يرونه - عليه السلام - كما يفعله كثير من الناس، بل قد قال أنس بن مالك : لم يكن شخص أحب إليهم من النبي ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له، لما يعلمون من كراهته/لذلك، ولكن ربما قاموا للقادم من مغيبه تلقياً له، كما روي عن النبي ﷺ أنه قام لعكرمة، وقال للأنصار لما قدم سعد بن معاذ: « قوموا إلى سيدكم»^(١) وكان قد قدم ليحكم في بني قريظة لأنهم نزلوا على حكمه .

والذي ينبغي للناس أن يعتادوا اتباع السلف على ما كانوا عليه على عهد رسول الله ﷺ، فإنهم خير القرون ، وخير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، فلا يعدل أحد عن هدى خير الورى ، وهدي خير القرون إلى ما هو دونه . وينبغي للمطاع ألا يقر ذلك مع أصحابه، بحيث إذا رأوه لم يقوموا له إلا في اللقاء المعتاد .

وأما القيام لمن يقدم من سفر ونحو ذلك تلقياً له فحسن .

وإذا كان من عادة الناس إكرام الجائي بالقيام ولو ترك لاعتقد أن ذلك لترك حقه أو قصد خفضه ولم يعلم العادة الموافقة للسنة فالأصلح أن يقام له ؛ لأن ذلك أصلح لذات البين، وإزالة التباغض والشحناء، وأما من عرف عادة القوم الموافقة للسنة، فليس في ترك ذلك إيذاء له، وليس هذا القيام المذكور في قوله ﷺ: «من سره أن يتمثل له الرجال

(١) البخاري في المغازي (٤١٢١)، وفي الاستئذان (٦٢٦٢) وأبو داود في الأدب (٥٢١٥)، وأحمد ٣/ ٢٢

قياماً فليتبوا مقعده من النار»^(١) فإن ذلك أن يقوموا له وهو قاعد، ليس هو أن يقوموا لمجيئه إذا جاء؛ ولهذا فرقوا بين أن يقال: قمت إليه وقمت له، والقائم للقادم ساواه في القيام، بخلاف القائم للقاعد.

وقد ثبت في صحيح مسلم: أن النبي ﷺ لما صلى بهم قاعداً في مرضه صلوا قياماً ٣٧٦/١ أمرهم بالعود، وقال: «لا تعظموني كما يعظم الأعاجم بعضها بعضاً»^(٢) وقد نهاهم عن القيام في الصلاة وهو قاعد، لثلا يتشبه بالأعاجم الذين يقومون لعظمائهم وهم قعود.

وجماع ذلك كله الذي يصلح اتباع عادات السلف وأخلاقهم، والاجتهاد عليه بحسب الإمكان. فمن لم يعتقد ذلك ولم يعرف أنه العادة وكان في ترك معاملته بما اعتاد من الناس من الاحترام مفسدة راجحة، فإنه يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما، كما يجب فعل أعظم الصالحين بتفويت أدناهما. / ٣٧٧/١

فصل

وأما الانحناء عند التحية: فينهي عنه، كما في الترمذي عن النبي ﷺ: أنهم سألوه عن الرجل يلقي أخاه ينحني له؟ قال: «لا»^(٣) ولأن الركوع والسجود لا يجوز فعله إلا لله عز وجل؛ وإن كان هذا على وجه التحية في غير شريعتنا، كما في قصة يوسف: ﴿وَحَرُّوا لِمِ سُبُجًا وَقَالَ يَكْتُبُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠] وفي شريعتنا لا يصلح السجود إلا لله، بل قد تقدم نهي عن القيام كما يفعله الأعاجم بعضها لبعض، فكيف بالركوع والسجود؟ وكذلك ما هو ركوع ناقص يدخل في النهي عنه. / ٣٧٨/١

(١) أبو داود في الأدب (٥٢٢٩)، والترمذي في الأدب (٢٧٥٥) وقال: «حديث حسن»، عن معاوية.

(٢) مسلم في الصلاة (٨٤/٤١٣)، وأبو داود في الصلاة (٦٠٦)، كلاهما عن جابر.

(٣) الترمذي في الاستئذان (٢٧٢٨) وقال: «حديث حسن».

وقال شيخ الإسلام :

فصل

كان المشركون يعبدون أنفسهم وأولادهم لغير الله ؛ فيسمون بعضهم عبد الكعبة ، كما كان اسم عبد الرحمن بن عوف ، وبعضهم عبد شمس ، كما كان اسم أبي هريرة ، واسم عبد شمس بن عبد مناف ، وبعضهم عبد اللات ، وبعضهم عبد العزى ، وبعضهم عبد مناة وغير ذلك مما يضيفون فيه التعبيد إلى غير الله ، من شمس أو وثن أو بشر أو غير ذلك مما قد يشرك بالله .

ونظير تسمية النصارى عبد المسيح . فغير النبي ﷺ ذلك وعبدتهم لله وحده ، فسمى جماعات من أصحابه : عبد الله وعبد الرحمن ، كما سمي عبد الرحمن بن عوف ونحو هذا ، وكما سمي أبا معاوية وكان اسمه عبد العزى فسماه عبد الرحمن ، وكان اسم مولاه قيوم فسماه عبد القيوم .

ونحو هذا من بعض الوجوه ما يقع في الغالية من الرافضة ومشابهيهم الغالين في ٣٧٩/١ المشائخ ، فيقال : هذا غلام الشيخ يونس أو للشيخ يونس أو غلام ابن/الرفاعي أو الحريري ونحو ذلك مما يقوم فيه للبشر نوع تأله ، كما قد يقوم في نفوس النصارى من المسيح ، وفي نفوس المشركين من آلهتهم رجاء وخشية ، وقد يتوبون لهم . كما كان المشركون يتوبون لبعض الآلهة ، والنصارى للمسيح أو لبعض القديسين .

وشريعة الإسلام الذي هو الدين الخالص لله وحده ، تعبيد الخلق لربهم كما سنه رسول الله ﷺ ، وتغيير الأسماء الشركية ، إلى الأسماء الإسلامية ، والأسماء الكفرية إلى الأسماء الإيمانية ، وعامة ما سمي به النبي ﷺ عبد الله وعبد الرحمن ، كما قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء : ١١٠] فإن هذين الاسمين هما أصل بقية أسماء الله تعالى .

وكان شيخ الإسلام الهروي قد سمي أهل بلده بعامة أسماء الله الحسنى ، وكذلك أهل بيتنا غلب على أسمائهم التعبيد لله ، كعبد الله ، وعبد الرحمن ، وعبد الغني ، والسلام ، والقاهر ، واللطيف ، والحكيم ، والعزيز ، والرحيم ، والمحسن ، والأحد ، والواحد ، والقادر ، والكريم ، والملك ، والحق . وقد ثبت في صحيح مسلم عن نافع عن عبد الله بن عمر : أن النبي ﷺ قال : «أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ،

وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة^(١) وكان من شعار أصحاب رسول الله ﷺ
معه في الحروب: يا بني عبد الرحمن ، يا بني عبد الله ، يا بني/عبيد الله ، كما قالوا ذلك ٣٨٠/١
يوم بدر، وحنين، والفتح، والطائف، فكان شعار المهاجرين: يا بني عبد الرحمن، وشعار
الخزرج يا بني عبد الله، وشعار الأوس: يا بني عبيد الله./ ٣٨١/١

آخر ما وجد الآن من كتاب توحيد الإلهية
ويليه كتاب توحيد الربوبية

(١) أبو داود في الأدب (٤٩٥٠)، وأحمد ٣٤٥/٤ والبيهقي في السنن الكبرى ٣٠٦/٩